

شخصیات حیات من الأغاني



دریات

د. محمد المنسی قنذیل

شخصيات حية
من
الأغاني

د. محمد المنسي قنديل



الجمعية المصرية لصيانة المكتبات

١٩٩٠

الإخراج الفني : محمد المحجوب

شخصيات حية

من

الأغاني

أبو الفرج الأصفهاني

لو وجد أبو الفرج الأصفهاني في أيامنا . . هل كان يستطيع أن يؤلف «الأغاني» ؟ .
ناهيك عن ضيق الوقت . وكثرة المشاغل . واللهات خلف لقمة العيش . وعدم ملاءمة
هذا النوع من المؤلفات الموسوعية لمصرنا .

وهل كان يستطيع أن يجد بيننا مادته الحية ؟
ذلك الكم الكبير من فرسان الصحراء ، والخلفاء ، والندامي ، والشعراء ،
والجواري ، وريات الخدور ، والقيان المغنيات ، وسلاطين الحيرة والصعاليك والشواذ ،
والظرفاء ، والمتأدبين ، وعلماء الكلام ، ومثیری الفتن ، والشعوبيين والعذريين ،
والهازلين ، وقاطعي الطرق .

هل كان يستطيع أن يعيد أنس الليالي الخوالي . ويبعث الضوء في سماواتنا الخالية
النجوم ؟

أم أنه سوف يجدنا متعبين . نادمين على اليوم الذي نعيشه خائفين من اليوم الآتي .
سوف يجدنا في ذيل القائمة بعد أن كنا في أولها . لن يجد أبو الفرج في ليالينا مادة الاسمار
الحية . ولن يجد في اشعارنا ذلك الوضوح والرغبة الصريحة ولن يجد أيضاً في قصص حبنا
ذلك الهوى المستعر . حتى أغانينا سوف تؤذى اذنيه وهي تتكرر وتعيد نفس المعاني الركيكة
كانها اسطوانة مشروخة .

ليبق أبو الفرج بعيداً . وليبق الأغاني كتاباً فوق الرف . فالايام لم تعد هي الايام .
ونحن لم نعد نحن . وهذا الكتاب الغريب يحمل من الاسى بقدر ما يحمل من المتعة . كان
نادره وأخباره وتراجم شعرائه مرثية طويلة لشمسنا الغاربة .

ذات ليلة أرق هارون الرشيد ، ظل يتقلب فوق فراشه . لم تكن به رغبة في أى شيء ولم تكن المسكنات قد تقدمت لهذه الدرجة . نهض وأمر حجابيه أن يحضروا كل ما في بغداد من مغنيين وندماء ، ولم يروقت حتى جاء جمعهم . بعضهم يعانى من أثر النوم والبعض من أثر السهر كان الخليفة متجهها وأمرهم أن يختاروا أحسن مائة صوت ترنم بها المغنون . وتنفس الجميع الصعداء ، وأخذوا يرتبون له الأصوات حسب جودة الحانها وكلماتها . ارتاح الخليفة قليلاً وأمرهم بالانصراف . حاول أن ينام لكن النوم ظل جافياً . عاود النهوض والأمر بإحضار الجميع مرة أخرى . جاءوا يرجفون وهم يظنون أنهم أخطأوا في الاختيار . لكنه أمرهم أن يختاروا من المائة صوت أحسن عشرة أصوات . اختاروا وانصرفوا . وللمرة الثالثة ظل النوم جافياً فإستدعاهم وكانوا عند باب القصر لم يغادروه فأمرهم أن يختاروا أحسن ثلاثة أصوات . فأختاروا الصوت الأول من شعر أبى قطيفة وهو ليس من الشعراء الفحول . وثانيهما عمر بن أبى ربيعة . وثالثهما الشاعر الأسود نصيب . . وهدأت نفس الخليفة وامتد حبل المجلس وهم يغنون الصوت الأول .

القصر فالنخل فالجباء بينهما

أشهى إلى القلب من أبواب جيرون . .

وظلوا يرددون هذه الأغنية حتى غارت النجوم وجاء الصباح .

هذا هو المنهج البدائي الذى وضعه أبو الفرج أمامه قبل أن يقضى خمسين عاماً يخط فيها موسوعته الضخمة «الأغانى» ، يرتب الأصوات المائة . الثلاثة فالعشرة فبقية المائة . يترجم للشعراء وللمغنيين ويعقبهم بفصول في غناء أولاد الخلفاء . ويتعرض من خلال ذلك لكافة جوانب العصر السياسية والاجتماعية . خمسون عاماً كاملة وهو يفند الأخبار ويفاضل بين الروايات ويجهتد في جمع الطريف والمفيد ، حتى استطاع أن يتم نسخة واحدة ذهب بها إلى سيف الدولة الحمداني فأعطاه ألف دينار .

الاقدمون قالوا عن أبى الفرج أنه عبقرى فذ . صنع ما لم يصنعه أحد . وقالوا بل هو أكذب الناس . كان يذهب لسوق الوراقين فيحمل إلى بيته ما يمكن حمله . ويعكف في البيت على سرقة ما يجد من أخبار وينسبها لنفسه . وحكى الصاحب بن عباد أنه كان يصطحب معه إلى موسم الحج حمولة ثلاثين جملاً من الكتب . فلما ظهر كتاب الأغاني إستغنى به عن كل الكتب والجمال . لكن ياقوت الحموى يتساءل شامتاً . أين هى هذه المائة صوت ؟ إنها تسعة وتسعون فقط . ويضيف طه حسين بذوقه الادبى الراقى . أن أهم كتابين في التراث هما : تاريخ الطبرى وهو المرجع في تاريخ الاسلام السياسى . وكتاب الاغانى وهو المرجع أيضاً في وصف الحياة الاجتماعية والادبية والمزاج الحضارى الاسلامى .

ان رجال السياسة يتراجعون قليلا ليتقدم الشعراء . يخفض الفرسان سيوفهم حتى يعلو صوت الغناء . يتوقف صليل السيوف ويتواصل إيقاع اللحن والسمر . لقاء

محبوبين . سهرة في الصحارى البعيدة حول عين ماء . . يجلس اعرابي حوله مجموعة من الفتيات لا يعرفهن ولا يعرفنه يسامرن ويروى لهن الأشعار . . ثم يذبح ناقته إذا أقبل الفجر فيأكل ويأكلن ويمضى دونما وداع . عشاق معذبون . . عندما يسمعون حذاء القوافل يلفظون أنفاسهم الأخيرة . ما بين حرارة اللقيا ومرارة البين . يؤرخ ابو الفرج هؤلاء الصفوة من الناس الذين رفعهم جهدهم العقل عن طبقتهم العادية وزرع داخلهم بذرة الطموح القلق . هكذا ظلوا يتأرجحون بين الاحلام التي يقبضون عليها في الشعر والقصائد ، وبين قوانين الانساب الارستقراطية القائمة والتي لا ترحم . .

ولد علي بن الحسن بن محمد القرشي الكاتب المعروف بالاصفهانى في آواخر القرن الثالث الهجرى وقضى شبابه وكهولته في بداية القرن الرابع الهجرى . ولد عام ٢٨٣ هـ نفس العام الذى مات فيه البحتري الشاعر . وهو شاهد على عصر مضطرب . مثل كل العصور التي تحمل غاضاً كاذباً يوهم بالتغير ولا شيء يتغير . كانت الدولة الاسلامية التي فتحتها الراشدون والامويون وسلموها للعباسيين قد ذهبت شيعاً . في بغداد استولى الفارسيون على الحكم . وفي دمشق قامت دولة سيف الدولة الحمداني وفي مصر كان الفاطميون . وفي المغرب والاندلس كان بنو أمية . وكل فريق يدعى الشرعية وأحقته بحكم المسلمين إما بحق النسب الشريف أو بقوة السيف .

في بغداد كانت الخلافة العباسية قد هزلت وتحولت إلى صورة هشّة كلما نفختها جماعة من العسكر سقطت . ولعل أسماء الخلفاء في هذا العصر تعكس ما وصلوا إليه من هوان . مثلاً . . الخليفة المطيع لله . الخليفة المتوكل على الله ، وكلها صفات حافلة بالخنوع والطاعة لله اسماً . يكفي أن ينাম الخليفة فوق سرير الخلافة ويأتى عليه الصباح فلما يجد نفسه نائماً في السجن أو نائماً في القبر .

في عام ٣٣٤ هـ أى في صدر شباب أبو الفرج اقتحمت عائلة فارسية من الديلم بغداد وتمكنت من الاستيلاء عليها ووصل قائدهم الحسن أحمد بن بويه واجتمع بالخليفة المستكفى بالله وبايعه فرضى الخليفة عنه وهل كان يملك إلا أن يرضى . وخلع عليه لقب نصر الدولة . واستقر آل بويه احتلوا ما أعجبهم من دور وقصور وسط بغداد . غيروا ما غيروا ونهبوا ما نهبوا والخليفة راض تمام الرضى خاصة عندما رتب له نصر الدولة كل يوم خمسة آلاف درهم يتسلمها كاتبه لنفقات الخلافة .

كان أبو الفرج ابن عصره بحق . عرف أن هناك أكثر من مائدة وأن عليه أن يجلس عليها غلصاً لكل صنوف الطعام . منذ اللحظة التي اقتحم فيها آل بويه بغداد وهو يسير في ركابهم فينادمهم ويؤلف الرسائل استجلاً لرؤسائهم حتى حسبه معظم مؤرخي سيرته متشيعاً . وظل فترة طويلة من جلساء الوزير المهلبى وزير آل بويه . ولم يكتف بتدعيم مركزه

في بغداد لكن طموحه تعدى الحدود ، فأقام الصلات الوثيقة مع سيف الدولة وراسل بنى أمية في بلاد المغرب ، وأرسل لهم أكثر من كتاب لم يبق منها شيء غير فصول متفرقة من كتاب «أدب الغرباء» .

كان سؤال العصر الحائر . . أين يمكن أن يكون الولاء لأى دولة ؟ ولأى حكام ؟ أمة مفتتنة ترقص رقصة الموت . تبنى القصور الباذخة . وتغرق في الملذات ، يزداد الاقطاعيون وحشية ويزداد حرافيش مدنها فقراً ، تهب رياح الخطر من كل جانب . على الحدود الشرقية لدولة العباسيين تتخلق أقوام جديدة . تتجمع جحافل من البشر الحفاة الجوعى كان مقدراً لها أن تحتاج العالم المتحضر - وبغداد في المقدمة - اجتياح الجراد ولا تترك خلفها إلا الخراب . هؤلاء هم التتار يتكونون وسط شرنقة السهوب الباردة .

دولة سيف الدولة تقيم نوعاً من التوازن الخطر بين الروم في الشمال والصليبيين في الجنوب . وتدخل كل فترة من الزمن في غزوة قصيرة لا يتنصر فيها أحد ولا يهزم فيها أحد . معارك هدفها الوحيد فقط هو حفظ التوازن .

بنو امية أيضاً في المغرب والاندلس ترصد لهم قبائل القوط وتأتب لطردهم عبر البحر ليذهب الاندلس إلى الأبد ويخرج العرب من فردوسهم المفقود .

عن تلك البقية من الأمة اعتكف ابو الفرج خمسين عاماً في بيت على ضفة دجلة يسمع غناء الفلاحين والموالى وهم يرددون المواويل عما حل بالبرامكة من نكبات . عن عز الرشيد وذل شرملة . ويشهد راية العباسيين السوداء تخالطها نقوش الديلم السلاجقة . ظل وحيداً كالسيف المفرد يبعث لىالى الاسمار على الورق ويحى ربح الصحراء الدافئة . تتحرك حوله القطط الكثيرة التى يهوى اقتناءها وتربيتها حتى أن رائحة البيت لم تكن تطلق ولا يقبل أحد على زيارته وغير ذلك كما وصفه معاصروه . كان وسخاً إلى حد مفرز لم يعرف الاستحمام قط رغم معرفة العرب بالصابون . كان يفصل الثوب ويلبسه فلا يخلعه من فوق جسده إلا وقد بلى وتقطع . يخرج من بيته يتبعه سرب من القطط حتى إذا وصل إلى مجلس الوزير المهلبى أمسك الجالسون أنوفهم ونثر الغلمان العطر في أرجاء المكان والوزير المهلبى يتحمل منه هذه الفظاظة لأدبه وغزارة معلوماته . وكان أكولاً نهياً . يظل يغمس أصابعه في الأطباق التى أمامه حتى يأق عليها ، فى الوقت الذى كان فيه الوزير المهلبى رجلاً شديداً الاناقة . يقف غلام عن يمينه يحمل صينية عليها حوالى مائة ملعقة نظيفة . فيتناول الوزير الواحدة ويأخذ بها الصنف الذى أمامه ثم يعطى الملعقة لغلام آخر عن يساره ويتناول واحدة أخرى ويظل يبدل الملاعى بعدد المرات الى تدخل فيها فمه . وأبو الفرج يأكل ويتجشأ ثم ينهى طعامه بأن يزدرد مقدار خمس دراهم من الفلفل الأسود ليساعده على الهضم دون أن يبدو على وجهه أى تعبير .

خمسون عاماً وهو يسود الصفحات دون كلل . يساعده على ذلك وحدته الممضنة وغروره الشخصى ، وفقره الذى لا يوازى طموحه . ويساعده أيضاً تقدم صناعة الورق حيث استطاع علماء بغداد ان يطوروا البادرة التى أخذوها من الصين ، وانتجوا أنواعاً جيدة لا تتشرب الحبر وعندما إنتهى أخيراً لحمل الكتاب إلى سيف الدولة الحمدانى فأعطاه ألف دينار وهو يعتذر لأن نفقات الحرب - كالعادة - لم تبق للمثقفين شيئاً . وظل فرحاً بالمبلغ حتى قابله أحد الأمراء عن سمعوا بخبر الكتاب وقال له متأثراً . إنه لو أعطاه الكتاب بدلاً

من سيف الدولة لنقده الغين من الدنانير فى الحال . وصدم أبو الفرج ؛ إذ لم يكن فى مقدوره أن يخط الكتاب مرة أخرى . وأيامه الأخيرة تضى حثيثاً . لقد أصاب عقله الوهن . وأمتلأ البيت بالفئران بعد أن هجرته القطط ، وأخذت تقرض خشب السقف طوال الليل فيحسبها خيول المهدي المنتظر جاءت ترفع رايات الخلاص . وأصابه الفالج ولم يعد يقوى على السير أو الحركة فأخذ يداوم على الجلوس فى نافذة بيته المطلّة على نهر دجلة ، ويسب الجميع ويبشر بدمار مثل دمار سدوم وعاموره . وذات يوم أكتشف الجيران أن سبابه قد انقطع ، وأن رائحة العفونة التى تشع من البيت قد ازدادت فأقتحموا البيت . كانت جثته ملقاة جنب السرير والفئران تلعب فوقها وحولها . شيعوه فى جنازة بسيطة لم يحضرها إلا نفر قليل أقل من عدد مجلدات الاغانى ودفن فى مقابر الصدقة على اطراف بغداد .

كان أبو الفرج يحب الاموين . لأن اخبارهم كانت تحمل له - مثلما تحمل لنا الآن - بعضاً من الكبرياء . كانت ريح الصبا إذ تهب . تهب من دمشق وسنابك الخيل إذ تنطلق وتفتح الامصار تنطلق من دمشق . صحيح أن دولتهم كانت حافلة بالفتن . وقتل احفاد الانبياء والصحابة الاجلاء . وانتزاع عروش واغتصاب بيعات . وكان فيهم ذلك الصنف من الاعمام الذى يأكل حتى اولاد أخيه قبل أن تبرد جثته . . فيهم كل جنون التراحيديات التى نعرفها . لكن أبا الفرج نفذ إلى روح هذه الدولة الغريبة . شىء من رومانسية الانتصار والزهو . وبكارة اكتشاف العالم . كان القواد ينتصرون والشعراء يمدحون ويعشقون . وتنسع مساحة العالم الاموى ويزداد تلاصقه .

أما حديثه عن العصر الجاهلى فيغلفه طابع الخرافة . وهو يحاول الايهام بتحري صدق الاخبار ويورد سلاسل من الاسانيد الطويلة حتى انه لا يتحرج فى أن يسلسل نسب شخصية حتى يصل بها إلى سيدنا آدم . . ويظل الطابع الاسطورى لا يفارق روح الخبر . وفى كتابته عن الدولة العباسية تقترب درجة السرد من التاريخ اليومى . إن الاخبار تصبح عادية والأقوال ناهة خالية من الحكمة . حتى أن نوازعه الشخصية تغلبت عليه فلم يذكر تراجم لشعراء مهمين مثل أبى الحسن بن هانئ الشهير بأبى نواس ولا ابن الرومى وفى الوقت الذى افرد فيه الصفحات الطوال لاولاد الخلفاء وأغانيمهم وأشعارهم الركيكة .

إن الأمر لا يخلو أحياناً من فكاهة . حتى ولو كان الحدث سياسياً هاماً .

« دخل أهل المدينة المسجد وأتوا المنبر وأعلنوا خلعهم يزيد بن معاوية فقال عبد الله بن عمرو خلعت يزيداً كما خلعت عمامتي ونزعها عن رأسي ، وقال آخر خلعت كما خلعت نعلي . وقال آخر خلعت كما خلعت ثوبي . وقال آخر خلعت كما خلعت خفي . حتى كثرت العمامم والتعال والخفاف . . » .

ولا يخلو من بعض الرومانسية . مثل حديثه عن عذاب المحبين العذريين ويقابل أبو الفرج ذلك بنوع خفي من السخرية . كان حسياً بدرجة ما . لذا لم يسلم عاشق دنف معذب مثل مجنون ليلى قيس بن الملوح من لمزاته . . يقول :

« سألت بني عامر بطناً بطناً عن مجنون بني عامر فما وجدت أحداً يعرفه . . » .
ويتحدث باحترام عن الأذكاء . يروي عن ابن عباس الصحابي ذي الذاكرة الحديدية أنه كان يسد أذنيه عن صوته النائح حتى لا يحفظه . وأقبل عليه عمر بن أبي ربيعة فقال انشد . فأنشده :

تشط غدا دار جيراننا . .

وسكت . فقال له ابن عباس :

وللدار بعد غد أبعد

فقال : له عمر كذلك قلت اصلحك الله - فسمعته .

فقال لا : ولكن كذلك ينبغي . .

خلف كل هذه الأخبار موج عالم الحركة والفعل . عالم حي له القدرة على الكسب والخسارة . لكن السؤال يطرح نفسه . هل اضاف جديداً أكثر من كونه ألف كتاباً متمعاً . لا شك أنه فند الكثير من الروايات الأخبار . ولا شك أنه كان أكثر صدقاً ومنطقية من الكثير من الكتب لكنه اشترك في نفس العيب الذي يغلب على معظم كتب التراث العربي . وهو ما يمكن تسميته بالكتابة « اليقينية » أو بتعبير « أدونيس » ان يتحدث الكاتب عما يعرف وأن يتعد عما لا يعرف . من ذلك نشأ ذلك الاهتمام البالغ برواية الأخبار ، ورصد تلك السلسلة الطويلة من الاسانيد السخيفة عن فلان . عن فلان . عن فلان وهكذا حتى يصل إلى أنه قال . ثم يروي خبراً اسطورياً لا يمت للواقع بصلة . هذا الاهتمام هو محاولة للايهام أن ما قيل حقيقة . لذا لا تكسب الكتابة طابعاً وجدانياً بقدر ما تغلب عليها الصفة الموسوعية وعدم التخصص . وتتبدل الرغبة في الكتابة الحقيقية إلى محاولة محاصرة العالم بدلاً من الغوص خلف ظواهره المريبة واكتشافه .

ولكن تبقى شخصيات الأغاني واقعية كانت أو خيالية حليطاً من الحب والجنون والرغبة
تصلو للتحليق الصوفي وتهبط للسطولة الدون كيشوتية ولعل هذا أحد أسرار إمتاع هذا
الكتاب الفريد .



أمرؤ القيس أحزان الملك الضليل

... قرر أبو الفرج الأصفهاني أن يبحث عن أمرؤ القيس ...

كانت بلاد الروم غيمة رمادية ممطرة . وأمرؤ القيس يموت . . منذ أن أرسل له قيصر الروم هديته . ثوب مسموم . وجلده يتساقط قطعاً صغيرة ، لا تترك خلفها إلا قروحاً مليئة بالصديد . وكان الصدا يأكل شمس العرب المعطلة . . ويبحث أبو الفرج في دأب . قالوا له . . لقد رحل للشمال . ثلج وضباب ونسيان . وأمرؤ القيس يهذى عن جده أكل المرار الذي قسم القبائل بين أبنائه وجعلهم ملوكاً عليها . وعن أبيه الذي ملك كندة وبني أسد وتغلبا ويكرا . وعن نسوة «دائرة جلجل» وكيف نحر لهن ناقته . عشق وصيد ورمل ملتهب وشمس لا تغيب . هذيان وسط الثلج . وملاك الموت ضئيل الحجم متدثر في عباءة سوداء . رابض كطفل على حافة نافذة القصر . . أمسك أمرؤ القيس قطع جلده المتساقط . . وفكر . . هذه هي النياشين التي أنعم على بها قيصر . وعندما وصل أبو الفرج إلى بلاط الروم أكد له الحرس أن أمراً القيس موضع تكريم القيصر . حتى أنه سوف يزوجه من أبنته . . تساءل أبو الفرج في سخرية . .

- منذ متى هذا الوفاق بين الروم والعرب ؟ .

واعترف أمرؤ القيس للندامي . . قبل أن يجف النبع . . وقبل أن يتحلل دم النائر . .

- لما قسم جدى قبائل العرب بين أبنائه . قسم بيننا ميراث الكراهية . وهذا ميراثي . أب مقتول . وعرش لا أريده . . وثأر ثقيل الوطأة . .

عنكبوت ينسج حيوطه بين الدرع والسيف . وجواد يتقيأ العشب الرخو . وطائر الصدى تائه عبر الفيافي المغطاة بالثلج . واجتاز أبو الفرج الأروقة ، وجده منزوياً في حجرة حقيرة ، وملاك الموت متربص على النافذة . وأمسك أمرؤ القيس بيده وتوسل .

خلفني إلى الصحراء .. عد بي للشمس . لكن «أبو الفرج» نفّض يده في حنق وهو يهتف ..

- لماذا لم تأخذ ثأر أبيك ؟ ..

غامت الذكريات في عينيه . ومضة خاطفة كأحلام الموت . يجتاز الصحراء وحيدا . مغضوباً عليه من أبيه ومن قومه ومن حبيبة قلبه فاطمة . هدده أبوه :

- « أنت تقول الشعر وهذه صفة يأنف منها الملوك » . وقال قومه في امتعاض : « كيف نرضى بمن يصاحب الخلعاء والسكران » . وهتفت فاطمة : « أنت لا صلاح لك . تهوى صيد الجيف ويغايا النساء » . كلهم لفظوه . نزعوا منه صفة الامارة . وتركهم دون أسف . كان الأب عملاقاً قاسياً . يرفع سوطه فلا يفرق بين حليف أو عبد . يمتنن شيوخ القبائل عندما يتأخرون في دفع الاعشار . ويغدر بالندامي . ويدخل بالنساء قبل أزواجهن وكانت فاطمة .. زهرة شقائق النعمان الوحيدة . تنتظر في صمت وحزن وهو عاجز عن أن يكون مخلصاً لها . وكان قومه كالماشية .. ينهضون من تحت العصي .. ويخرون تحت السوط . وأمرى القهيس يهرب من الجميع .. يحاول أن يوهم نفسه أنه ليس نبأ شيطانياً ، لا ظل له ولا جلدور .

ثم قتل الأب . قتل الحارث بن عمر بن آكل المرار .. أخيراً حدث الشيء الطبيعي والمنطقي .. فعلها بنو أسد عبيد العصي الذين نهضوا من ذل الاسر وفداحة الاتاوات المفروضة . كانوا قد حاولوا العصيان وعدم دفع الجزية للملك . لكن حجباً لم يمهلهم . وضع رقاب الرجال تحت السيف . وساق النساء سبايا . لم يستطيع بنو أسد وقتل إلا أن يحنوا رؤوسهم للعاصفة ويطهروا الخنوع .. رفع حجر كأس انتصاره وهو يئن نفسه بيوم يملك فيه كل العرب كما ملكها آكل المرار . لكن خيول بني أسد حاصرت خيمته هاجموه بكل مرارة العبودية .. ذل شهر وملك دهر . هكذا صرخوا والسيوف تهوى كالنسور الجائعة ..

تركة بنو أسد يحتضر وحيداً مشخناً بالجراح حتى تزداد درجة عذابه .. لم يبق بجانبه إلا تابع قديم فأوصى له وصيته الأخيرة :

- « إحمل سلاحى وخيلى وقدورى ووصيتى واذهب إلى أولادى . اذهب إلى ابني الأكبر وأخبره بموتى . إن بكى وجزع فاتركه إلى غيره . لا تعط اشياى إلا لمن لم يجزع على .. » .

وأسبل الرجل عيني الملك . وأقام بنو أسد الأفراح عشر ليالٍ .. وبعث لهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة وفداً يهتهم .. وسار الرجل إلى «نافع» أكبر الأبناء وأحقهم بشار أبيه .. قال له .. مات الملك .. صرخ . أهال التراب على رأسه وانخرط في البكاء . تركه الرجل ممتعضاً إلى الإبن الثانى . ولطم الثانى خديه بالنعال . وشق الثالث ثوبه وناح

كالنساء .. ووقع الرابع مغشياً عليه .. ولم يبق منهم إلا امرؤ القيس اصغروهم وأبعدهم عن
النار . وأحس الرجل بالأسف وهو يؤكّد لنفسه أن كل ما سيفعله امرؤ القيس هو ارتجاله
لمرثية طويلة مليئة بالمواجع لكنه حمل السلاح والقدور والوصية . وسار إليه .

كان جالساً يلعب النرد مع أحد رفاقه . حولهما كؤوس الخمر وبقايا قصف الليلة
الماضية .. القى امرؤ القيس النرد .. قال الرجل .. مات الملك .. أمسك الرفيق عن
اللعب متردداً .. قال امرؤ القيس دون أن يلتفت ..
- القى نردك ..

لقى الرفيق النرد .. تمت امرؤ القيس .. ما كنت لأفسد عليك دورك .. القى
الرجل ما يحمل من أشياء بين يديه .. والح .. مات الملك . قال ساخراً
- ضيعني صغيراً .. وحملني دمه كبيراً .. لا صحو اليوم ولا خمر غداً . اليوم
خمر .. وغداً أمر .

ولكنه لم يكن يعنى ذلك .. هتف أبو الفرج في حنق ..
- لم تكن تعنى ذلك .. لم تكن تعرف قدسية النار . لم تكن تعرف ماذا يعنى إهدار دم
ملك ..

تمتم امرؤ القيس :
- ملك فاسد مغرور .. كنت أنا أيضاً أتمنى أن أقتله . لقد حقق بنو أسد ما كنت
أتمناه .. إذا قاتلتهم فقد قاتلت بعضاً منى . ألا تفهم !

كانت الصحراء مازالت بعيداً . وبلاد الروم أكثر ظلمة . والناقة تحمل جسد امرؤ
القيس النازف . وأبو الفرج فوق الناقة الأخرى . يشم رائحة القروح وقد أصابها التعفن .
حتى أنه فكر أن كل شמוש الصحراء لن تطهر هذه الرائحة .. هتف متضايقاً ..

- كان يجب أن تقاتلهم . هكذا حملتك وصية الملك الأخيرة ..

عندما أفاق امرؤ القيس من سكرته قرر ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمرًا . ولا يتطيب
بطيب ، ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه حتى يدرك ناره .. اللعنة على أيام الصيد
وصبابات العشق ونزوات الشعر .. ما جدواها وطيور النار عطشى وقبائل تغلب ويكر ما
تزال على وفائها الأبله للموتى . وبنو أسد يشدون الصف للمصف ويستصرخون العصبية
ضد بني كندة . والمنذر بن ماء السماء دخل في لعبة الصراع .. استعان بجيش من الفرس
ليصفى حسابات قديمة بينه وبين الملك المقتول .. أعلن أن كل من يعادى أسداً فهو عدو
له .. يا امرؤ القيس .. هذا ثأرك . وهذا عارك . صرخ ..

- يا لثارات الملك ..

نهضت كندة ويكر وتغلب وساروا خلفه . لم يكونوا يحبونه وكان يكرهم .. لكنها

نواميس الصحراء والعقل الجماعى عندما يصيبه العجز فلا يرى الخلاص إلا فى الحرب .
كلهم اتفقوا على طلب الثأر واتفقوا أيضاً على كراهية الملك المقتول . . كان غائباً عن وعيه
الحقيقى وهو يستحث الخيل ويطلق صيحات القتال الوحشية يحاول دفع مشاعر التخاذل
التي يحس بها فى أعماقه . فكر . سوف تكون مفاجأة عندما يكتشف أن بنى أسد يحملون
ملاحه . . هل يقتل الانسان ظله ؟ . . قال له أحد الاتباع . . يا مولاي . . نرسل من
يرصد خيامهم ؟ . . صرخ فيه . . ما جدوى أن نرصد العدو وهو أمامنا . وهو فى داخلنا .
هذه هضابهم وهذا نخيلهم . . وكانت الطيور الجارحة تتبع الفرسان وتنتظر الرمم . .

وصلوا للتلال رجداوا القبيلة هاجعة كأنها ليست مطالبة بدم . أقل عدداً . ولا يشبهون
ملاحه . صرخ . يا لثارات الملك وانقض عليهم فى فرح شرس . تفجرت نافورات الدم
وتفوضت الخيام . وفرت النساء مذعورات وهو يقتل ويقتل . . يظهر نفسه فى بحر الدم .
الندم عن كل بيت شعر قاله . وعن كل امرأة عشقها . والدم البشرى يرسم على درعه
حروفاً غامضة كلما غيره بدرع آخر ارتسمت نفس الحروف . . لكن عجوزاً وقفت فى
مواجهته . شهر سيفه ومحمم الجواد . . ولم تهتز العجوز صرخت فيه :

- « أبيت اللعن . لسنا لك بثأر . نحن من كنانة » . .

شهق . أخفض الفرسان سيوفهم . واصلت المرأة القول :

- « بنو أسد كانوا خلف هذا التل ثم رحلوا ، نحن من كنانة ودمائنا حرام
عليكم . . » .

سقط السيف من يده وسكنت الجياد عن الحممة وانقضت الطيور . كان القتل
كثيرين . ورائحة الدم ثقيلة . وأمرؤ القيس قد أخطأ . وتحول الثأر إلى جريمة .

سار الفرسان خلفه منكسى الرؤوس . وتركوا أراميل بنى كنانة يندبن . وكانت الطيور
هى المنتصر الوحيد . تزايد حنقه على بنى أسد . فقرر أن يقاتلهم ولو فى أقصى الأرض .
وساروا وقد زادت خيبة الأمل من ضراوتهم . ما أهمية الخطأ إذا كان القتل هم
الآخرون ؟ .

وفى اليوم الثالث عثروا على بنى أسد . كانوا يستسقون وقد حطوا الرحال وفكوا أعنة
الخيول . صرخ البلهاء . . يا لثارات الملك واندفعوا خلفه .

لم يكن بنو أسد فريسة سهلة . وقفوا . قاتلوا . واختلطت مياه النبع بدماء الجميع . .
والطيور الجارحة وقفت متخمة ترقب نتيجة المعركة فى تكاسل . ويحث عن قتلة أبيه . عز
الأساء التي ذكرها فى وصيته والملاح التي تشبه ملاحه . . ولم تهدأ السيوف . ولم تقل
ضراوة المقاومة حتى حل الليل . واضطر فرسان كندة ويكر وتغلب إلى التراجع بعد أن
اقتنعوا أنفسهم أنهم قد انتظروا وظفروا بثأر الملك الهمام . وتراجع بنو أسد . وبقيت

الجثث ملتحمة . والطيور شبعى . والنبيق ينيق بالدم . .
وفي الصباح أبوا أن يتبعوا بنى أسد . كانت رائحة القتل تعبق المكان وآلاف الطيور
تكون غيمة كثيفة . صرح يستحثهم . قالوا . .
« قد أصيبت ثارك » . .
« كلا . لم أفعل . لم أقتل احدا ممن قتله . لا من بنى كاهل ولا غيرهم » . .
قالوا فجأة . . وقد نسيوا أنه ملكهم المقبل . .
. . بلى . . ولكنك رجل مشثوم . .
وتركوه وحيدا مع الجثث والطيور . .
قال ابو الفرج في تهكم . .
- آه يا سيدى . . أتريد أن تلقى اللوم عليهم وتصور نفسك بطلا أو حدا .
قال امرؤ القيس . . اننى أموت . . اسمع وقع دبيب ملاك الموت . .
وكان ملاك الموت يتبعهم متخفيا خلف الهضبان والكثبان الرملية . . لم يعد أمامه الآن
إلا الموت . . وقدما لم يكن أمامه سوى المهرب . . هو وفرسه الشقراء . . ودروعه
الخمسة . ووصية أبيه وقائمة القتل . توقف عند أحد الاصنام التى كان العرب يقصدونها .
ثمهل ليضرب اقتداحه ويعرف ما قسم له .
كانت للصنم اقتداح ثلاثة - الأمر والنهى والمترىص - ضرب قدحه فخرج الناهى . ضربه
ثانية فكان الناهى . وثالثة كان الناهى قذف بالقدح فى وجه الصنم وهو يدمدم .
ولكنه كان يعرف أن الصنم قد قسم له ما فى داخله . . ومضى . .
بدأت رحلة التردى . وتحول الأمير الشاعر الى الملك الضليل . ما أصيب الصحرَاء فى
وجه المطارد . كل قبيلة تسلمه الى أول قافلة عابرة وكل جبل الى مغارة . وكل الى فخ
جديد . ما أسهل التنصل من الوعود . والخوف وقت الاستجارة . خاصة اذا كان العدو
قويا . . مثل المنذر بن ماء السماء والجيوش موجهة من أباء وبهراء وتنوخ . . بل وأملهم
أنو شرواد بجيش من الاساورة خير مقاتلى الفرس . . كلها تطلب امرأ القيس حيا أو ميتا .
وكان هو وسط زمرة من بنى آكل المزار وكندة يبحثون عن نصير . وساقتهم الدرب
الوعرة الى بنى يربوع وقيل زعيمهم الحارث بن شهاب أن يغيرهم فى شهامة مطلقة .
وأعطى لهم الأمان ألا يندبر بهم تحت أى ظرف لكن المنذر أرسل إليه مائة جندى فقط .
طافوا حول المضارب . فأسرع الحارث بنفس المهمة وسلمهم كل بنى المزار . ولم ينبج سوى
امرىء القيس وزوجته وابنته هند .

ثم بدأ يفقد دروعه . كانت خمسة دروع . يتوارثها ملوك كندة ملكاً بعد ملك . لكنه فقد درعاً في بنى يربوع . وثان في أرض طيء . وثالثاً عند بنى جديلة .

وكان يجلس في خيمته تاركاً خيوله ورواحله مقيدة ومجهزة حتى يهرع إليها عندما يباغته الهجوم . وذات مرة سرقت الرواحل والخيول . وعندما حل بأرض بنى نبهان لم يجد أمامه سوى رعاية الابل حتى سرقت الابل أيضاً واعطوه بدلاً منها قطعاً من الماعز . ونزل بأرض عامر عند أحد الخلعاء ويدعى عمر بن جوين فطمع في ابنته هند وقال فيها أشعاراً بدئية . واضطر الفارس المهان للرحيل عاجزاً حتى عن الثأر لكرامته . . وفي منتصف المسافة بين قبيلة وأخرى . بين هرب وهرب . شعر بالاشمئزاز من نفسه . . شعر بوحدة المهانة . كل الناس تموت مرة واحدة وهو يموت قطعة قطعة . يغوص في بئر عميق . يفقد ما يحمل . يتبعد عن كل النجوم التي ترشد طريقه في الليل وكل الطيور التي تحمل بشارة النجاة .

ثم نزل في بنى فزاة عند جابر بن مازن وكان حكيماً فأبلغه حقيقة هامة . . أنه لا قدرة له على مقاومة الذين يطلبون دمه . وأنهم حالمًا يصلون فهو حل من كل وعوده . . قال . .
- أرى أراك في خلل من قومك وأنا اضن بك أن تحتال هكذا . وقد كدت بالامس تؤكل في أرض طيء وأهل البادية أهل بر لا أهل حصون تمنعهم . هل أدلك على حصن لم أر مثله عند قيصر أو كسرى . . ؟

قال: امرؤ القيس مستسلماً . . من هو . . وابن منزله . . ؟ . .
- حصن السمؤل ببلدة تيباء . هو الذي يمنع ضعفك حتى تصلح شأنك وهو حصن حصين وخسب كبير . . .

قال . . كيف لي به . . ؟ قال الرجل . . أوصلك إلى من يوصلك إليه ؟ . .

وهكذا . سار امرؤ القيس وأمرأته وابنته إلى تيباء حيث حصن السمؤل . والدليل يلح عليه . قل قصيدة تمدح فيها السمؤل . قل حتى يرضى عليك . لكن معين الشعر نضب . واللاحح يزيد من شرود القوافي . وأخذ الدليل يرتجف أحياناً وهو يحاول اكماها . والجرح يزداد غوراً واتساعاً . وعندما لاح له الحصن الشاهق أدرك أن عالمه قد أصبح ضيقاً خائفاً وأن أحلامه القديمة قد ماتت وضاع دم الأب هدراً . وكان يجب أن يضيع . واصفى السمؤل راضياً للقصيدة الرديئة وسمح له بالاقامة . .

توقف ركب أبي العرج وأمرؤ القيس . سأل . . أين نحن ؟ قالوا لهما . . أننا في إحدى بلاد الروم تدعى «أنقرة» . هتف امرؤ القيس يائساً . . لازلنا في الشمال وسط الثلج والبرد . . وفكر ملاك الموت . أنه يحاول أن يسابقني . مازال يلح بالشمس . أشار امرؤ القيس إلى شاهد قبر . . دعنا نستريح قليلاً بجانب هذا القبر . . قال أبو العرج . . وسوف تكون فرصة لكى تقول لى لماذا تركت حصن السمؤل . . ؟ .

كان الحصن عالماً متكاملًا مكتوم الانفاس . جدرانه صباء وآباره لا تروى العطشى .
واشجاره تثمر حنظلًا . . وهو ساكن تمامًا . يحنق الشعر ويتطاوّل الليل وتشد النجوم
بالخيال . ثم جاء قادم جديد هو علقمه الفحل . أحد الشعراء المغمورين . جلسا
يتناشدان الأشعار . . واختلفا . . من منها أصدق تعبيراً وأدق وصفاً للخيال . وكان امرؤ
القيس غيباً كعهده في المدة الأخيرة فقال . .

- سوف تكون زوجتي حكماً بيننا .

ورضى علقمه الفحل على الفور . ولا ريب أن له نصيباً من اسمه . فمن ذا الذي
يذكره الآن كأحد الشعراء . ومع ذلك كان حكم زوجة امرئ القيس لصالحه . . حكمت
أنه أشعر من زوجها وأصدق منه تعبيراً . ولم يكن هذا الحكم خالصاً لوجه الشعر . وفطن
امرؤ القيس لذلك فطلقها في اليوم الثامن وتزوجها علقمة في اليوم الثالث . .

وكان يجب أن يفارق الحصن . خاصة وقد تحول احترام السموّل إلى سخرية . .
ولكن إلى أين يذهب ؟ . . لم يكن أمامه في الشمال إلا الغساسنة ومن خلفهم الروم .
عالم آخر تحكمه قوانين جديدة . . هناك سوف نحمد البرودة دم النار الحاد ويتراكم
الثلج على شبح أبيه . .

وبدأ الرحيل إلى أرض الغساسنة . وجددهم يتحدثون عنه أحاديث خرافية . يتبادلون
أشعاره . كان مازال يتنفس خلال الأبيات المروية لقد فقد عرش آكل المراك لكنه اكتسب
وهج الكلمة وسحرها الذي لا يفنى . . قال . . خذوني إلى قيصر . . قال الملك الغساني .
أن قيصرًا قد أعد جيشاً من أبناء الملوك وسوف يضمك إلى صفوفه . هذا هو مكانك
الطبيعي . لكنه كان عمرواً . ومكانه الطبيعي حيث لا يقدر إن يكون . وسافر إلى بلاد
الروم . ولم يفهم قيصر شيئاً من أشعاره وإن هز رأسه وهو يتظاهر بالرضى . . ولم يستطع
المرّجم أن ينقل إليه أية صورة شعرية . .

وتناقلت ليالي الشمال الحزينة . وأمتدت ثلوج الشتاء . محت الدروب وغطت وجه
الشمس . وبدأ يسعل . قالوا . . هذا مرض مألوف في الشمال ، وبدأت ذاكرته في
الكلل . قالوا . هذه أعراض عادية في الشمال . . وبدأ يدمن على الخمر ويقضي الليل في
المواخير . قالوا . هذا سلوك شائع في الشمال . وبدأ يموت . .

قالوا أبو الفرج . أنا أقول لك ما حدث بعد ذلك . . كنا مازالاً مستندين إلى شاهد
قبر المرأة الوحيدة وجاء ملاك الموت واستند إلى الجانب الآخر من الشاهد وأخذ يشحذ
منجله في بطة . وسمع امرؤ القيس صرير الشحذ الحاد وقال أبو الفرج . إنه «الطماح» من
بنى أسد . قتلت أنت أباه وتبعك هو إلى بلاد الروم . هو الذي قال لقيصر إنك غوى
عاهر . وإنك تراسل ابنته . بل أخرج له رسائل مكتوبة بخطك . تذكر امرؤ القيس ابنة
قيصر وهي تطل عليه في الحديقة . وهي تعرض صدرها العاري أمامه . وهي تخرج لسانها

١١ أحر كالجمر . . قال أبو الفرج . . من أجل هذا أرسل لك ثوبه المسموم . . ومن أجل هذا يتساقط جلدك تأوه امرؤ القيس . . حتى في الموت . فلو أنها نفس تموت سوية . ولكنها نفس تساقط أنفسا . أغمض عينيه . كم مرة أموت ؟ كم نفس بداخل ؟ . التفت إلى أبي الفرج . إذا مت هل ستدفني بجانب المرأة الوحيدة . قال . إذا أردت . قال لقد أحببت النساء . وكرهت الملوك . أدمنت الخمر وتعبت من الثار ، وعشقت كل الكائنات وأبغضت أبي . . والتفت فرأى ظهر ملاك الموت وهو يشحذ منجله . . رآه ينهض . ويستدير ويقف أمامه وابتسم في لطف . . وقال امرؤ القيس آخر بيت شعر للمرأة الوحيدة الراقدة في قبرها .

أجارتنا إنا غريبان ها هنا . .

وكل عريب للغريب نسيب . .

وهز أبو الفرج وملاك الموت رأسيهما طرباً من بلاغة الكلمات . وتقدم الملك ببطء كأنه خجل . . . ومس جبين امرئ القيس بطرف منجله . . .



شهود حرب البسوس

الشاهد الأول :

جليلة بنت مرة

بدأت الحكاية بالدم . واستمرت الحرب أربعين عاماً فلم تنبت بحور الدم زهرة واحدة . . إمتلات القبور بالجلث . والخيام بالأراميل . فلم يبعث كليب . ولم تهدأ وائل . . أنا جليلة بنت مرة . زوجى كليب . وصهرى المهلهل . وأخى جساس . وابنى الهجرس . القتلة والمقتولون ، طالبو الثأر والمغدورون . وأنا فى وسطهم . الحق فى جانبي . والباطل فى جانبي . . كل ثأر يطيب جزءاً من قلبي ويفتح جرحاً آخر . .

يقولون جليلة السبب . . هؤلاء الرجال الأقوياء عندما يعلقون أسبابهم بنا يضعمون الطموحات القاتلة فى موازاة النزوات الصغيرة . يقولون أننى وخالتي البسوس . وابنتي اليمامة . أشعلنا الضرام . ودفعنا بآلاف الرجال الحمقى إلى حرب أتت عليهم جميعاً . بكر . . وتغلب . ونحن فى خيامنا . نغزل الأكفان . . ونردد المراثي

منذ أن ولدت وكليب بن ربيعة بن وائل هو قدرى . من لحظة الطفولة حتى الموت قال أبوه لأبى . ابنى ضبيع جائع . ولن يسلس قياده إلا امرأة عاقلة كجليلة . ووافق أبى دون أن يبالي بسؤالى . وهبوه مستقبل أيامى . هل أحبته حقاً . أم أن الخوف إختلط بالأنهار وجدتنى مشدودة إليه . هو وحده دون أخوق العشرة الأقوياء . . كان الزمان رخياً . والمواسم مواتية . . والصحراء كالحلم . .

كبرت . وعشقت الشعر . شاع أمر جمالى . أحبيت شقائق النعمان لكنهم لم ينثروا على درى إلا زهور الصبار . . جاء كليب لزيارتي وعلى ثوبه دم الايائل والظباء . . كنت فى حاجة لقدر من التآلف معه . . بدلاً من هذه الغربة الحارقة . لكن كليب لم يجد الشعر أجادته للصيد . .

ثم جاء فرسان «تبع» . . انطفأت نجوم الحب قبل أن تضاء . . وجاءوا تحت الريح العاصف وفوق الرمل المتوفز . ووقف أبى . وأعمامى

يرتعدون . ورسول الملك يعدد مطالبه . . الجزية . . وهدايا الطاعة . . ثم قال بشكل عابر كأنه لا يعبر هذا الطلب أى أهمية :

- وبالمناسبة . . تفضل مولانا «تبع» واختار جليلة بنت مرة زوجاً له .
صاحوا فى دهشة :
- ماذا . . ؟ . .

واصل الرسول قوله دون مبالاة برد فعلهم :

- عليكم بتجهيزها للسفر إلى بلاد اليمن خلال عشرة أيام .

وأداروا أئنة جيادهم . كانت أمى تعد طعاماً فاحترق . وكنت أغزل فتداخلت الخيوط مثل متاهة . وعاد أبى مرخى الشارب . وأخوت العشرة يشغون كالأغنام . . ولم يأت كليب ، واصل صيده . مد تبع أظافره من بلاد اليمن البعيدة ليغرسها فى قلبى . كان كل ليلة يتزوج فتاة جميلة وسرعان ما يختفى أمرها . لا أحد يعلم ولا أحد يجزؤ على السؤال ، قصره الواسع الملىء بالأقبية والتوابيت كان مفتوحاً وها هو دورى قد حان . وعلى أن أعد المضجع والتابوت . . وكان أبى ضعيفاً . . وأخوت بلهاء . . قالوا عدة كلمات حماسية عن العرض المصان والشرف الرفيع . . ثم صمتوا جميعاً . جساس . . وهمام . . وسلطان حلم طفولتى وعز المضارب . . ظلوا جالسين حتى جاء كليب . . وعلم بالأمر فخلع قوسه . . وألقى رمحه وقال :

- لن يحدث هذا . .
ونهبوا . . أصابتهم العصبية من قدرته على الاستهانة . . وصرخ أبى :
- وكيف نتحدى تبع . . ؟
قال كليب وهو يدير ظهره :
- هذا ما يجب أن تفكر فيه بدلاً من الجلوس ورعى العشب .

عاد فى صباح اليوم التالى . كانت غريزة الصياد متوثبة فى أعماقه فأخذ يعد الشراك المناسبة . . أمر أن يعدوا صناديق العرس . أحد عشر صندوقاً كاملاً . كل صندوق مكون من طابقين طابق أصغر علوى توضع فيه ثياب العروس وهداياها . وفى الطابق السفلى يرقد أحد الأخوة ومعه سيفه . ثم تحملهم الجمال ويمضى موكب العرس إلى بلاد تبع . . قرر كليب أن يذهب للقنيصه فى عرينها . وحين رأى دهشة أبى وبلاهة أخوت . هتف . .
- مقامرة . . هكذا الصيد دائماً .

كنت أنا مذهولة . لا أصدق أن هذه الفكرة السخيفة يمكن أن تنجح . وأن تحدث مصيرى . تكفى مصادفة واحدة فى طول الطريق . يكفى إكتشاف صندوق واحد فقط لينتهى أمر الجميع دون رحمة من تبع . . وأنا . . سوف أغتصب . . ثم أقتل . دون أمل فى ثار . . ولكننا أطعنا الأوامر كالنيام . حين تحدثت معه قليلاً أكتشفت أنه يعرف جيداً مدى

سخافة الفكرة وحماقتها . . لم أعتقد لحظة أن هذه المجازفات لأنه كان حريصاً على . . كل ما في الأمر أن غريزة الصيد اللعينة استيقظت في داخله . . ليته كان شاعراً حالمًا رقيقاً عاجزاً . . ربما أحببته قليلاً . .

لبست ثوب العرس . . وارتفع الجمل بهودجى . . وأغلقت الصناديق على أخوتى . . وسار صندوق كليب في المقدمة . . وسار أبى . . وقومى . . خلفنا . . وامتدت الصحراء حتى أحسست رملها في عروقى . .

وجاء تبع . . وأنا في هودجى واجفة القلب . . أشار إلى أحد الحراس . . اقترب من أحد الصناديق الموجودة في الوسط ثم غرس فيها طرف رمح . . أوشكت على الصراخ . . أين كانت الطعنة في الطابق السفلى ؟ أم في الطابق العلوى ؟ لم أصرخ . . وكذا الصندوق . . لم ينبعث منه صوت . . ولا حركة . . ولا أى احساس بالألم . . همهم تبع في ارتياح ورضى . . تقدم أبى مرتجفاً . . يشير إلى هودجى وينحنى . . يشير إلى الصناديق وينحنى أكثر . . ويشير إلى نفسه وينحنى أكثر وأكثر . . أيها الملك القاسى المعظم . . كم ليلة بقيت لى . . كم ساعة . . ؟

كان تبع قصيراً . . لحيته مدببة . . وعينه مستديرتان كالعقاب . . وتاجه ضخم . . لا بد أنه مجوف من الداخل حتى تستطيع رأسه الصغيرة أن تحمله . . انبه ببصره إلى هودجى يريد اختراقه . . أنزلنى الخدم . . أدخلونى إلى قصره المرصع البارد . .

أوصلنى إلى حجرى . . ورسوا الصناديق العشرة أمامى . .

وضمعو على وجهى قناعاً كثيفاً من المساحيق . . ورسمو على وجهى ابتسامة كاذبة . . أصبح الملك على وشك الوصول . . انصرفت الجوارى وأصبحت وحدى أخيراً . . أسرعت إلى الصندوق الذى طعنه الحراس . . كان خيط من الدم ينساب منه إلى الأرض . . كنت اعرفه جيداً . . صندوق زياد أخى الأصغر صرخت صرختى الحبيسة المؤجلة ، وفتح الباب ودخل تبع . . تراجعت إلى الجانب الآخر مع الغرفة . . حاولت ألا أنظر إلى خيط الدم . . كان يتأملنى في نهم . . لم يسألنى عن سبب صرختى . . لعله تعود أن يصرخ الجميع في وجهه . . كانت رغبته تستيقظ من خلال فزع الآخرين . .

إقترب . . مديده يجذب ثيابى . . صرخت في صوت عال أن ثيابى تتمزق . . وكان تبع مدرباً على كل فنون الهجوم . . صبوراً . . هل تخلوا عنى . . ؟ صرخت في لحظة اليأس . . وصرخ كليب . . ليلىك يا جلييلة . . تكسرت الصناديق دارت الغرفة . . اقتحم الحراس الباب . . والسيوف . . السيوف . . خيط رفيع ينسال من الصندوق الوحيد الذى ظل صامتاً . . وسط بقع الدم والاعضاء المبتورة . . صرخ كليب في وحشية وطعن تبع . . جز رأسه الصغيرة ورفعها على طرف سيفه حتى يراها الحراس واليمنيون وينو وائل وكل الغرب . . وزعق :

- مات تبع ..

جريت إلى الصندوق . كان زياد راقدًا في الطابق السفلى وأظافره تحفر في الخشب أربعة خطوط من الدم .. وصاحت وفود القبائل . كل الذين اصطلوا بظلم «تبع» وبكيت زياد وحدي اشغلوا بالغنائم .. بالجوارى . والذهب ثم رفعوا سيوفهم يعلنون الولاء لكليب . وكان زياد صغيراً فحضرأ له حفرة صغيرة . وفي ليلة عرس الكتيبة قلت لكليب .. ألم تظن ولو للحطة واحدة أن زياداً قد مات .. فقال وهو يخلع سيفه وعباءته . وعمامته :

- المهم أن تبع قد مات .

أصبح كليب ملكاً . وأصبحت أنا ملكة العرب ورجل جساس . وهمام .. وبقيّة الأخوة .. انتقلت من بكر إلى تغلب . إلى قصر كليب وكل لحظة يتضاعف شعوري أنني سبية ولست زوجة . لم يدخل المهلهل أخو كليب لزيارتي مرة واحدة .. لم يحمل لي هدية .. لم يلق على تحية .. كان دائم الرحيل . ينصب خيمته على حافة الأفق . وجاء أبى «مرة» لزيارتي .. قال لي في كتابة ..

- فتحنا الرمل . ورأينا الطالع . هذا المهلهل أخو كليب سوف يكون سبياً في هلاك قومنا ..

طالع مضحك ولكنه زاد من كراهيتي للمهلهل .. بل اكتشفت أنني لم أحب كليباً . كان قد أصبح ملكاً . مغروراً . قاسياً . تغلغل زهو التملك في داخله واختلط مع عطشه للدم . وقومي . وكل بنى وائل كالغنم . يحمي مواقع السحب فلا يرعى حماه . إذا جلس لا يمر أحد من بين يديه اجلالاً له . ولا تورّد أبل مع ابله . ولا توقد نار مع ناره . ولا يجرؤ رجل من بكر أو تغلب أن يجر رجلاً أو بعيراً أو يحمي حمى إلا بأمره .

كليب زوجى .. وأوبنائى يزهو كالطاووس وفوجئت به يسألني ذات يوم :

- هل تعلمين على الأرض من هو أمتع منى ذمة ..
سؤال أحمق لم أشأ الاجابة عليه حسب أنني عاجزة فازداد زهواً .. وكرر السؤال للمرة الثالثة وهو يتشدّد في طلب الاجابة .. فقلت له .
- نعم . اخوأي .. جساس .. وهمام .

وحقق في دهشة غاضبة . لم يتوقع جوابي . ألقى على نظرة حادة لعل أنراجع فلم أنراجع . لم اعتذر . تشاقلت بأشياء أخرى ولم أدر أى خطأ قاتل ارتكبت .. وعاد سؤال في الأيام التالية .. وكل مرة كانت اجابتي صدمة جديدة له . كانت التحديات قد بذرت بذورها . ولم أكن بالتي تتراجع .. مهما غضب .. ومن هذه الشرارة بدأ الكابوس الذي استمر أربعين عاماً .

«شهادة اعتراضية من أقوال ابن جساس بن مره»

جاءت خالتي السوس من تميم وزلت في جوارى . كان معها ناقة غريبة . هحين من نوق الملك النعمان . . ونوق اليمس . . حلدتها مشرب بحمرة . وقوائمها طويلة صلبة وصوت احتراها عال . ناقة نادرة كما يبدو من شكلها . وكذا صغيرها . حرجا يرعيان مع ابل . ولم أكن موجوداً بالمضارب . ومر كليب على الابل . ورأى الفصيل الصغير بلوبه المميز . سأل الراعى :

- ما هذا ؟

انحنى الراعى قائلاً . .

- هذه لخالة سيدى جساس .

وفوجيء العبد . . كما فوجئت أنا فيما بعد . بكليب وهو يدمدم في ضيق : أوبلع من امر ابن السعدية أن يحير على بغير اذى .

وأخرج قوسه وسهمه ورمى الناقة الصغيرة رمية قاتلة . . حاء العبد يصرخ . . وخالتي السوس تولول . . وأمرت الجميع بالصمت . . كل ما حدث أن فصيلاً صغيراً قد مات . لست أفهم السبب المباشر لكنها دعوة وتحذير لا أدري ما دوافعه . لذلك اخترت الصمت . . والتجاهل وموت أيام قليلة ولم يدع لى كليب فرصة

مرت الابل وفيها ناقة السوس بعيداً عن أرضه ومرعاه . . لكنه جاء مسرعاً وأعاد السؤال على العبد ولم يتنازل هذه المرة أن يقتلها . قال كلمات أكثر اهانة ثم أمر غلامه .

- ارم ضرعها يا غلام . .

ورمى الضرع فاختلط الدم باللبن . . وجرت الناقة تحتصر وتصدر عحيجاً هائلاً وخالتي السوس تلطم وتصرخ . .

- واذا لاه . .

وحثت مهرولاً على صوت النعيب وصحت فيها :

- اسكتى ملك بناقتك ألف ناقة .

لم ترض . ظلت تصرخ وأنا أزيد في عدد النوق عوضاً لها لكنها أخذت تهيل التراب على رأسها وتواصل هجائى أنا وقومى لكنى أصبحت في دار معشرتى .

يعد الذئب فيها يأت على شاقى .

التقطت أنفاسى بصعوبة وأنا أنتفض من الغضب . والحجل . والاهانة وأصبح من بين أسنانى .

- اسكتى . . لا تراعى . سوف أقتل من هو أعظم من هذه الناقة .

وسرت . . أرى في كل عين نظرات الازدراء . وأسمع في كل كلمة اهانة خفية . .

لقد إستغزنى كليب بما فيه الكفاية .. ولكن لماذا لست أدرى ..
ثم ارتحلت بكر بابلها ورعايتها .. مروا على غدير «شبيب» . لكن كليب أصدرو أموره
القاطعة ..

- لا يدوقوا منه قطرة واحدة ..

وارتحلت بكر .. ذهبوا إلى «الاحص» .. ونفاهم كليب عنه أيضاً .. ارتحلوا إلى
«الجريب» .. إلى «الزرائب» ، على رأس كليب وبضع غلمان وجرو صغير يلاحقهم ..
ويطردهم . يقف شاخماً مثل إله صخرى قاس .. وينوبكر يتضاءلون أمامه . وكنت أنا
وابن عمى عمرو بن الحارث .. فلم نجد بدا من الذهاب إليه .. قلت له محاولاً أن أتمالك
نفسى :

- طردت أهلنا عن الماء حتى كدت تقتلهم عطشاً ..

رد على بصلف مبالغ فيه :

- ما منعناهم من ماء .. إلا ونحن له شاغلون ..

- هذا كفعلك بناقة خالتي .

ضحك فى سخرية قائلاً ..

- أوقد ذكرتها . أما أنى لو وجدتها فى غير ابلك لاستحللت الابل كلها .. أحمد آهنتك

ان بقيت لك الابل ..

كان هو كليب الذى لن يتغير مريضاً بداء الملوك . متوقفاً ان يتضاءل الجميع أمام
كلماته .. ووجدتني - كان هناك من يرفع يدى ويوجه رعى - إستدار ليرمقنى بنظرة
احتقار أخرى فطعنته تحت إبطه . لم يصرخ من الألم . صرخ من الدهشة . هوى من فوق
جواده . والرمح فى يدى . وتخرجت أنفاسه وهو يهتف ..

- يا جساس .. اسقى شربة ماء ..

قلت ..

- ما عقلت استسقاءك للماء منذ ولدتك أمك حتى لحظتك هذه ..

التفت إلى عمرو بن الحارث وهتف به ..

- ياعمرو .. أغثنى بشرية ماء ..

وهبط عمرو من فوق جواده .. واقترب منه ثم طعنه طعنة أخيرة قصمت ظهره ..

(إنتهت أقوال جساس بن مرة وعودة إلى أقوال جلييلة)

ارتديت السواد قبل أن أصدق أن كلياً قد مات . وأن قائله هو جساس أخى ..

أنا .. زوجة المقتول وأخت القاتل . دخلت دائرة النار .. وأحاطتني نسوة تغلب .

اخوات زوجى وبناتى الثلاث . غربان سوداء تلقى على نظرة معادية .. وسألت

نفسى ...

- هل أرحل وحدى .. أم أنتظر حتى أطرده .
وبكيت لا كلياً .. ولا جساس .. إنما بكيت نفسى . أصبحت جسداً غير صالح
لسكنى الروح . شقية معذبة .. خدعت نفسى طويلاً بإننى فى بيتى .. ووسط أسرتى
وبنائى . لم تقل لى واحدة من النسوة كلمة من كلمات العزاء جلست فى خيمتى وقد لفظنى
الجميع . وسمعتهم يلحفن على «ضباع» أخت كليب :

- رحلى جلييلة عن مأتمك .. ان قيامها بيننا فيه شماته .. وعار علينا وسط
العرب ..
ولم تتحرك واحدة من بناتى . ليدافعن عنى بكلمة .. ووقفت ضباع على باب خبائى
وهى تهتف بى ..
- يا هذه .. اخرجى عن مأتمنا

التفت إلى بناتى .. واجهتنى نظراتهن الصلبة الباردة .. كن موافقات على طردى
واهذار حقى فى الحزن .. جمعت ثيابى فى صرة صغيرة . حملتها على ظهرى وسرت وسط
صرخاتهن !

وجدت أبى فى انتطارى . منكسر الرأس .. شاعراً بفداحة المصاب .. هتف بى :

- ما وراءك يا جلييلة ..
قلت .

- ثكل العدد . وحزن الابد .. وفقد حليل . وقتل أخ عن قليل وبين هدين
غرس الاحقاد وتفتت الاكباد ..
نكس رأسه صامتاً . ثم قال ..
- أويكفى ذلك .. كرم الصفح وإغلاء الديات
قلت ..

- امنية مخدوع ورب الكعبة هل تدع لك تغلب دم ملكها لقاء دية حقيرة مهيا
علت .

اجتمعوا حولى ، شهود الجريمة ووقود الحرب . جساس أحمى الراشد . وأنا ..
أيعرف أننى رفعت ربحه وشحذت نفسه .. أنه يحمل ثأرى على كتفيه وينوء به .. أيعرف
أننى أحمل فى أحشائى من سوف يذيقه الموت سماً زعافاً .. يا جساس عذراً يا كليب
عفواً .. إذا حم القضاء فها جدوى الاعتذار . لبس ما فعلنا معاً . فرقنا جمعاً . وأطلقنا
حربنا . والله لا تجتمع وائل بعدها أبداً ولا تقوم لها قيامة . يا جساس قتلك كليب قبل أن
تقتله .. وضع بذرتة فى بطنى حتى يدور الزمن ويتحقق الوعد
(إنتهت أقوال جلييلة بنت مرة) .

الشاهد الثاني

المهلهل بن ربيعة

كنا جالسين . همام بن مرة وأنا . وبيننا شراب وندامى ودم ومصير مجهول . . كنت ثملاً . والسماء ملبدة بالسحب الوحشية . والأرض خادعة . وهمام نديمى . . وصنو روحى . تعاهدنا ألا يكتم أحدهنا سراً عن الآخر . ومر جساس على خيمتنا مفزوعاً فوق جواد مفزوع . مكشوف الركبتين . لم يلتفت ناحيتنا وانحدر مع التل إلى ديار بكر . . قال همام وهو يتابعه :

- إن له لأمرأ . والله ما رأيته كاشفاً فمخذه قط في ركض .
- قلت ضاحكاً :
- لعله فشل كعادته في صيد الظباء . .

ضحك همام . حاول أن يشاركنى الشراب . لكن منظر ركبتى أخيه العاريتين لم يفارقاه . شريت كثيراً . والقيان تغنى من أشعارى . . وخيول النشوة تركض في عروقى . . هذا هو عالمى الأمن مادام فيه كليب . . من خلال باب الخيمة لمحت جارية تقود جواداً . صاعدة من ناحية بكر . . ورأيت «هماماً» وهو يتسلل خارجاً من الخيمة .

يتحدث مع الجارية . لم يكن حديث حب . هذا ما لاحظته . . كان كلامهما مرتعاً . شديد العصبية . . أشار إلى . . وأشارت إلى بعيد . ثم انصرفتا هابطة على المنحدر . وربط همام الجواد بجانب الخيمة وعاد . . جلس أمامى صامتاً يتنزع أنفاسه الثقيلة بصعوبة . . لقد تلقيت رسالة قاسية بلا شك . . ويعتث حالته في نفسى نوعاً من الترقب الخبيث . . كان حائراً مثل غريق . . قلت له دون موارد :

- ما شأن الجارية والفرس . . وما بالك . . ؟
- تردد برهة . ثم مديده مرتعدة إلى كاسه وهو يقول . .

- اشرب ودع عنك الباطل ..
- قلت : وما ذلك ..
- زعمت هذه الجارية أن جساساً قتل كلياً ..
- ولم أتمالك نفسي .. ضحككت في صوت عال وأنا أقول ..
- هيهات .. همة أخيك أضعف من ذلك ..

ملأت كأساً وأشرت للقيان أن يواصلن الغناء . شربت في نهم وأنا أقرب وجه همام .. إذا كان كلياً قد قتل حقاً .. فلماذا لم تتقوض الصحراء . ولم تنطفئ الشمس ولم تتناثر النجوم . رفعت كأسى وشربت مخب الأشياء المستحيلة . أخذت أشرب والعالم يدور بي .. غرقت في قبوى المظلم الذى أغيب فيه كل مساء .. وجاء كليب . صالح بي . مضى زمن الندامى . وجاء زمن الموت . أفقت فلم أجد أحداً . لا همام .. ولا الجوارى سرت وحيداً .. فرأيت جواداً شاحباً يرعى عند حافة الافق . يحمل جثة أبى مذبحاً .. هكذا أراه . منذ عشرين عاماً .. منذ أن ذبحه التبع اليماني بعد أن رفض أن يدفع الجزية .. استسلم ربيعة . واستسلمت بكر .. ولم يبق لي إلا كلياً .. الجبل الذى يابئنى ويعدن بالثأر .. أصبح هو أبى .. وحدود عالمي .. وحلمى المتكرر .. أنطلق منه وإليه .. لكن الجواد الشاحب يقترب .. مسح رقبته في صدرى . لا يحمل جثة أبى . ولا جثة كليب .. بل يحمل جثتي . هناك ضباب أصفر .. وأنا أسير داخل حلم غريب .. أدخل تغلب غريباً .. ضائعاً .. ميتاً .. الفرسان يعقرون خيولهم .. ويكسرون سيوفهم ونسور سود .. كأنها غريان تضاعفت عشرات المرات . البنات الثلاث يصرحن في جهى :

- عماه .. مات أبونا يا عماه .. مات كليب .
يلححن على بالصراخ .. يردننى أن أصدق .. يقددننى إلى تل «الذئاب» ويشرن إلى جثة غريبة .. الرمل تحتها أحمر . والطيور فوقها سوداء .. يللمن أعضاء مرخاه .. ويلفنن جسداً ساكناً .. ويصحن في .. ابك أذاك .. ابك قتيل ربيعة وتغلب . آخر ملوك العرب .

لكننى لا أبكى . أعرف جيداً أن هذا ليس أخى .. كليب المفعم بالحياة والرغبة والقوة والمرح الصاحب .. لا يقتل جزاء ناقة . ولا من أجل كنوز الأرض . لا يقتله راعى ضأن مثل جساس بن مرة .. هناك نوع من سوء التفاهم المر .. ان كان ثمة أحد قد مات فهو أنا .. أما هذا الجسد الدامى الأشعث الأزرق الفاجر الفم الزجاجى النظرة الراقد وسط الروث والبحر ، المخلوع النغل ، المقصوم الظهر . فهو ليس كلياً .. هذه خدعة .. سوف يرد حياً .. على بكر أن تنشره حياً .. اليوم .. أو غداً .. أو آخر الزمان ..

صرخت في الجميع ..
- ويحكم . ماذا دهاكم . أتعقرون خيولكم حين احتجتم إليها . وتكسرون
سيوفكم حين افتقرتم إليها .
والتفت إلى النساء الباقيات صائحات ..
- استبقين للبكاء عيوناً تبكي حتى آخر الدهر ..

وفي الصباح دفنا الجثة الغريبة التي وجدناها على التل .. وصرخت في اليد
الواسعة .. ادعوا كلياً .. فلم يجبني .. وكيف يجيبني البلد القفار .. سقاك الغيث
انك كنت غيثاً .. ويسراً حين يلمس اليسار .. ولست بخالغ درعى وسيقى إلى أن يخلع
الليل النهار ..

لم يبق من أيامي .. إلا أيام الحرب .. أو يعود كلياً .. أجز شعري .. وأقصر
ثوبي . لا أشم طيباً . لا أشرب خمراً . ولا أدهن بدهن . ولا أقرب النساء . حتى أقتل
بكل عضو من كليتي رجلاً من بكر . رجلاً للذراع . ورجلاً لكل أصبع من يده ..
ورجلاً لكل شعره من رأسه ..

جاء إلى شيوخ بني تغلب .. قالوا ..
- بني مرة أولاد عمنا .. وأننا نرى ألا نعجلهم بالحرب حتى نعدل إلى اخواننا من بني
مرة . فبالله ما تجدع بحرب الأهل إلا أنفك .. ولا تقطع إلا كفك ..

صحت فيهم ..
- جدعه الله أنفاً . وقطعها كفاً .. والله لا تحدث نساء تغلب أنني أكلت لكليب
ثمناً .. ولا أخذت له دية ..

لكنهم أصروا .. كنت أكره ترددهم .. ولكني أكره أن يفضوا من حولي .. ووافقت
مرغماً ..
شهادة اعتراضية :

من أقوال وفد تغلب إلى بني بكر ..

سرنا إلى بكر .. إلى بني مرة .. كنا نحاول أن ندفع شبح الحرب .. قلنا لهم .
- انكم أتيتهم أمراً عطياً بقتلكم كلياً بناب من الأبل . وقطعتم الرحم نحن نكره
العجلة عليكم دون الاعتذار .. وأننا نعرض عليكم إحدى ثلاث خصال لكم فيها مخرج
ولنا مرضاة .. أما أن تدفعوا إلينا جساساً فنقتله بصاحبنا فلم يظلم من قاتله .. وإما أن
تدفعوا إلينا هماماً فإنه ند لكليب .. وإما أن تفيدنا من نفسك يا مرة .. فإن فيك رضا
القوم .

وسمع «مرة» هذه الكلمات نظر إلى قومه من بني بكر .. كأنه يطلب تأييدهم غير
المشروط . قالوا له .. تكلم غير مخذول .
قال الشيخ المراوغ ..

- وأما حساس فغلام حديث السن ركب رأسه فهرب حين خاف . فوالله ما أدري أى البلاد انطوت عليه . وأما همام فأبو عشرة . . وأخو عشرة . . ولودفعته إليكم لصاح بنوه في وجهي وقالوا . . دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره . وأما أنا فلا أتعجل الموت وهل تزيد الخيل على أن تمول جولة فأكون أول قتيل . . ؟ . . ولكن هل لكم في غير ذلك . . ؟ . . ان شئتم لكم ألف ناقة تضمونها لكم بكر بن وائل . .

وهتفنا في غضب . . ونحن نسحب أذيالنا . .

- والله ما كان كليب بجزور ناكل له ثمناً . .

(تمت أقوال وفد تغلب . ونعود إلى أقوال المهمل)

الحرب قدرى . منذ أن ولدت . وجالست النساء . وقتل الشعر . وأحببت كليياً
تأهبت تغلب . . وبكر . لم يعتزل منهم إلا الحارث بن عباد . تدق الطبول في الصباح
وتنعب الناعيات في المساء . ويمتد حبل الدم . يصل عيون الماء بالقبور وينتب زهر
غريب . . أشم فيه رائحة جسد كليب . . عند الآبار والينابيع أماكن السقيا والعشق
تمولت إلى مواقع للقتال . . تشرق الشمس فأشهر سيفي وأقتل كل من أصادفه . . ردوا
كليياً . . انشروه من ذرات الرمل . . من رماد الحرائق . . لا أعرف عدد القتلى . . ومن
أى جانب . . كم يوماً مر . . كم هجمة مباغثة . . وحركة غادرة . . ؟ . .

ثم جاء همام . رأيته أمامي ملطخاً بالدم والرماد . . كان في الجانب الآخر . . وبيننا
دهر من العداوات . تحاذرنا طويلاً أن نلتقى . . كان يتقدم نحوي كاسراً سيفه . . وحاسراً
رأسه . . يقول .

- أقدم نفسي فداء لهذه الحرب الضروس . اقتلني ولكن آخر القتلى . .

ابتسمت وبكيت واحتضنته وأبعدته . . يانديى وصنوروحى . . مالفائدة . . أنا
أريد كلياً . . حتى قتل حساس لا يشفينى . . أنا بحاجة إلى معجزة . . همام يبكى .
ويستصرخنى . . يتوسل إلى أن أقتله . تكاثرت الأرامل واليتامى . وتلوث الآبار بالدم .
وامتدت الحرب مثل جسد خرافى بعرض الأيام والشهور والسنين . . يا همام . . يانديى
وصنوروحى . . لا يزيد اليتيم إلا اليتيم . . ولا يوقف الدم إلا الدم . . فاحفظ روحك
ومت بيد غيرى . . كان حساس يحلم بأن يكون ملكاً . . هو الذى دفع بناقه البسوس إلى
بستان كليب . . وجعل العبيد يتناولون عليه . . وأغراه على المبارزة بالعصى ثم طعنه
غدرًا بالرمح . استفزه ليقتله فأحياه في قلبى كالظماً . . انصرف يا همام . . فالجرب القدر
يجب أن تتواصل . .

وذهب همام . أشرقت الشمس على يوم جديد . . كنا بالقضيبيات . والحرب في أشد
ضرواتها . وحان الوقت حتى يقتل همام . . قتله الغلام «ناشره» . . كان لقيطاً . أخذه
همام ورباه في بيته . وعندما كبر عرف أنه من بنى تغلب . . وهكذا تحين الفرصة عند
«القضيبيات» . . كان همام يقاتل فإذا عطش رجع إلى قربته فشرب منها ووضع سلاحه . .

ووجد نأشره من همام غفلة فشد عليه حتى قتله ولحق بقومنا . . وفي المساء . . كنت أمر بموكب القتل فوجدت همام مقتولاً منطرحاً وسط الدم والرغام . جثة عادية وسط عشرات الجثث لا تفرق الطيور الجارحة بينها . . وكانت دموى العسيرة تهوى .

- والله ما قتل بعد كليب أعز على فقدا منك . .
ولم تهدأ الحرب . للدم رائحة تغلب كل ما عداها . أشمها في الطعام والشراب وفي مجلس القوم . حين أستند لبرهة واغفو . وحين أحلم . . توقظ داخل الشهوات تفتح داخل أغواراً عميقة . . فأرى كواكب مطفأة ونجوماً مندثرة وزهوراً ذابلة وعروق ملح ويأتى كليب غاضباً . . يصرخ من حرقة العطش . . وتأتى اليمامة . . وعنيزة . . ويديله . . يبكين . . يرددن المرائي فتتحول أظافرى إلى غالب . وأسنانى إلى أنياب قاطعة . . الحرب جوعى الذى لا يشبع . . أضرب سيفي فلا أعرف قتلاى . . من بكرام من تغلب أبحث عن جساس فلا أراه . . وهذا يعنى يوماً آخر وحرماً أخرى . .

ثم تخلى الحارث بن عباد عن عزلته . أرسل ابنه بجيراً يرجونى أن أقتله فداء لهذه الحرب . وفداء لكليب . غلام صغير لم يتعد الثامنة عشرة . بعته إلى شيخ أحمق يحسب أنه كفى لكليب . . كأتى خضت هذه السنين الطويلة من الحرب حتى أظفر بهذا الغلام . . صرخت غاضباً . . شاعراً بالاهانة . . رفعت سيفي لأهوى عليه . . وصرخ في امرؤ القيس بن ابان أشجع رفاق حربى . .

- لا تفعل فوالله لئن قتلته ليقتلن به عزيزاً علينا . . وقد اعتزلنا أبوه وعمه وأهل بيته . .

ولكنى كنت غاضباً مروراً . . جائعاً للقتل . . والغلام أصغر من أن يقنعنى منطقة . . أهويت عليه بسيفي الأعمى وأنا أصرخ . .
- بؤ بشجع نعل كليب

شهادة اعتراضية :

من أقوال الحارث بن عباد .

علم الله . . لم أكن من جناة الحرب . . ولكنى صليت ناراها اليوم . . اعتزلت نكراً حتى تفيق فأبى على تغلب اعتزالى . قريباً مربوط النعامة منى . ان قتل الكريم بالشجع غال . ولدى . قرة عيني . يموت لقاء أحد سيور نعل كليب أنا الحارث بن عباد . أشد أهل زمى حليماً وصبراً . الوحيد الذى لم تلوث الحرب يديه . جاء قومى من بكر يطلبون وساطتى . أحسست حيالهم بنوع من الذب الغامض . . لعلى كنت الوحيد الذى لم يتحمل نصيبه من الألم . أرسلت إلى المهلهل . . ابنى : اء هذه الحرب الضروس . . لم أنسى النظرة التى رأيتها فى عيني بجير وهو يستعد للسفر . . لعله كان يسألنى فى صمت . . عن مبرر لهذا التصرف اللاحق ؟ .

ثم جاء إلى من يقول . . أن المهلهل قد قتل بجيراً . . قلت في هدوء وأنا أحاول التماسك :

- نعم القتل أصلح بين وائل

صرخوا في وجهي . .

- وإنما قتله بشسع نعل كليب . .

في أول الأمر لم أشأ أن أصدق . اعتزلت الحرب طويلاً فلم أعد أعرف سعارها . . أرسلت إلى المهلهل أسأله . . إن كنت قد قتلت بجيراً بكليب وانقطعت الحرب فقد طابت نفسي . . ولكنه رد على في قسوة . . إنما قتلت بشسع نعل كليب . .

عفا يا بجير . أهدرت دمك دون جدوى . . لم يعد أمامي إلا حرب أنا الخاسر فيها مقدماً . . أحضرت فرسي «النعام» . . جززت ناصيتها . وفتت ذيلها . وخرج قومي خلفي . كل الذين اعتزلوا وعفوا عن الاشتراك في حرب عبثية . . رأيت ديار بكر . قتلى . . وحرائق . . شممت رائحة الدم . وسمعت أصوات البكاء . . ولم ينعني الحزن من أن أعرف إن الحرب مكيدة . . جمعت حولي من معي . . وأنا أقول لهم . .

- كل امرأة تمسك قرية من الماء في يد . . وهراوة في اليد الأخرى . . وليقف جمعهم خلف الرجال . علموا أنفسهم بعلامات يعرفونها . فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته . وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة .

وهكذا . حلقوا رؤوسهم جميعاً استبسلاً للموت . وجعلوا ذلك علامتهم . واشتد القتال ضارباً . والنعام تفر فرحى . ورأيت فارساً منهم يقاتل بوحشية . . وأمرت فرسانى أن يتكاثفوا حوله وأن يضيقوا عليه الخناق . . وظل يقاوم حتى كلت سواعده . . وانهمزت تغلب . . ووقع الفارس أسيراً . . اقتربت وأنا أصبح فيه . . دلفي على المهلهل . . حدثني في باستغراب ثم قال في تردد : ولى دمي . . ؟ . . قلت بغباء واندفاع : ولك دمك . . قال : ولى ذمتك وذمة أبيك ؟ . . قلت : ذاك لك . . ابتسم وهو يقول : أنا المهلهل . . خدعتك عن نفسي والحرب خدعة . .

خدعني قاتل ابني . . انتزع من بين أسناني الوعد بالامان . . أخفضت سيفي . . وأصبحت فارساً مسكيناً أسير وعده الأحق . . قلت : كائننى بما صنعت بك بعد جرمك . . ودلفي على كفء لبجير . . دار بعيني بفكر ثم أشار إلى أحسن قواده . . امرى القيس بن أبان . . لم يكن ليتورع عن شيء لينجوينفسه . . وهكذا جززت ناصية شعره كما هي العادة إذا أنعم السيد الشريف وأطلق أسيره . . وفتكت بابن أبان . . ولكن نار بجير لم تهدأ . . وكذا الحرب . .

(تمت أقوال بن عباد ونعود إلى أقوال المهلهل)

عدت مهزوماً . كسيراً . مجزوز الناصية . دخلت في مصيدة الوجوه . يسألونني عن
الأب والأبن والزوج . كيف انكشفت الحرب وتناثرت جثث الأهل . كنت عاجزاً . .
كأنى هزمت طوال هذه السنين الماضية . وناصيتي المجزوزة تشهد على ذلك . قتلت كثيراً
فلم يبعث كلياً . أمر على قبره كل مساء فلا أظفر بعلامة رضى . . أو غضب . لا الآلهة
تجيب . ولا الأبار ترجع الصدى . أصبحت قاتلاً مطالباً بثأر المئات . وثأرى لم أبلغه . لعبة
الحرب المميتة تركت بصماتها على قلبي . تحولت إلى وغد جبان . . قتلت صبيّاً اسمه
بجير وصديقاً اسمه امرؤ القيس بن أبان . . وقبل ذلك . قتلت نديمي وصنوروحى هماماً
ابن مرة . . وعدت مجزوز الناصية . . يسألني الجميع عن قتلاهم . . صرخت فيهم . .

- مثل لا يسأل عن القتل وهو مقتول . . سنوات الحرب طويلة وقاسية . . لومرت
هذه السنين في رفاهية عيش لكائنات تمل من طولها . فكيف وقد فنى الحيان . وثكلت
الأمهات . ويتم الأولاد . ورب نائحة لازالت تصرخ . ودموع لا ترقأ . وأجساد لا
تدفن . وسيوف مشهورة . ورماح مشروعة . . وإن القوم سيرجعون إليكم بمودتهم . .
وتتعاطف الأرحام من جديد . . أما أنا . . فما تطيب نفس أن أقيم . . ومازال ثأرى
معلماً . . وأنا من اللحظة سائر عنكم إلى بلاد اليمن .

لم يعارضني أحد . . لم يطلب أحد ببقائي . . لم يتمسك أحد بيوم آخر من القتال . .
مهمموا جميعاً في ارتياح . . وسرت مبتعداً عن ديارى وقبيلتي . . رأيت غراباً أسود ينقر قبر
كليب فواصلت سيرى . . يحاول الغراب أن يصل إلى عظام كليب . . فكيف أستعيد من
كان طعاماً للغربان .

ذهبت إلى بلاد اليمن البعيدة . . غربت شمسى وتبعنى الجواد الشاحب . . بدأت
الحرب بالأطفال . . وانتهت بالشيوخ . . كل شيء أصابه الهرم إلا ذلك الجواد الهرم على
حافة الأفق . . وبدأ الصدى يزحف على سيفي . وعلى روحي . جاءت أخبار بكر . .
وتغلب . . البصلح . . والسلام الذى استتب . . لم أكن رافضاً . . ولا مؤيداً . . كنت
هارباً . . استدار الزمن . . ولم أدرك ثأرى . . وجاءت ابنتى سلمى . . ألحت على أن نعود
إلى أرضنا . . كانت مشوقة وكنت أكثر منها شوقاً . ولكن العودة من المنفى حزن جديد .

كبرت سلمى . . وحن وقت زواجها . . لعلها تركت نصف قلبها هناك وتبعتنى
بالنصف الآخر . ولكنى تركت قلبي كله هناك . . والملل كالثقل . . أرقد فوقه كل
مساء . . وافقت على العودة . . عدنا من نفس الطرق القديمة . . المسارب الخادعة . .
وأحراش الصبار . . وأول شيء بدا من تغلب هو قبر كليب . . لعله ترك موضعه القديم
وتحرك ليسد طريقى . . يذكرنى بكل ما حسبت أننى نسيت . . خنقتنى العبرات . . كأنها
لحظة اعلان الموت . . عفواً يا كليب . . لم أغتسل . . لم أشرب . . لم أقرب امرأة . . ولم
أدرك ثأرك . . وصرخ في وجهى طائر مجهول . . لعله طائر الصدى الذى خرج من رأسه

يوم قتل .. يدعنى طالبا ومطلوبا .. وروحه القلقة تنمى على شبحوحتى وعجزى ..
انحدرت إلى تغلب . استقبلتنى وجوه مستغربة . لم يتصور أحد أننى مازلت على قيد
الحياة وصرخت فيهم .. هيا إلى القتال .. مازلت بكر ترعى . وجساس يحكم .. هل
كان صوبى واهناً .. أم هم الذين أصموا آذانهم .. ؟ .. تركوى وسط البنات الثلاث ..
اليمامة .. وعنيزة .. وبديلة .. هتفوا .. سوف نحارب معك يا عماء .. وسخر منا
الجميع . أربعون عاماً من حرب مضت أحاول بعثها من جديد .. لم يتجمع حولى
أحد ..

كونت جيشاً .. من حثالة العبيد والمرتزة والمتعطلين واللصوص .. أى جيش لأخذ
أى ثار .. أهو جنون الشيخوخة .. أم حرقه النار القديم .. سرت إلى تغلب ..
صرخت أطلب دم جساس فصبحكوا منى .. هددتهم بالقتل فأشاحوا .. هجمت ..
وما هى إلا جولة حتى تفرق لصوص جيشى واستخزى عبيدى .. ووجدت نفسى أسيراً
عند عمرو بن مالك أحد أسافل بنى ثعلبة ..

شيخ عجوز أسير هو المهلهل .. يضحك منه الصبية .. ويسخر منه الجميع .. حتى
رثائى فى كليب يثير الضحك .. وبدأت أهجو أسرى .. فصرخ فى وجهى .. هددنى
ولكنى بالغت فى هجائه .. أقسم ألا أذوق الماء سبعة أيام كاملة ..

كانت هذه النهاية .. أعرف ذلك .. ووهج الصحراء يتمدد فى عروقى .. والأبار
الجافة تتشقق فى أحاديدي قلبى .. والسراب الخادع .. يحمل لى كليباً شاب جميلاً قوياً ..
كما رأيت دائماً .. كنت أنعى نهايتى .. كنت أصنع من الرمل والدم والطين مفردات وأحوها
إلى أطفال لم أنجبهم .. ونجوماً لم أرها .. وأردد فى النزع الأخير ..

يا خليل نادياً لى كليباً .
ثم قولاً له .. نعمت صباحاً ..
يا خليل .. نادياً لى كليباً .
قبل أن تبصر العيون الصباحا ..
يا .. خل .. سل .. سنا ..
تمت أقوال المهلهل بن ربيعة .



الشاهد الثالث :

هجرس بن كليب

مثل جرادة صغيرة مقبوضة الأجنحة جاءوا بي إلى ديار بكر ، لم أتعلم شيئاً سوى الذى أرادوا أن يعلموني إياه . أن أكون طيعاً مثل عود الخيزران . ومرت على أربعون عاماً طويلة . عشرة قضيتها جاهلاً . وعشرة سألت خلالها كل الأسئلة دون جدوى . وعشرة لم أتلئ إلا الاجابات الخادعة . وعشرة تجمعت فيها كل عدايات وأصبح الفضاء سجنى الخائى . ثم رأيت الشيخ المعجوز أسيراً . . وكان هناك مطر فى غير موسمه . . وكأبة غامضة تلف الصحراء . ودق المنادى الطبله وهوينادى . .

- يا بنى بكر . أسر المهلهل بن ربيعة رأس الفتنة وانتهت الحرب . . تعالت صيحات الفرح . عالية . خالية من الحياة . تدافع الأطفال اليتامى والنسوة الشكالى وعجزة الحرب . . والشيخوخ الذين قدر لهم أن يشاهدوا بداية التكوين وفساد النهاية . . وكان خالى جساس بعيداً . وأمى تعانى من كوايس غامضة . وأنا وحيد فى ديار الموت . يمر الموكب من أمامى . يمر من خلالي . وأشباح الأدميين تضطرم حولي . . أرواح قلقة معدبة . . وأصوات الدفوف والمزامير ونباح الكلام . . تتكاثف حولي مثل رائحة ثقيلة . أو لحن ملء بالشجن . مجرد اثباتات باهتة خارج نفسى صمرت منفصلاً عن الأشياء . عالم تدب فيه حياة صاخبة ولكنه خامل كالرماد . . والشيخ الأسير مقيد . منزوع العمامة . . فوق بغل هزيل . . ووجه المعجوز فى مواجهة الدليل . .

أحدهم يلكزنى . . يدفعنى :

- تراجع يا راعى الغنم . لا شأن لك بما يحدث . .

أبعدنى عن طريق الموكب . فسرت خلف ظهورهم . وهم يلوحون ويهللون . . كانوا يملكون حق الفرح والغضب وحدهم . . وفى يدى عصا الرعى الغليظة . . أربعون عاماً

رأيتهم يتحاربون . ويعودون بالجرحى والغنائم . ورأيت الأغنام تتناسل والعشب ينغذ
ويذبل ويرتعد تحت الريح الباردة . . لم أجرؤ في لحظة واحدة على أن ألقى عصا الرعى
الغليظة وأمسك سيفاً . .

لست أدري ما الذى حدث بالضبط لكن الموكب استدار ناحيتي . والشيخ العجوز كان
يمضى بحمارته نحوي . . يقف بجانبى فأرى تجاعيد وجهه كالأرض العطشى . ارتعدت
عيناه وهو يتأملنى . انتفضت ملاعقه وأشرق عن ابتسامة طفولية وهتف في حنان بالغ . .

- أهو أنت يا كليب ؟ .

تراجعت من أمامه . . طوال عمرى لم أشارك في الحرب . كنت معذباً بالفوضى التى
تسود دروب القبيلة ، والخوف المنبعث من أعماقى . . وواصل الشيخ التساؤل . .

- كم تبدو صغيراً يا كليب . . كم تبدوا رائعاً . . ؟ .

لوحث في وجهه بعضى الرعى فاختلج وجهه . لم يثف . بدت عليه خيبة أمل
غريبة . لم يرفع عينيه عن وجهى . . تتمم كأنه يعلم :
- لعلى جئنت . . أنت هو . . ولست هو . .

تواصل سير الموكب . والسماء الملبدة بالغيوم لا تحمل وعداً ولا تبعث على السلوى .
عاهوا يدفعوننى بعيداً . استيقظت أفكارى أخيراً . تحول كل ما أراه وأسمعه إلى نبضات
متواصلة من الألم . إلى رغبات مقهورة وعاجزة . كانت خلايا جسدى تمتص هذه النبضات
وتحاول أن تعيد اتصالاً بالعالم . كليب هو القتل . وهو ليس أبى . وجساس القاتل . .
وهو خالى . . وجليلة أمى . . وأنا ابنها من تاجر ضائع . مر بالقبيلة ووضع بدرى
ومضى . . لم يترك نسباً . ولا ثروة . . ولا ذكرى . وعندما بدأت اللعب ألعاب القتال مع
الفتيان . . صرخت أمى . . حبستنى في خيمة سوداء . لم يعطونى إلا عصى الرعى . .
ترهل جلدى . . ونفثاء لث روحى . . وتشابكت صورى مع الأغنام . .

اختفى الشيخ الأسير . وعدت إلى بيتنا . . إلى جليلة أمى . وسعدى زوجتى وابنة
خالى . أصبر جساس أن يزوجنى منها وحسبت أن هذا سوف يرفعنى إلى مرتبة الفرسان .
ولكنى اكتشفت أنها الوحيدة التى تشبهنى . كانت بلهاء . طيبة . يكفيها من الأرض الجزء
الذى تقف عليه . . ومن الجبل الصورة التى تراها . . ومن الليل الطويل مجرد حلم
عابر . . لم يكن لنا معاً إلا الخداع وكنا نتشبه به في قوة . .

قالت أمى وهى ترمقنى في ريبة : ماذا بك . . ؟ .

قلت بلا مبالاة : ذلك الشيخ الذى أسروه اليوم . . وقف في مواجهتى وأخذ يدفعنى
كليب بن وائل .

هوى وعاء اللبن من بين يدي أمي . . تناثرت قطع الفخار وسال اللبن على الأرض .
التفتت سعدى ثم عادت إلى شرودها . جلست أمي على ركبتيها تجمع قطع الفخار واللبن
والطين . . رفعت وجهها وقالت في ذلة . .

- هل أسروا المهلهل بن ريعة . . هل قال لك شيئاً آخر . .
يا أمي . . يا جليلة بنت مرة . أربعون عاماً وأنا جائع بالأسئلة . عطشان إلى قطرة من
المعرفة . أموت في الشتاء . واتحدد في الربيع . وأسكن في الخريف . وانتظر البداية . . من
الخريف يا جليلة أن يبدأ كل شيء من البداية . . صرخت في . .

- أنت ابن التاجر شريدان . . لست ابن أحد غيره . . أتفهم ؟
أحنيت رأسي طائفاً . فكرت أنه لا يجب أن أكثر من الأسئلة الحمقاء . أن خيبة الأمل
الكامنة في المجهول لا يمكن تمنحها . . وفي المساء سرت إلى دار مالك بن عمرو من بفي
ثعلبة . تسترت بالظلام لأراقب الأسير . . كان جالساً وسط جمع من بكر . يتحدث عن
أيام الحرب . ويبكى كليباً . كليب كان زوج أمي . لكنه لم يكن أبي . ليست هناك من
مناسبة لأمت بصلة القرابة للملك ميت . . كان الشيخ يقول الشعر بصوت متهدج باك . .
إن في الصدر من كليب شجوناً هاجسات .

فكان مني الجراحا . .

ونفض عمرو بن مالك صارعاً فيه .

- أتبكي كليباً وتأكل طعامي وتشرب شرابي . . إن لله على نذراً إن شربت عندي
قطرة ماء أو خمرأ حتى يورد «الخضير» .

وضحك الشيخ العجوز في سخرية . لم يكن يعرف ماذا يعني «الخضير» . . ذلك
الجميل الصبور الذي يخرج إلى عرض الصحراء ولا يقرب الماء إلا في اليوم السابع . ضحك
الشيخ وانصرف إلى داخل سجنه . وبقيت وحدي . لا تربطني به أي صلة قرابة . . قد
يكون عم أخواتي . . ولكنه ليس عمي . . من المؤكد أن أبي هو ذلك التاجر الذي مر على
بكر والحرب في أوج ضراوتها ومع ذلك وجد الفرصة ليتزوج . . وينجب . . ثم يمضي . .

كنت أعرف أن جسد العجوز لن يتحمل أيام العطش . . قلت في نفسي . . وماذا
يهمني ؟ . القضية أنني أقف وسط قبيلة لا تربطني بها سوى صلة الدم وقرابة غامضة . .
وأنا أحاول جاهداً أن أنتزع طفولتي من بين التراب . .

صعدت الجبل فلم أر القمر . . ونزلت فرأيت أمي عائدة من خباء خالي جساس . .
كنت أسبح في زمن غير زمني . . هجرس المسكين وقد تغير تماماً . . يقضرب رعيه في
الأرض . . ويثقف سيفه ويغشى الحانات ، ويمتطي الخيل والوحشة . ويتحدث عن النساء

بكلمات مكشوفة وبديئة . كل هذا يستلزم أن أولد من جديد . ألا تنجني جليلة من تاجر عابر . . وألا يعلمني جساس الطاعة ثم يزوجني من سعدى .

جاء صباح أول أيام العطش . قلت لنفسي سوف أنسحب بعيداً . لم أشهد جريمة من قبل . . ولن أشهدها اليوم . . واجهتني الأغنام بعشرات الأسئلة وأنا صامت . كانت الشمس في مواجهة فاعمضت عيني . لرهة خاطفة حلمت بالشيخ ووجهه مغطى بقناع من الملح . . فتحت عيني فرأيت خالي جساس يمدق في غاضبا . .

- ماذا قال لك الشيخ الأسير ؟ .

قلت في هدوء . قال إني كليب بن وائل . .

اقرب منى حتى شممت رائحة أنفاسه . . وهتف في تأكيد . .

- ولكنك لست كذلك . .

قلت في هدوء . . ولكنني لست كذلك

حاول جاهداً . . للمرة الأولى كما اعتقد - أن يستكشفني . لم يقل شيئاً . ولم أرد عليه . لم يكن بيننا أى اتصال . كان يبحث في عن الصعف المعهود الذى سوف يهبه اليقين الكاذب . استندت إلى شجرة كانت بجوارى . كنت أسمع فوران العصاره فى داخلها . . لو أننى أمد يدي فيجربى فى عروقى دمها الذى لا لون له . فأنمو دون خجل . وأزدهر بلا ألم . ثم أذبل دون حسرة . . تراجع خالى عني . لعله اكتشف بالفعل بعد هذه الأربعين أننى بالفعل أشبه كليياً بن وائل . . هتف بى من بين أسنانه . .

- يا راعى الغنم . . يا راعى الغنم . .

كنت حقاً راعى غنم . ولكن لاند أن جثث الحرب قد أنبتت هذا العشب . . ومنه تأكل الأغنام التى أرهاها . لابد أن لى صلة ما بهذه الحرب . . صرخ جساس فى وجهى . .

- أمنعك من الذهاب إلى هذا الشيخ . . أنفهم . .

كان الشيخ يموت فى هذه اللحظة . . يمد يده ويستصرخنى . وجساس يستدير لينصرف . . لم يقتنع بعلامات البلاهة فوق وجهى . . وهبطت . . كانت جليلة ساهرة فى انتظارى . . شاهدت النظرة التى استقبلتنى بها . أدركت أنها عرفت أننى اكتشفت كل شىء . .

وفى اليوم الثالث . دقت الطبول تعلن موت الشيخ العجوز . . كان بعض الفرسان وقد هالهم قسم مالك بن عمرو قد خرجوا فى الصحراء لكى يأتوا بالخضير . ولم يأت الخضير . . لم يكن فى تغلب من يأبه بالسعى من أجل ثار جديد . أخرجوا جثته . وضعوها فوق البغل الذى جاء به . تدلت قدماء من جانب ويداه من الجانب الآخر . ولكزوا

مؤخرته فسار إلى ديار تغلب .. رسالة صامته .. متواطئة .. هذه هي النهاية .. وهذا هو ثمن الصلح ..

مات عمى . إن كان ما أحسه حقاً . وهذه حقيقة أخرى غريبة .. حاولت .. وحاولت أمى .. وخالى . أن نقنع أنفسنا أنها غير موجودة . لم أحس بالحزن بقدر ما أحسست بالخجل . استسلمت بسرعة لهذا الاقتناع الساذج .. سارت البغلة فتتبعها . تذكرت كل نظرات السخرية وضحكات الاستهزاء . لقد اخترت الطريق السهل وهربت من الحقائق كأنها أفاع سامة .. هربت داخل نفسى .

سرت وراء البغلة . يربطنى بالجسد الميت خيط عنكبوت جارج .. أخرج من الدروب إلى فجاج التلال . ومن الفجاج إلى الصحراء الواسعة . والجسد الميت يكتسب حركته من حركة البغلة . كان الأمر يتطلب شخصاً غيرى لكى يدرك منذ مدة طويلة .. وأنا أصعد .. أهبط .. وديار تغلب بعيدة مثل سراب . كان هذه الرحلة لن تنتهى أبداً .. ثم فوجئت بالصيحة . كأنما تفجرت من داخل الصخور ومن ذرات الرمل ..

- قتلوك يا عماء ..

تلقت حولى فى رعب .. من خلف الأفق برزت امرأة .. طويلة نحيفة ترتدى السواد .. وتقبل سريعة نحو البغلة التى تسير فى ثبات بالغ . كان الصدى يحمل الصوت ويفتته ثم يعيده .. وقفت أمام البغلة . جثت فى موازاة الرأس المتدلى .. وأخذت تهيل الرمل على رأسها .. وأنا أقترب كأتى منوم . تسوقنى ريح مجهولة وقفت أمامها .. كانت الشمس فى ظهري وسقط ظل على وجهها . رفعت رأسها إلى .. وكالبرق الخاطف مر فى عينيها ظل من الكراهية . أمسكت خطام البغلة .. وساعدتها فى انزال الجثة .. تأملت وجهى قليلاً .. ثم هتفت ..

- ياله من جنون .. كليب راعى غنم ..

كانت طويلة . نحيفة . شاحبة . كانت امرأة غير حقيقية بصورة من الصور . لم يعد يجهدنى الحرب .. كانت هى اليمامة . أختى . أشد هراً منى . انغrust عيناها كالخداة فى قلبى . تسألنى من أنا .. عن حقيقى التى أجهلها . استخذيت أمامها وأخذت أسرد اعترافى . ختموا على قلبى بالرصاص . زرعونى فى بكر دون جدور . سرقوا شمسى اليومية . وعمدنى الكهنة بماء الآبار المسمومة . عشت دون ندم . وتقبلت سوءاتى بلا خجل . وتزوجت دون أى رغبة فى مواصلة الحياة .. وهأنذا أيتها اليمامة اليتيمة .. أدركت ذات لحظة أن الأرض مكان غير صالح للسكن وظللت عاجزاً عن الانتقال إلى مكان آخر ..

هتفت اليمامة فى وجهى باحتقار بالغ ..

- وأنت أختى اذن .. منذ متى عرفت ذلك ؟

سوف أكون كاذباً لو قلت أن ذلك منذ أيام قليلة .. صرخت ..
- وتركته يموت .. لقد شاركته في قتله ..
من العبث أن أنكر .. ومن البلاء أن أبكى .. وأربعون عاماً مدة طويلة لأصدق
كذبة واحدة .. قلت ..
- سوف أعود إليهم ..
قالت في حدة ..
- لترعى الغنم !

لم يكن بيننا أى مشاعر مرثية .. لا حنين ولا حنق . أخذنا نحفر سوياً في الرمل ..
جهزنا قبراً واسعاً ووضعنا فيه الجسد المتهالك الجاف . كنت أريد أن أضع له شاهداً لكنها
رفضت . ساوته بالأرض كأن لم يكن .. قلت لها أننى سأعود فلم تبالي .. استدارت إلى
ديارها . وسرت مبتعداً والبعلة واقفة بجانب القبر . سرت طويلاً . وبدت نيران بكر مثل
عيون الليل ترقبني . وصلت إلى خبائى وسمعت تأوه جليلة .. كابوس آخر .. وكانت
سعدى تنتظر بروز القمر من خلف الجبل .. بدونها تحس أنها طفلة . يتيمة .. ضائعة ..
كنت بحاجة للمسة من الحب . وكان جسد سعدى صامتاً . محليداً بين ذراعى ، كنت
أفكر في حنق . هل يكون ثمناً عادلاً أن أقتلها الآن .. وهى عارية .. كانت هى
صورتى . انعكاس وجهى الابله الصامت . تفتح شفيتها وتغلقها في حركات متتابة .
تردد تعويذة قديمة لم أسمعها .. لعنا عجزنا عن أن ننجب طفلاً بسبب هذه التعويذة ..
من الذى يحدق في جسدنا العاريين . جليلة المتواطئة . أم كليب المقتول .. أم جساس
القاتل .. أصابعى على عنق سعدى . أضغط وأدغم .. وعيونها تبذل في باستغراب
يخالطه الرضى .. وجليلة تصرخ ..

- ابتعد أيها القاتل .. سوف تقتل زوجتك ..
أزاحتني بعيداً . كنت الهت . ونهضت سعدى . ارتدت ملابسها في صمت ..
وانصرفت هادئة . التجهت إلى منزل أبيها .. واجهتني جليلة . رفعت عصاها لتهدى بها
فوق رأسى . ولكنى نادرتها قائلاً ..

- لقد قابلت اليمامة ..
تراجعت من أمامى وهى ترنح . وخرج القمر من وراء جبل «الثنى» ولكن سعدى لم
تكن هناك ..

لم أتصور أن يحىء الصباح . أن ترتفع الشمس وتعريفى . قضيت الليل بلا نوم وبلا
رغبة في فعل أى شئ .. كان يجب على أن أسمى في الظلام لقتل جساس كل ما فعلته أننى
غرست أصابعى في عنق سعدى .

وجاء جساس يسعى إلى خيمتي .. حلق في قليلاً ثم جلس مقهوراً وهو يقول :
— أنت ولدي .. وزوج ابنتي .. وبالمكان الذي عرفت .. وهذه الحرب طالت حتى كدنا أن
نفنى .. والآن وقد اصطللحنا ونحاجزنا فلا تدع نهر الدم يجري من جديد .
أمسكت عصا الرعى . كانت سعدى وجليلة واقفتين وكنت قد خسرت كل شيء
تقريباً :

- ما جدوى الصلح حين أبديه ومثلي يمسك عصا الرعى ويلبس البرد الخشن .
- بدا على وجه خالي بعض من الأمل .. حسب أنني فقط أريد المساومة .
- وماذا تريد ؟ .
- هتف بالامنية التي عذبتني طويلاً .
- أريد أن أكون فارساً .

أعطني جواداً .. ورمحاً .. وسيفاً .. اعطني اسماً .. ونسباً . البسى درعاً وأزرع
جدوري .. ثم أسألني ودعني اختار .. كان جساس مدهوشاً .. وأمى حائرة ..
- مثلي لا يصلح في ثوب الرعيان ..
إن كان كليب أبي حقاً فقد مات فارساً . وإن كان دمه قد برد وثأره قد تبدد فلا بد أن
أفعل ما أفعل في نبل الفرسان .. لا في ذل الرعيان .. وهتف جساس بـ ..

- لا عليك يا ابن أختي .. سوف تصير فارساً .
كان خوفه القاتل من الموت قد استحال حباً . أسرع يقدم لي فرسه . وتخلت سعدى
عن عزلتها وهي تلبسى الدرع . واعطوني سيفاً ثامناً .. ورمحاً قصيراً .. ولكنني أصححت
فارساً في الأربعين من عمره .. أول معاركه هي المصالحة في دم أبيه . وعطش عمه
ويتم أخوته .

سار جساس بـ .. وسط جوع وفود بكر وتغلب من أجل الصلح .. كنت أقتلع .
وأسمع دمدومات الأبار تدعوني للغرق .. لعل أتطهر .. أولد من جديد .. جموعهم
تتلاصق وقد ملكها نوع من الجسور . يدورون بـ كدوامات الماء . كريح الصحراء
العاصفة .. الصلح .. مات كليب من زمن . وكان المهلهل أحمق . أربعون عاماً من الدم
فيها الكفاية والكفارة .. ووقف جساس خطيباً ..

- هذا الفتى أبوه كليب .. وخاله جساس وعمه المهلهل . وقد جاء ليدخل فيها
دخلتم فيه .. ويعقد ما عقدتم عليه ..
كان هناك إناء فخاري . ملء بقطرات الدم .. خليط من دم البكرين والتغليين ..

يريدون أن يكتبوا به عقدا .. ويوقعوه . ولكزنى جساس حتى أتقدم وهمس .
- هيا .. اجرح يدك . واقطردمك ..

أنا راعي الغنم القديم . يأمرنى قاتل أبى بالصلح .. وحولى الوجوه الخائفة المترقبة .
يعانون جميعاً من المظالم الصغيرة . والثارات المبتورة . ومن تتابع الأيام والليالى دون
جدوى .. من أعمار الشيخوخة . ومن ذل الصلح .. ومهانة الحرب . من كل
التعاملات التى تشكل تفاصيل الحياة .

- هيا . ضع رمحك .. وصالح .
أمسكت رعى .. وصرخت . أخيراً صرحت .. حتى أننى لم أكن أصدق أننى الذى
يصرخ ..
- وفرسى وأذنيه .. ورعى وصيله .. وسيفى وغراريه لا يترك الرجل قاتل أبيه
وهو ينظر إليه ..
وأنفذت رعى فى صدره ..

كانوا يصرخون حولى . يحرضون لحظات الزمن الميت . يحاصروننى فى ثورة
وغضب .. كفى عن الصياح أيتها الأغنام البائسة .. اننى أرتعد فوق جوادى وأحاول
الانطلاق إلى رحب الفضاء .. حولى السهام وفى جسدى الرماح وساعة القدر قد
أزفت .. إن الأحياء لا يعرفون شيئاً فعلمينى يا روح كليب . يا أرواح وائل .
وتغلب . الوداع يا بكر .. والسلام على نفسى التى انتظرت طويلاً وتعذبت بما فيه
الكفاية .

تمت أقوال هجرس بن كليب .
وانتهت الحرب .. وحفظت القضية .



الحارث بن ظالم المري

طائر الصدى يدرك ثأره

في صدر الحارث طائر غريب . . هو طائر الصدى . . منذ أن خرج من رؤوس قتلى
قبيلته وهو يتلظى من العطش ومن الاحساس بالخزي . . يطوف الفيافي والمقابر لعله يدرك
ثأره . . لم يفارق صدر الحارث أبداً . . حتى عندما تخلوا عنه وتركوه نهياً لريح السموم
وخدعه الملك النعمان وباعوا سيفه وعباءته في سوق عكاظ واستحلوا دمه وعرضه والطائر
يلطم صدره بجناحه يحرقه بالعطش وجوع الرماد .

قبل أن يولد كانت كل المصائر قد أعدت والتصق خالد بن جعفر به كوجهه الآخر
بعد أن هجم على قبيلته وقتل كل من فيها من الرجال وبينهم والد الحارث . . لم يترك خلفه
سوى قبيلة من النساء الثكالي ، اللاتي لا يجدن غير لبس السواد وترديد المراثي . . فتح
الحارث عينيه ليجد أمه . . وأخوته . . وخالاته . . وعماته . . كأنهن وجه واحد .
صرخن فيه قبل أن يبدأ هو صرخاته . . رددن على مسامعه اسم خالد حتى حفظه قبل أن
يعرف اسم أبيه . . أو أمه . . كان خالد هو قدره . .

ثما وسطهن مثل نبات برى . . تطلبه أمه ليشد عصاب الناقة لتستطيع حلبها . .
وتنتظره خالاته حتى يحضر لهن الحطب . . وتبقى عماته عطاشاً إلى أن يخرج لهن الماء من
البئر . . ولا تكف أصوات البكاء عن ملاحقته . . وكلهن يصحن في وجهه مطالبات
بالثأر . . كأنه هو الرجل الوحيد في العالم . . وخالد . . خالد بن جعفر بن كلاب بن
عامر . . يطارد كل لحظة من طفولته . . وفي الليل تحبو النيران ويفرش القمر ضوءه على
المقابر . . ولا تتركه أمه يفرق في النوم قبل أن تقص عليه كيف مزق خالد جسد أبيه وتركه
مشاعاً للضواري . . وعندما ينام تدمم الريح باسم خالد . . قتل عمه . . وخاله . .

وزهير بن جذيمة سيد غطفان .. وورقاء العبسى .. وغيرهم من سادات العرب .. لا يتوقف سيفه ولا تتراجع خيله .. فكيف قدر للحارث وحده أن يتحمل ثأر هؤلاء .. ؟ ..

وعندما كان ما يزال صغيراً .. هبط أحد الصعاليك على القبيلة .. أخذ يجوس في الخيام الخالية من الرجال .. يكسر الأواني .. ويشد شعور النساء ويمزق ثيابهن .. وحين حاول الحارث الوقوف في وجهه اطح به في ضربة واحدة .. وجرت النسوة فزعات يلملن لحمهن العارى .. وانصرف الصعلوك وهو يتوعدهن بالعودة وقضاء الليل بأكمله وسطهن .

وعندما هبط أول سوق .. اشارت القبائل إليه وهم يقولون .. هذا هو الحارث بن ظالم المري .. من قبيلة النساء .

لم يعد اسم قبيلته «هوزان» .. لم يعد له قوم يعتد بهم .. تداخلت أسماء النسوة في نسبه .. وركبه خزي النواح .. وامتلاً قلبه بكل أحزان الأراميل .. فأخذ سيف أبيه وخرج إلى الصحراء .. أقام من كل أشكال الصخور صوراً لابن جعفر وأخذ يضرب .. ويرمى السهام لعل هذا يخفف من احساسه بالمهانة لكن عيون العابرين جائعة كلها سمعوا عن قبيلة بلا رجال تحركت شهيتهم .. وود الحارث لو يخرج من جلده .. من وشم أصابعهن على جسده .. تحول إلى حيوان برى . مفرد . معزول .. لا يرضيه غير أمرين .. ان يكون ثأره معلقاً بكف خالد بن جعفر .. وان تكون قبيلته من النساء .

ماذا أفعل حين أقابل خالداً .. ؟ .. هل أبادره بالقتل .. أم أميته ببطء بعدد كل لحظات عذابي ومهانة طفولتي .. ؟ .. ثم تقابلا .

رحل الحارث إلى الشمال .. إلى مدينة الحيرة عاصمة الملك النعمان .. حيث تذهب كل وفود العرب لتقديم فروض الطاعة والهدايا السنوية للملك .. وقدر للحارث أن يرحل أخيراً . كان قد أصبح شاباً قوياً .. واكسبته العزلة نوعاً من الصلابة وجعلت تصرفاته أشبه بالشراسة الحيوانية .. أخذ بضعا من الخيول التي بقيت في قبيلته بعد أن سلبها الغزاة كل شيء .. فشبت ضعيفة مثل نساء القبيلة .. رحل بلا سيف .. فلا أحد يدخل الحيرة بسيفه .. وهناك رأى خالد بن جعفر للمرة الأولى .

« أهذا أنت .. ؟ .. » .. تساءل الحارث في حرقه وخالد واقف بجانب العرش منتصب القامة كأنه تمثال صخري قاس .. والساحة واسعة .. والعرش عال .. وأعلن الحراس اسمه .. واسم قبيلته .. والحارث يتقدم ممسكاً بأعنة الخيول الهزيلة .. وخالد

يتنفس في صوت عال كأنه يتوعده . . « أهذا أنت ؟ » . . لم يكن أى منها متقلدا سيفه . .
كانا في حماية الملك الابصر الأحمر الشعر . . ووفود القبائل من مضر واليمن وربيعة . .
تحصى أنفاسه اللاهثة . . وهو وسطهم ضئيل . . حائق . . ممرور . . وهذه البسمة
الساخرة على وجه ابن جعفر تجعل كل قطرة من دمه تتوفز . . وضع أعنة الخيل عند قاعدة
العرش وهتف بالكلمات التي لقنها له .

- ابنت اللعن . . نعم صباحك . . وأهل فداؤك . . هذه أفراس من خيل بنى
مرة . . لن تأتى بفرس يشق لها غبار .
وقاطعت الضحكات كلماته . . انفجر خالد في ضحكة مدوية ، نزل من جانب
العرش أخذ يدور حول الحارث . أشار للخيل في سخرية وهو يقول .

- أتقدر هذه على شق غبار . . ؟ . .
وانفجرت الوفود في ضحكات متصلة . . نظر الحارث للملك يستنجد به . . لكن
وجهه كان خالياً من أى تعبير . . وصعد خالد وأخذ يهمس في أذنيه . . وتحولت هذه
الهمسات إلى تقلصات غاضبة على وجه الملك حتى نهض وهو يصرخ في الحارث .

- يا حارث . . أرى خيلك أشبها . . اين اللواقى كأن إذناها شقاق اعلام . . وكان
مناخيرها وجار الضباع . . وكان عيونها بغايا النساء .
وصاح خالد .

- زعم الحارث أن تلك خيله وخيل آباءه .
وزفر الملك . . واحس الجميع أن الحارث سوف يرد خائباً . . مغضوباً عليه . لكن
وزير الملك تشفع له . . وأشار الملك للجميع بالانصراف . . وابتلع الحارث أول
الاهانات .

في المساء ذهب الحارث إلى حانة في الحيرة . . كان الشراب مرأ . . وازدادت مرارته
عندما دخل ابن جعفر وحوله قومه من بنى عامر . . وجلجلت الدفوف بالتحية
وخرجت « بنت غفرن » المغنية من مؤخرة الحانة . . وقفت أمامهم تغنى . . وظل الحارث
مسلطاً أنظاره على خالد . . فوجيء به يلتفت ويتأمله . . ثم يشير إلى بنت غفرز يلقى لها
كيساً من الذهب وهو يهمس في إذنها . . ودقت الدفوف والصاجات . . وانتصبت
المغنية . . وغنت . .

دار هند والرباب وفرتنى .
ولميس قبل حوادث الأيام . .

بدأت طقوس المهانة . . استدارت الوجوه لتتطلع إليه . . وبنت غفرز تغفى . . عن أمه وخالاته وعماته . . تعرض بهن . . وانكسر الكأس الفخارى بين أصابعه . . والتفتت بنت غفرز إليه . . فوجئت بوجهه الصلد . . وبنائه البرى الغريب . . وهو يحرق فيها . . يتأهب لقتلها . . كانت قد أخذت به . . ارتعدت تحت وطأة نظراته الغاضبة . . اقتربت منه . . لكنه نهض غاضباً مجنوناً . . دفعها بعنف ووقف أمام خالد . . وتأهب حراس الملك . . وتأهب بنو عامر . . تأهبت الحيرة كلها . . والحارث وحيد أعزل . . ولم يكن أمامه إلا أن ينسحب ويتلجج الإهانة الثانية . . وظلت ملاعنه الصلدة أمام عين بنت غفرز . . وآثار أصابعه على كتفها . . ولم تعد قادرة على الغناء .

وفي الصباح توجهوا إلى مائدة الملك النعمان . . جلس الملك في المقدمة . . وجلست بقية الوفود على الجانبين . . واختار خالد أن يكون في مواجهة الحارث . . احضر الخدم أواني التمر الذى تشتهر الحيرة به . . ووضعوها أمامهم . . وظل خالد يأكل ويلقى النوى بين يدى الحارث . . وهو يأكل في صمت كظيم وكومة النوى تكبر بين يديه وبنو عامر لا يكفون عن الضحك . . وعندما فرغ خالد توجه بالحديث إلى الملك .

- أبيت اللعن . . أنظر إلى ما بين يدى الحارث من النوى . . ما ترك لنا قرماً إلا وأكله .

ولم يتلجج الحارث الإهانة الثالثة فرد عليه .
- أما أنا فأكلت التمر والقيت النوى . . وأما أنت فأكلته بنواه . .
ووجم الجميع . . كان خالد لا ينازع ولا ترد له كلمة سواء بين قومه أو في أى مكان . . صاح غاضباً .

- أتنازعنى يا حارث وقد قتلت حاضرتك وتركتك يتيماً في حجور النساء ؟ .
- ذاك يوم لم أشهده . . وأنا مغن اليوم بمكانى . وضحك خالد ضحكة جافة وقال مهدداً

- فهلا تشكرنى إذ قتلت زهير بن جديمة وجعلتك سيد غطفان .
واستدار الحارث خارجاً دون أن يأبه حتى باستئذان الملك

وفي الحانة عندما بدأت بنت عمفرز في الغناء رأت الوجه الصلد يتطلع إليها . . أحست نثار أصابعه التى أنشبهها في كتفها . . ألقى إليها كيساً من الذهب وطلب منها أن تغنى .
تعلم - أبيت اللعن - انى فاتك من اليوم أو من بعده بابن جعفر . . أدركت معنى ما حدث بالأمس . . لم تأخذ النقود . . لكنها غنت من أجله . . لعله يلين قليلاً . .
جلست أمامه وهى تهتف به .

— ألك حاجة .. ؟ ..

قال بصوت بارد .. أريد سيفاً ..

وظلت بنت عفزز تحديق فيه .. فكرت أن تتركه .. لكنها لم تفعل .. وزعمت الأخبار إلى خالد فاستقبلها باستهزاء .. لم يبق إلا هذا الغلام الذى يهدده .. وهتف به أخوه الأحوص أن يخفف مبيته الليلة لأن الحارث رجل موتور قد غلبه الشراب .. وضحك خالد .. لكن الأحوص ظل يلح عليه حتى قبل أن ينام معه « عتبه » ابن خاله .

سارت بنت عفزز والحارث خلفها إلى أقصى مدينة الحيرة .. واستيقظ اليهودى تاجر السيوف مفزوعاً .. اعتذر عن طلب الحارث لأن أوامر الملك كانت مشددة .. وتدخلت بنت عفزز .. وكانت لها معرفة سابقة بالتاجر .. ووضع الحارث أمامه كل ما معه من قطع ذهبية .. واقتنع اليهودى أخيراً .. نزل إلى قبر المنزل وعاد بالسيف .

لم يشهد الحارث ما هو أروع من هذا النصل اللامع المصقول .. انعكست

ذبالات المصابيح على صفحته في وميض خاطف كالبرق .. واقسم اليهودى أن هذا السيف جاء خاماً من الهند وظل يجلوه شهراً كاملاً ثم نقعه في سم الافاعي ثلاثة ليال قمرية .. وتحسس الحارث بأصابعه نقوش الثعابين المحفورة على حافته وتمتم .
- سوف يعرف الجميع هذا السيف .. « ذى الحيات » .

وانصرفا واليهودى يلح عليهما في كتمان السر .. نظرت إليه بنت عفزز .. لقد بقى عليه أن يفى بوعده لها .. قالت ..

- كما اتفقنا .. هذه الليلة لى ولتؤجل ثارك للغد .

ومرة أخرى تأملها .. كأنه لم يكن يشعر بوجودها .. هى تهمس .. وتجذبه وطائر الصدى يرف في صدره .. واشواك المهانة حول رأسه .. وللمرة الثانية دفعها دفعة قوية ألقت بها على الأرض وانطلق إلى حيث ينزل بنو عامر .

في المنتصف خيمته . من الجلد الأحمر المدبوغ . والنيران خامدة . ويرد الحيرة تجمع في دماء الحارث .. تحرك في خفة القط .. ورفع الستر فرأى عتبة نائماً .. تحطأه فرأى خالداً .. تنفتح أوطجه مع صوت التنفس . رفع سيفه .. لو أنه يملك أن يوجه له نصف الاهانات التى لاقاها بسبه . هوى بالسيف على الودج .. شخر خالد كالذبيحة . انتفض جسده في رجة عنيفة .. ولم يفتح عينيه .. عتبة هو الذى فتح عينيه مذعوراً .. وقفز الحارث نحوه امسك عنقه وهو يرفع السيف الذى يقطر دماً .. هتف به .

- أحبر الناس أننى قتلت خالداً ..
وضرب رأسه بمقبض السيف .. ثم فرحارجاً من الخيمة .. ومن الحيرة .. ومن كل
بلاد المناذرة

الصحراء يا قلبى الطليق .. يا أمى .. يا خالائى .. يا عماتى يا كل نساء الصحراء
لقد أدركت ثارى .. قتلت خالداً .. ذلك الجزء القلق المعضب من نفسى .. تزينت عباءى
بقطرات دمه وبللت ظمأ طائرى .. يا غطفان .. يا عبس .. يا كل ذرات الرمل .. لقد
قتلت وجهى الآخر .. فهل أنعم بلحظة من الحياة دون احساس بالعار .. ؟ ..

ومع أول خيوط الضوء سأل نفسه فى حيرة .. أين أذهب ؟ .. سوف يطلبه بنو عامر
لاقصى الأرض .. ولن تهيه نساء قبيلته إلا أغاريد الفرح والأسرة الوثيرة .. إنه فى حاجة
إلى رجال حقيقين .. يقفون معه .. وقرر أن يتوجه إلى غطفان .. أبناء عمومته .. لقد
ظفر لهم أيضاً بثأرهم وسوف يصبح بهم سيد الصحراء ..

لم يصدق الملك النعمان أن الحارث جرؤ على فعلها .. وحين رأى رأس خالد
المقطوعة أدرك مدى الاهانة التى وجهت إليه .. لقد اعتدى على حرمة وحرمة مدينته ..
وصرخ فى وفود العرب ..

- الحارث طريدى .. وثأر خالد ثارى .. ومن أجاره من العرب عدوى ..
وجهزت بنو عامر خيولها .. واعطى الملك أوامره المشددة «للملحاء» أقوى كتائب
جيشه وطار الخبر مع القوافل المسافرة .. ومع الرواة والصعاليك .. دم الحارث مباح ..
ودم مجيريه مهدد ..

ووقف الحارث أمام غطفان .. كانت خيامهم ترتعد إذ تمسها ريح الصحراء ..
ووقف أمام شيخ القبيلة عمه سنان بن أبى حارثة المرى .. لم يسمحوا له بالنزول .. ولا
بالتزود بأى ماء أو طعام .. هتف مذهولاً

- لقد نلت ثارى .. وثأركم
لكنهم كانوا يعرفون فداحة الخطأ الذى ارتكبه .. قال عمه ..
- لقد جررت علينا عداوة الملك .. ولا طاقة لنا به ..
واختبأوا فى خيامهم المرتعدة .. وتخلوا عنه .. وعاد جواده ينهب الأرض .. ما أقسى
طرق الصحراء حين تتشابه .. والصدقة العمياء حين تقودنا للنجاة .. أو الموت ..

وصل إلى تميم .. لم يدرك رئيسهم حاجب بن زرارة خطورته .. فاستضافه فقدم له
اللبن والتمر وجلس يستمع إلى قصته .. ولم يلبث أن علت وجهه علامات القلق ..

وانسحب بقية وجوه القبيلة . . وأخذ حاجب يبحث في داخله عن مخرج من هذه الورطة .
وصل بنو عامر . . اسروا امرأة من بني تميم كانت تجمع الخطب . . وطلوا يصعطون
عليها ويهددون بها حتى أخبرتهم بمكان الحارث من بني تميم . وتوفرت سيوفهم للثأر . كان
الاحوص على رأسهم . . يعاني من ارتخاء جفنيه . . فإذا استعد للحرب عصبوا رأسه
ليرفعها . . فإذا رأى لا يرحم . . . واستطاعت المرأة الهرب إلى قومها . وان تخر حاجباً
بأوصاف بني عامر الذين يقبلون بوجوه الأطباء ويدبرون ناعجاز النساء . واستدعى
حاجب الحارث وسأله .

- هؤلاء بنو عامر قد أتوك فما أنت صانع . . ؟ .
- أدرك الحارث إلى ماذا يرمى السؤال . لو أنه عازم على نصرته لما سأله .
- أجاب في حذر . .
- ذاك إليك . . إن شئت اقمته فقاتلت القوم . . وإن شئت تنحيت .
- وكما توقع قال حاجب في ارتياح .
- تنح عني غير ملوم .

وغضب الحارث فانطلق يهجه شعراً . . ورد حاجب الهجاء . . وأوشكا على التشاجر
ونحول بنو عامر تقترب . . ولم يكن أمام الحارث إلا أن يهرب . ولم يكن أمام حاجب إلا
أن يخرج لهم ويرشد لهم للطريق الذي هرب منه الحارث

وهجم الملك النعمان على غطفان لكن رئيسهم سنان حدد موقف قبيلته قائلاً
- ابيت اللعن . . والله ما ذمة الحارث لنا بلذمة . . ولا جاره لنا بجار . ولو أمته ما
أمناه .

وظل الحارث يمرق . . ينام ليلة ويسير أياماً متواصلة . وانتشرت الملحاة كالرعب
الاسود بعرض الصحراء . . تهجم لمجرد الشك . . وتقتل عند أى شبهة . وانتشر على
طريق مطاردته خط الموت والمقابر . . كل النجوم غادرة . . وكل علامات الطريق
مضللة . . وطائر الصدى يغرس منقاره في الرمل . . لعل هناك مكاناً وحيداً آمناً ليلة
واحدة بعيداً عن كوابيس المطاردة . . ذهب إلى كندة . فقالوا له . لا نجاة لك إلا في
حضر موت . . ذهب إليها قالوا عليك بأرض بكر بن وائل . . سار حوفاً . . وسار
عطشاً . . ووقف أمام رئيسهم زيان يحكى مرارة تأربه وعسر مطاردته ويمدح كرمه ووفاءه في
قصيدة طويلة . . وأجاره الرجل . . لكن قومه اجتمعوا إليه . صاحوا على مسمع من
الحارث :

- اخرج هذا المشثوم من بين أظهرنا حتى لا يعرضنا بشر . . لا طاقة لنا بالملحاة .

ورفض زبان أن يتخل عنه .. خاصة بعد هذه القصيدة الجيدة .. واشتعلت نار
الحلقات بين بطون القبيلة ذاتها .. وجنود الملك يقتربون .. وعاد يهرب من جديد ..
تواصل الليل بالنهار .. لا راحة .. ولا سكينة .. واستطاعوا محاصرته في أحد الجبال ..
لكن سهامه ظلت تنهال عليهم .. فكلما هجموا على مكان اكتشفوا أن السهام تقتنصهم من
مكان آخر .. وفي النهاية استطاع أن يفلت منهم وتركهم يرصون قتلاهم ..

مع كل حرب جديد .. كان غضب الملك يزداد .. كل انتصار يحققه الحارث يهز
عرشه .. والانباء تنتشر وسط قبائل العرب .. الحكايات والأشعار .. والملحاء تحولت إلى
حفنة من الجنود البلهاء يطاردون الريح .. بدلاً من أن يترصدوا للحارث .. أصبح هو
الذي يترصد لهم .. من طيء إلى بكر .. ومن بكر إلى ثميم .. ومن حضر موت إلى
عروض اليمامة .. وبدأ شعراء الغساسنة يتندرون على عجز الملك النعمان .. وأرسل
كسرى ملك الفرس يتسائل .. والحارث يسجل بالشعر كل لحظة يمر بها .. حتى أن الرواة
نقلوا إلى الملك آخر ما قاله من أبيات الشعر .

بدأت يهدى ثم انثى بمثلها ..

وبثالته تبيض فيها المقام ..

وصبرخ الملك في غضب ..

- ما يعنى بالثالثة غيرى ..

لقد أصبح الحارث هو الذى يهدد .. وزفر الملك في غيظ .. لكن وزيره انحنى وهو
يقول ..

- ابيت اللعن .. لا أراك تنال منه شيئاً أغيظ له من أخذ جاراته وسلب أموالهن .

وهذا غضب الملك .. أمر جزءاً آخر من فرسان جيشه بالهجوم على هوزان - قبيلة
النساء - أن يهدموا الخيام على رؤوسهن .. إن يقتلوا العجائز ويأسروا الصبايا ..
وفوجيء الحارث بأحد الصعاليك وهو يبرز أمامه ويهتف به .

- ماتت أمك .. قتلها جنود الملك النعمان ..

وبوغت الحارث . لم يتصور أن يلجأ الملك لهذه الدرجة من الانتقام .. إن الثار هو
علاقة دموية بين الرجال .. فلماذا تدفع النساء الثمن .. ؟ ..

لم يحزن .. يكفى كل أحزانه الماضية .. عليه الآن أن يرد الضربة .. سيذهب إلى
الحيرة ليواجه الملك في عقرداره .. ولن يساعده على ذلك إلا بنت عفرز .

عاد إليها .. ظلت ترقبه في شك .. أدركت أنه يسعى خلف مقتلة أخرى .. لكنها
صمتت .. وأخفته في حجرتها .. وودت لو تخفيه في قلبها .

هبط متنكراً إلى الأسواق . . كانت نظرات الحرس المشككة تفحص الغرباء وتحيط
سياج القصر . لم يستطيع الاقتراب . . وخرج الملك النعمان من القصر . . سار في موكبه
الاسبوعى عبر المدينة إلى قصره على النهر . . بلحيته الحمراء ووجهه الأبيض . . ظل
الحارث واقفاً يحدق فيه . . كان الأمر محتاجاً لنوبة مجنونة من الشجاعة ليقفز عليه ويأخذ ثار
نسائه . . لكنه توقف عندما شاهد «شرحبيل» ابن النعمان . . ولده الصغير الذى يعده
ليكون أقوى ملوك العرب . . كان يسير خلف أبيه . . يتطلع إلى الجميع بوجهه الغافل وهو
يمص أصابعه . . وادرك الحارث إلى أين سيوجه ضربته .

وظل يترصد القصر . يرقب الداخلين والخارجين . . حتى شاهد الصبى وهو خارج
بصحبة أحد العبيد . . ذهب إلى حافة النهر . . وظل الحارث راكباً حتى ابتعد العبد
قليلاً . . وهجم الحارث .

رقبة الولد في يده . . لم يكن يشبه أباه . . كانت انفاسه تتحشرح . . وعيناه
تبرزان . . دهشة ورعباً . . وظل يقطع طعنة لآبيه . . وطعنة لأمه . . وطعنة لأيام
الطراد . . وصرخ العبد . . أخذ يبيل التراب على رأسه ويستنجد بالناس . .لقى بهجة
الصبى وقفز عليه . . وهتف فيه بشراسة .

- أخبر الملك . . أن الحارث قد أدرك ثاره . .
وانطلق هارباً للصحراء .

يا ملك الحيرة . . قتلت أمى فقتلت ابنك . . لا يلد الدم سوى الدم . . قتلت أيامى
الماضية وقضيت أنا على أيامك القادمة . . دون أسف أو ندم . . وبيننا الصحراء . . فرصة
النجاة . . أو مقبرة الرمل . . زهور الصبار جافة مثل قلب وحيد . . والطائر العطشان مل
طعم الدم وتاق للحظة من السلام . . لم تعد هناك جدوى فما بقى بيننا من لحظات سوف
نقضيها في الحرب حتى يوقع أحدنا بالآخر .

يمرق الحارث بن ظالم عبر الصحراء . . الملوك لا يرحمون والسادة خائفون والقبائل
متشابهة . . تتمسك بأهداب التقاليد وتتفاخر بالأكاذيب حتى يأتى وقت الخطر . . فتدفن
رأسها في الرمل . . والحارث شجرة بلا جذور . . يلاحقه هلاك بنى عامر . . وثار الملك
المضاعف . . «وذو الحيات» هو صديقه الوحيد . . قضى على قبيلته . . وتبرأت منه
غطفان . . وتنصلت تميم . . وأغلقت في وجهه عروض الإمامة . . وتناول عليه انصاف
الرجال .

عمرو بن الاطانبه الخزرجى ملك الحجاز . . حين عرف أن خالداً قد قتل هتف فيمن
حوله .

- والله لو لقي الحارث خالداً وهو يقظان لما نظر إليه .. ولكنه قتله نائماً .. ولو أتانى لعرف قدر نفسه .

ألقى هذا التحدى في وجه الصحراء ولبس تاجه ودعا بقيانة يغنيه الأشعار الحماسية .. وبلغ الحارث هذا التحدى ولم يكن أمامه ما يخسره فسار إليه .. وصل إلى بني الخزرج ووقف على باب خيمته وهتف به .. أيها الملك أغثنى فإننى جار مغلوب على أمرى .. وأجاب عمرو بصوت حماسى وخرج من خيمته شاهراً سيفه .. وهجم عليه الحارث وهو يهتف به .. أنا الحارث بن ظالم جئت وأنت يقظان .. وفوجئ الرجل .. واعتراك ملياً من الليل حتى خشى عمرو أن يقتل فهتف بالحارث .. يا حارث .. إن شيخ كبير وإنى تعتربنى سنة من النوم .. فهل لك فى تأخير هذا الأمر إلى الغد ؟ .. قال الحارث .. هيهات ومن لى بك فى الغد .. ونحاول ساعة أخرى .. ثم ألقى عمرو الرمح من يده وهتف .. يا حارث .. ألم أخبرك أن النعاس يغلبنى قد سقط رمعى فاكفف .. وكف الحارث .. قال عمرو .. انظرنى إلى الغد .. قال .. لا أحفل .. قال .. فدعنى آخذ رمعى .. قال .. خله .. قال عمرو .. أخشى أن تعجلنى أو تفتك بى إذا أردت أخذه .. قال الحارث .. وذمة آل ظالم لا أعاجلك ولا أنتك بك .. قال عمرو على الفور وذمة الاطالبة لا أخذه ولا أقاتلك .

وتوقف الحارث .. لم يجد بداً من الانصراف تاركاً الشيخ الاحمق يتتلع تحدياته الجوفاء .

يمرق الحارث عبر الصحراء . كم مرة عبر ذات المكان وإستغاث بنفس القبائل .. كم مرة أثار رعب الأطفال والنساء وحنق المطاردين .. كان النعمان غاضباً لمقتل ابنه فظل يدفع الجيوش إلى الصحراء حتى امتلأت بهم كل الطرق والربوع .. ذهب الحارث إلى بني دارم .. كان قد قابل رئيسهم «معبد» فى أحد الأسواق وتوثقت بينهما أواصر الصداقة .. وأجاره معبد رغم أنف قومه .. كانوا متشائمين من مقدم الحارث ومن جرهم إلى حرب لا نفع فيها .. وصمم معبد على رأيه .. وجاء بنو عامر والاحوص على رأسهم .. ولم يخرج مع معبد إلا القليل من قومه .. وكان الأمر الطبيعى هو أن يهزم ويؤخذ أسيراً .. وأرسله بنو عامر إلى رجل فى الطائف متخصص فى تعذيب الأسرى ظل يقطعه أرباً حتى مات .. وعاد الحارث الهرب .

وصل إلى بلاد ربيعة .. أصبح قريباً من اليمن حيث يمكن أن يضيع فى جبالها المتشابهة . أو ان يعبر البحر إلى الجانب الآخر من العالم .. لعله يجد هناك سلاماً أكثر وقبور أقل .

كان متعباً .. مليئاً بالجروح الصغيرة والأحلام الخائبة .. يسير في أرض ليس بها أثر الحياة .. رمل .. وصخور .. وأشجار شوكية قصيرة ربط حواده ونام .. حلم بوحه أمه .. وود لو يستطيع استحضار وجه أبيه في الحلم .. أحس بالألم شديدة تحز ذراعيه .. ومد الملك النعمان يده ليقبض على عنقه .. ضاق صدره حتى عجز عن التنفس إستيقظ مهزجاً فوجد نفسه مقيداً .. محاصراً بالوجوه الغريبة .. لقد وقع في الفخ .. لم تمر لحظة ضعفه الوحيدة بسلام .. صرخوا فيه ..

- من أنت .. ؟ ..

أدهشه السؤال .. أنهم لا يعرفونه .. ليسوا من بني عامر اذن .. ؟ .. أو من اتباع الملك .. صمت .. ذكروا أنهم من بني قيس .. رأوه نائماً فأخذوه أسيراً .. لو تعرفوا عليه لطاروا به إلى الخيرة وأخذوا مكافأة النعمان الضخمة .. وهتف رئيسهم في حلق

- ألا تريد أن تتكلم أيها الصعلوك .. ؟ ..

وأهوى عليه بلطمة هائلة .. زبحر الحارث .. جاءت اللحظة التي يلطم فيها ولا يجروء على الرد .. لقد رد لطمه خالد .. ولطمه الملك .. ولكنه يعجز أمام هذا الصعلوك من بني قيس .. واجتمع عليه القوم .. يضربونه ويغزونه بأطراف الالسنه .. وكلما أصر على صمته .. ادركوا أهمية ما يخفيه ..

هبط الليل فأوقدوا نارهم .. وجلسوا يتسامرون ويقطعون الوقت بتعذيبه .. ومحاولة حمله على الاعتراف باسمه ونسبه .. وزاد من غيظهم أنه لم يكن يحمل مالاً .. ولا شيء يؤكل .. وظل صامتاً .. وشجوا رأسه فأنسال الدم حتى أوشك أن يغلق عينيه .. وأصاهم الملل منه أخيراً .. وتظاهر بأنه قد فقد وعيه فتركوه حتى انطفأت نارهم وعلا صوت تنفسهم .. وأخذ يتحرك في حذر بالغ .. يحرك ذراعيه وعضلاته المشدودة حتى استطاع التخلص من القيد .. كانت كل قطعة من جسده تؤلمه .. لكنه أخذ سيفه وجواده وود لو يستطيع أن يرد عليهم ما تلقاه من اهانات لكنه كان متعباً ووحيداً ..

جرى مبتعداً .. ودقت سنابك الحيل لتعلن خلاصه .. ولتوقط أعدائه .. ههصوا وأسرعوا إلى جيادهم .. وانضموا إلى قائمة المطاردين .. وشرق الصبح وهو يعدو وانحدر الوادي إلى مدينة هائلة .. يحوطها حصص كبير .. شهق فرحاً إنها اليمامة أخيراً .. لو يستطيع الوصول إلى خلف هذا السور

كان هناك عدد من الأطفال يلعبون .. هبط من فوق جواده وامسك الغلام الأول نظر إليه في رعب وسأله عن اسمه .. وقال الغلام ..

- أنا بجير بن ابجر العجلى ..
أمسكه الحارث وهتف به ..
- أنا لك جار ..
شعر الغلام بالزهر فإقتاده إلى داخل الحصن وخلفهما بقية الصبيان .. وذهبوا إلى الأب
ابجر العجلى .. وقال الغلام .

- يا أبى .. لقد أجرت هذا الفارس ..
ووافق الأب على طلب ابنه الوحيد .. أعلن أن الفارس الذى لا يعرف اسمه ولا نسبه
فى حماه .. وهتف الحارث .

- انهم يطاردوننى .
وأمر الرجل فاغلقوا باب الحصن .. ولم تمض دقائق إلا وأقبل القيسيون وأخذوا
يزجرون خارج السور وينادون على العجلى أن يرد لهم أسيرهم .. لكنه هتف .
- لو أخذ تموه قبل دخوله الحصن لاسلمته لكم .. فأما وقد إستجار بى فلا سبيل
إليه .

صاحوا فى غضب .
- أسيرنا وما هو لك بجار ولا تعرفه .. إنما أنك هارياً من أيدينا ونحن قومك
وجيرتك .

وصمت العجلى .. كان موزعاً بين الوعد الذى قطعه للغريب .. وحقوق جيرانه
عليه .. قال ..
- اما ان أسلمه إليكم فلا يكون ذلك .. ان شئتم اعطيته سلاحاً كاملاً وحملته على
فرس وتركنه حتى يقطع الوادى بينى وبينكم ثم دونكموه .

ووافق القوم .. ووافق الحارث أيضاً .. كان قد ألف الطراد والحرب .. وعرف أنه
لا أمان فى حماية الآخرين .. حمد الله لأنهم حتى الآن لم يعرفوا اسمه وإلا استماتوا على
جثته .. لبس سلاحه . وفتح باب الحصن .. وتطلع القيسيون إليه فى حنق .. شاعرين
بالاهانة . هذا الفارس الوحيد قد وضعهم جميعاً فى موضع الاختيار .. وانطلق يعدوا ..
من العبث ان تطارده القبائل والملوك ثم يقع فى قبضة حفنة من لصوص الخيل .. وحث
جواده .. واقترب خط الوادى .. ثم سمع أصوات جيادهم وهى تعدو خلفه ورأى
السهم تتطاير فاستدار بحركة مباغته ورشقهم بدفعة من سهامه وترنح اثنان منهم وسقطا
على الأرض .. واستدار يعدو .. ووقفوا هم وقد باغتتهم المفاجأة .. ونظروا إلى
قتلاهم .. وبدا أن المطاردة هى نوع من أنواع الحماسة ..

مرة أخرى يترك نفسه للصدفة العمياء . . يعدو فتبرز إحدى القبائل فلا يعرف ماذا تحمل له . . السيف أم سعف النخل . . ها هي بيوت أخرى . . ونخيل وناس . . أين أنا من أرض الله . . ؟ . . جرى أحد الرعاة وهتف به .

- هل أنت مطارد . . ؟ . .
أوما الحارث وسأله عن مكانه . . ورد الراعي وهو يتأمل وجهه .
- أنت في بلاد بني قشير .
ثم هتف وهو يقفز من الفرع .

- إنه أنت . . نفس الأوصاف التي ذكرها الرواة . . أنت الحارث ابن ظالم المري .
سوانكر الحارث ذلك بشدة ولكن الأرض انشقت عن عشرات الرجال والأطفال . .
يعدون إليه بسعف النخل . . والراعي يواصل الحديث اللاهث .

- كنا نعرف أنك هارب في عروض اليمامة . . وقد توقعنا ان تمر ببلادنا . .
استمع إلى كلماتهم . . ورأى سعف النخل ومظاهر الترحيب . . وتساءل . . أهو فنج جديد . . ؟ . . هتف به شيخ القبيلة أنهم أهله . . سوف يدفعون أعداءه . . فكر . . هل زاد الملك من المكافأة المرصودة . . انزلوه في خيمة كبيرة . . وذبحوا الذبائح تحت قدميه . . ورقصوا بالسيوف تحية له . . وهو جالس يفكر في مرارة . . حين يأتي جنود الملك سوف تتبدد هذه الفرحة كالفقاعات . . هتفوا به . .

- إحك لنا . . إروا شعارك . .
حكى . . وروى الشعر . . أكل وشرب ونام . . واختلس لحظات المتعة المتاحة . .
مادام لا مفر من الموت فليأخذ نصيبه من الراحة . . كان هربه قد قاد العرب إلى حربين كبيرتين . . ثم قاد هذا إلى يوم وقعت فيه كل القبائل في بعضها . . أصبح ثأره الفردى عاماً وشاملاً . . فوق كل البطون والعشائر . . كان متعباً فأكل وشرب ونام . . وتأمل وجوههم . . وفكر . . متى سوف يهمون بالتخلص منه . . واسترد جسده صحته وبراً من كل جروحه الخارجية وبقيت الجروح التي لا يبرأ منها .

ثم ان بنى عامر جاءوا . . وحاصروا القبيلة . . اجتمع بنو قشير إليه وصاحوا . .
- سوف نحارب معك .

ودهش الحارث . . لقد كانوا صادقين ولم يتراجعوا . . انهم يريدون الحرب التي تخاذلت عنها ثميم وغطفان رغم أنهم أقل قوة . . حرب بنى عامر بالنسبة إليهم نوع من الانتحار . . لكنه خرج فخرجوا خلفه . . جهز سيفه ذا الحيات . . فأخرجوا سيوفهم . .

ودمدم بنو عامر في غضب حين واجهوا الحارث أخيراً . . شاهد الاحوص وهو يرفع جفنيه ويتأمله . . ما أشبهه بخالد . . ما أشبه الجميع بخالد . . صباح به .

- يا احوص . . هذا ثار بيني وبينك . . فلتقاتل على أن يتراجع القومان إذا مات أحدهما ولا يقاتلا بغير طائل .

وكان الاحوص يكره الحارث حتى أنه وافق على الفور . . وتقدم اثنان من الفرسان فعصبا رأسه حتى لا ترتخي جفناه أثناء القتال . . وهتف الاحوص .

- ثارى ولن يدركه غيرة .

كان كل منهما يحمل للآخر حقداً لا يهدأ . . لأن الحارث قد أطار بضربة واحدة كل مجد بنى عامر . . ولأن الاحوص جد في المطاردة حتى لم تعد للحارث قبيلة أو أرض . . ولأن كل ما بينهما تحول إلى أطلال . . ومقابر . . ورماد . . كانا يضريان . . ويتواجهان . . وحين سقطت الخيول من التعب واصلا القتال على اقدامهما . . وأخيراً استطاع الحارث أن يمد ذؤابة السيف ويمس العصبة التي ترفع جفني الاحوص . . فلم يعد يرى غير الظلام الدامس . . كان قد خسر . . واخترق السيف جنبه وشعر بوطأة الخزي أقسى من الألم . . انهزمت بنو عامر من جديد . . ظلوا مترددين . . هل يهاجمون دون زعيم . . أم ينسحبون ؟ .

ولم يتحد الحارث مشاعرهم . . انسحب في هدوء وتوارى بين صفوف بنى قشير وانتظروا قرارهم . . وعندما تقدم عدد من فرسانهم وحلوا جثة الاحوص عرف انهم قد قرروا الانسحاب مؤقنا على الأقل .

وهلل بنو قشير . أحس كل واحد منهم كأنه قد خاض معركة . وكأنه انتصر بالفعل . لقد اصبحوا فجأة قبيلة قوية يردد رواة الانساب أخبارها . . كان الحارث حزيناً . انصرف بنو عامر وغدا سوف يأتي جنود الملك . وسوف تتحول سعادة الأطفال التي يشعربها الجميع إلى مأساة . لن يتندر الرواة بأى شيء من خصالهم لأن الملحاء لن تبقى لهم أثر . لذا حسم أمره قاتلاً .

- يجب أن أرحل عنكم .

ودهش شيخ القبيلة وهو يرفع فوق خيمته الرايات الملونة .

- ولكن . . لماذا تتركنا . . من ينصرك غيرنا . . ؟

كان الحارث يفكر في مكة . في الحرم الذي لا يهدر فيه دم . هل يمكن أن يصل إليه . . وأن ينجو . دون ذلك كل الطرق المراقبة وعيون الجواسيس ويطون القبائل

المتحالفة . . والمملحاء . . لكن الاختيار كان قد حسم في داخله . . أما أن يصل إلى مكة أو يموت على أبوابها .

وخرجوا يودعون على دقات الدفوف وحرص الرواة على ترديد أشعاره أمامه ليتأكدوا من درجة الحفظ ودست الجوارى قوارير العطر في متاعة ها هي الصحراء الواسعة مرة أخرى . ترك كل الطرق المألوفة . أصبح يحفظ الصحراء مثل كف يده . وأحسن جنوده الملك بما يحاول أن يفعله فأخذوا يضيقون عليه الخناق . . يحاولون محاصرته عند منافذ الجبال وفي بطون الوديان . . وكل يوم تتواتر أخباره . . شوهده الحارث بالقرب من غفار . . بالقرب من الطائف . . من يثرب . . ثم بالقرب من جبل مكة . . يمرق في الليل كحلحلم وفي النهار كحافة سكين . . يكتشف فجأجاً لا يعرفها أحد . . ومكة راقدة بين جبالها العالية كحديقة العين وكلما سقط الحارث خرج من يده يد المعاونة . يعطيه طعاماً . . أو سهاماً . . أو حتى جوداً . . كانوا يريدونه أن يصل . . أن يحقق حلمهم في أن يتغلب فرد واحد . . كانوا يريدون أن يمتازوا به خوفهم . . والملك النعمان يرتحف فوق عرشه ويصرخ .

- لا يجب أن يصل إلى مكة . . يجب ألا يفلت .

والحارث يكسب كل يوم شبراً من أرضه المحرمة . شبراً من حياته . يتقدم ويدوم وتنهمر عليه السهام كالطرر وتنصب له الفخاخ . وأخيراً . . استطاع ذات ليلة مقمرة أن يستدير وأن يهبط من منحدر وعمر إلى مكة بعد أن تمزقت يداه . . وسار يترنح إلى الحرم . . وأصبح بعيداً عن مغالب الملك .

وفي الصباح فوجيء أهل مكة بالحارث جريحاً متعباً متشبهاً بأستار الكعبة . . لقد انتصر . . الآن يستطيع النوم والزواج والحياة . يستطيع أن ينجب ولداً وأن يمد جلوره في الأرض . . ولكن هل ينسأه الملك . . وهل تهدأ بنوعا ما . . ؟ . . ومرة الأيام ولكن ما أغرب أن تكون انساناً عادياً . . تمارس حياتك وسط اناس عاديين . . إنحصر الحارث في وادى القرى الضيق . . لا يخرج منه ولا يتخطاه . . لا يمضي مع قافلة ولا يشترك في سوق . ولا يعرض نفسه لمواسم الحجيج . هل يمكن أن يطوع نفسه لهذا الأمان الخائق . . يبقى ويأكل ويسمن . . وترتخي عضلاته . . ويتساقط الريش من أجنحة طائر الصدى . . وعندما زوجه اكتشف أنه لم يكن يريد هذه الزوجة . . ولا هذه الحياة . . مرت بنت غفرز بذاكرته كلسع اللهب . . كان فراش الزوجية بارداً قاحلاً . . والحارث يعضض طعام الملل اليومى .

ومن الشمال جاءت أنباء غريبة . . لقد عفا الملك النعمان . . من يصدق هذا . . ؟ ارتدت جيوشه خائبة . . واستكانت عامر . . وأصبح الحارث اسطورة . . ولم يكن

النعمان ليجرؤ على معاداة الاسطورة .. وجاء شيوخ القبائل ووحوه العرب من ربيعة ومضر واليمن .. كلهم يحملون نفس الانباء وتأكيدات الملك .. لقد أصبح آمناً ..
طلاً

أهذا فخ جديد .. ؟
وجاء سنان بن أبي حارثة المري - عمه الذى تخلى عنه - جاء يسعى قائلاً ..
- ها هو كتاب الملك بالعفو عنك .. لقد نلت ثارك ورفعت رؤوسنا ..
واستمع الحارث إلى كلماته فى هدوء .. كيف تبدل كل شيء إلى هذه الدرجة .. فتح
كتاب الملك .. كانت كلماته عمواً صريحاً وتعهداً بالأمان ودعوة لزيارة الحيرة ..

حذق الحارث فى عمه طويلاً وهو يتمتم حائراً .
- هل الملك صادق .. ؟
هتف كل شيوخ القبائل .

- لقد وعد والملك لا يغير ونحن ضامنون لك صدق وعده ..
وصمت الحارث ثم سأل عمه فى صوت خافت :
- هناك مغنية فى الحيرة اسمها بنت عفرز .. هل هى موجودة ؟
- أجل .. إنها مازالت تغنى .

والتف الحارث حول نفسه وعاود الصمت .. هل تصدق وعود الملك .. ؟ .. هذا
ختمه وشارته وهذه كلماته . تأمل لحي شيوخ القبائل . والتجاعيد فى وجه عمه ..
وشوق الرحيل الممص فى أعماقه .. وشوقه إلى بنت عفرز . كل هذا جعله لا ينام ليلاً ولا
يأكل نهراً .

وعندما قرر الرحيل امتدت الصحراء مثل جسد رخو لم يعد فيه ما يثير الرعدة .. مر
على القبائل التى تيرأت منه قديماً .. أصبحت الآن ترفع له سعف النخل والرايات ..
ذهب إلى قبيلته فوجد الحياة قد عادت .. والأطفال يجاهدون لأخراج الماء من الآبار .
وواصل السير فرأى الطيور الجارحة فى السماء .. والآبار المسمومة فى الأرض .. لكن وعد
الأمان المكتوب كان فى جيبه

وعلى باب الحيرة تأمله الحراس قليلاً ثم سمحوا له بالدخول .. كان سيفه ذو الحيات
حول وسطه .. ولم يره أحد .. أو لعلهم تجاهلوه .. بدت الشوارع ضيقة . مليئة
بالمسولين والأطفال الهزالي .. والبيوت واطئة تشبه الزنازين .. وفى الليل سار إلى حانة
بنت عفرز .. حيث يختلط العطر والدخان وصوتها .

فأسقى بجيراً من رحيق مدامة ..
وأسقى الخفير وطهرى أثوابه ..

كانت تغنى من أشعاره .. وحين التفت وجدته جالساً أمامها .. مثل أمنية عزيزة
المنال .. اقتربت ولمسته .. تأكدت أنها لا تحلم .. كان هو أيضاً لا يحلم

قال لها ..

- فى الغد سوف أذهب لمقابلة الملك النعمان .. ثم أعود لنبقى معاً .
هتفت فى لوعة ..

- سوف يغدر بك .. لا تذهب .

- الملك لا يرحم .. لكنه لا يغدر .. لقد عفا عني وكتابه فى جيبى ..

توسلت إليه من خلال دموعها ..

- لا تذهب .. لنهرب سوياً إلى أرض الغساسنة ..

كان الحارث قد هرب كفايته .. وحزن كفايته .. وامتلأ جسده بكل أنواع
الجروح .. هتف ..

- يجب أن أذهب إليه ..

وجاء الصباح .. طائر أبيض الجناحين كسيح .. سار الحارث إلى القصر . قال
للحاجب : إستانذن لى .. والناس عند النعمان متوفرون .. كل شيوخ القبائل الذين حملوا
وعد الأمان .. قال النعمان للحارس : ائذن له وخذ سيفه . قال له الحارس : ضع
سيفك وأدخل .. قال الحارث فى بلاهة .. ولم أضعه ؟ .. قال الحارس .. ضعه فلا
بأس عليك .. وظل يلح عليه حتى وضعه ودخل ومعه الأمان .. انحنى أمام الملك انحناء
خفيفة وهو يقول : أنعم صباحاً أبيت اللعن .. قال النعمان : لا أنعم الله صباحك ..
قال الحارث : هذا كتابك !! .. قال : كتابي والله ما أنكره .. لكنك غدرت بى مراراً فلا
ضير أن غدرت بك مرة .

ساد الصمت .. وارتجف شيوخ القبائل .. وظل الحارث واقفاً .. واحداً .. كما
تعود أن يكون .. واحضر الحارس سيفه ذا الحيات ووضعته تحت قدمى الملك .. وهتف
النعمان : من يقتل هذا .. ؟ .. فقام ابن خمس التغلبى وكان الحارث قد قتل أباه ..
قال : أنا أقتله .. والتفت الحارث إليه يسأله : من أنت ؟ .. قال .. ابن خمس
التغلبى .. همهم الحارث متهمكياً . أنت تقتلنى يا بن شر الأظلماء . ورد ابن الخمس ..
أجل . يا بن شر الأسماء وتدحرجت رأس الحارث .. ببساطة أسرة ومفرعه تحت قدمى
الملك .. بنفس السيف الذى دافع طويلاً عنها .. وكانت يده ما تزال ممسكة برقعة
الأمان .. ونقلوا جثته ليمثلوا بها . لكن بنت غفر أعطت للحارس كيساً من الذهب

وأخذتها .. حيث دفنتها في مقبرة لا يعرف طريقها إلا هي .. والدئاب .. ووقف ابن
خمس في سوق عكاظ وهو يهتف .

— هذا سيف الحارث بن ظالم المرى .. من يشتريه ؟ .. وتأمل الجميع السيف في
يده .. والحيات المرسومة على مقبضه . وانكسروا في حزن .. كيف جرؤ على فعل هذا
إن يستسلم . ويقدم رقبتة دون ثمن .. دون أى ثمن ؟ .. كيف !!



تأبط شراً

الذين يموتون وهم وقوف

اسمه الحقيقي ثابت . لا يوجد له نسب معروف . الأرض الصحراوية القاسية ترفض جذوره وأبوه جابر بن سيفان ينكر نوته . وقبيلته من بني العقيق لم تحسه عليها . . لكنه يستمد نسبه من جذور بعيدة . من كل الطرداء والمفلوظين والباحثين عن العدل المستحيل . ومن المجرمين الشرفاء الذين يقيمون قوانينهم الخاصة حيث اللا قانون . رفاقه هم أوباش الجزيرة العربية وصعاليكها والهاربين من فداحة الثأر والحيوانات الضارية ونسور القمم والجمال المبعدة المطلية بالقار . يضمهم جميعاً حضن الفياق السعرة . لحظات الهرب الدائمة . .

حدثني الكائنات قالت :

قالت الشعابن : طلبت منه أمه العجوز هدية مثلما يفعل بقية أخوته فحملنا تحت أبطنه وألقانا تحت قدميها . فزعت المرأة وهرعت للخارج تستنجد بالجيران . وقال الجميع : لقد تأبط ثابت شراً . وطل الاسم يلاحقه . قالت الغول : هذا الوغد الكالح الوجه طلب أن يعاشرنى . . تقابلنا في وادي رحي طحان بأرض هذيل ودار الصراع بيننا ثلاثة أيام وثلاث ليالى ولم يهزم أحدهما الآخر . تنكرت في هيئة خروف صغير فحملني تحت أبطنه . جعلت أركله طوال الطريق حتى القاني . وقال من شاهده : لقد تأبط شراً . وقال الشيطان : كان ثابت رفيقى وصاحبى . كنا لا نمل من السير سوياً . نتحدث عن النساء الجميلات . والتجار اللصوص الذين يعجبوننى . وذات يوم وصلنا إلى مكان قفر تضع الطيور فيه بيضها على الأرض . قال ثابت : لقد هلكنا هذا المكان لم يمر به بشر من قبل لو كان الشر يعرفون طريقه ما وضعت الطيور بيضها على الأرض . قال الشيطان . وصعدنا كل واحد منا على جبل . رأيت الموت فالتحت إلى ثابت بالسيف . . ورأى هو الحياة فلاح إلى

بالشوب . وافترقنا . لكننى تركت شرى معه . كلما نضج عرق لإبطيه . نضج شرى . قالت الرمال : كنا نرتجف تحت وقع أقدامه . وقالت الخيول : كنا نلهث خلف عدوه . وقالت الطيور : كنا نخشى حدة سهامه . وقالت الطباء . كنا نتقى لحظة جوعه . كان إذا جاع يحول بعينه حتى ينتقى أسمن ظبية فينا ثم ينطلق خلفها . حيثل ندرك أنه لا مهرب . أنه لا بد لاحق بها . وسرعان ما نشاهد رفيقتنا وقد سقطت تعباً بيننا ينقض هو عليها كأن لم يمر قط . . وعندما تحمل الريح رائحة الشواء الرهيبة نتساءل فى حسرة . . متى يأتى دورنا . . ؟ . . ليتنا لا نسمن أبداً : قالت الينابيع العذبة . اننى اتقزز من ملمس جسده الخشن . وقالت الفراشات : انفاسه تحرق أجنتنا . وقال النمل : أننا نحاذر أن نلمس وهو نائم لئلا يسمع دبيب أقدامنا . وقالت حية : نام تأبط شرا ذات ليلة فوق حجرى فتجمدت رعباً حتى الصباح . . وحدثنى كائنات كثيرة لكننى وجدت الحرافة تسود معظم الاحاديث فاستبعدتها . .

حدثنى تأبط شراً قال :

ماذا أفعل ؟ . . الصخور قبيلتى والرمل منفأى . حلمت مرة بالافق فأخذت أعدو إليه . اجتزت القوافل والخيول وكل صنوف الحيوانات . . لكننى سقطت لاهثاً وظل الافق بعيداً . .

ماذا أفعل ؟ . . مات أخى وحملت بالثار . ولم أكن ثرياً فيخشون مالى أو ذا عشيرة فيهابون سطوق . عرفت مبكراً أن زهر الصبار موحش والذئاب جائعة والأبار جافة . ظللت اهيم على وجهى . كل القبائل قبائل . وكل القبائل أعدائى . حين يمضى الجوع أغير عليهم لأنهم قبائل . ويطاردونى بالسهام والرماح ييغون قتل . . لأنهم أعدائى . يكمنون لى وراء الأكمة وحواف العيون . يسكنون عن الحركة ويكتمون انفاسهم . لكننى أضع أذننى على الرمل فأسمع وجيب قلوبهم . والخفقات المترددة ترصدنى . لا أملك إلا الفرار وأنا أتساءل . . لماذا لا أسمع وجيب قلبى كأنه لم يخفق أبداً . . ؟ . . نسيت قبر أخى . دفنت أمى وأنا فى الطراد . وقلت للنسور رافقيني فازدرئى ونأت مرتفعة .

ماذا أفعل ؟ . . أحلت القبائل دمي وأباحت شعرى . كنت أنا الشر وكان شعرى التعويذة . كنت الأذى وكنت الرقية . عشقتنى النساء ووضعن على الوسائد رأسى فى احلامهن لكن ما من واحدة تحملت لمسى . قابلى أعرايى . . قال : كيف تخيف الناس ؟ . . قلت : بأن اذكر اسمى أمامهم . قال . فقط ؟ . . قلت : فقط . قال : هل تبغى اسمك وتأخذ طيلسانى . وقد كان . أخذت الطيلسان الفاخر ومضيت . وأخذ الاعرايى يزعم فى وجوه الناس . أنا تأبط شراً . ولم تمهله السهام المترصدة أن يتم الثانية !

ماذا أفعل ؟ .. الاصدقاء حمقى والاعداء اذكياء . وهذا يضاعف من وحدتى ومن حدة المطاردة . من قال أننى لا أتمنى بيتاً أو أسرة . لكنها الانساب التى لا ترحم والتجار الذين يتاجرون فى الاجساد الحية ، والجوع الذى لا مأوى له ولا وطن ..

حدثنى جثث الاصدقاء القتلى :

الآن نهض من قبورنا . نزع الكفن ونخبط العنكبوت . هذا تأبط شراً يعدو فوق ثرى اجسادنا . وقع أقدامه له نفس وقع لهجته وهو يحدثنا ويغرينا . كنا أصدقاء ورفاق شدته . نعانى جميعاً من الأحلام المجهضة . وعندما تبعنا لمرايض الخيول وأوتاد الجمال كنا نفتنص حقنا الطبيعى فى الحياة . لكن الفخاخ كانت منصوبة والرماح مشرعة . والخيول متوفزة . صاح : اهربوا . فروا . وحاصرتنا الخيل . كان هو أكثرنا سرعة وأمهرنا حيلة . اجتاز التل والشعاب المتوحشة وتساقطنا نحن صرعى . كنا رفاق احلامه وغاراته لكنه فر وحيداً .. أهو العدل حلم فردى ؟ .. ألا يوجد حلم جماعى بالمساواة . هل كان يجبنا . أم يجب نفسه . أم يجب العدل ؟ .. يا رفاق الموت انهضوا . الشمس لا تشرق من القبور . والصبار غير مستساغ الطعم والماء آسن والعظام نخرة والعناكب موحشة والديدان شرهة وشواهد القبور صلبة . وأنت تعدو وحيداً . نقولها لك يا تأبط شراً .. لا أمل .. لا أمل ..

حدثنى جاريته قالت :

قالت صاحباتى ، وقالت كل جوارى الحى .. أنه يهوان .. إننى الشعر الذى يقوله فى اليقظة والحلم الذى يهرف به فى النوم . قلن . إن له قلب طفل وعين نسر وساقى غزال وأن لا أحد يقدر على صرعة إلا عيون الحسان .. خشيت على نفسى من غرام هذا الرجل المفرد .. وفرحت لأن غرامه بى جعلنى أنا أيضاً مفردة .. قالوا لى . قابليه فرفضت . وظللت أرفض ذلك بشدة حتى قابلته .

كانت عين الماء ساكنة ولا أحد يرانا . نظرت إلى وجهه الداكن ولحيته الشعثاء ونظرة عينيه المتألقة فوجبت قلبى . هذا الأدمى الغريب يهوان .. تميت أن يتكلم . يتخدش السكون بأى حرف . ظل صامتاً . تساءلت : هل سيغدر بى .. هل سيفضحنى ؟ .. كان يعانى حتى يتكلم . رأيت حمرة خفيفة تتسلل خلال وجهه الداكن وتغمره كله .. فهمت كل شىء .. كان خجلاً .. والخيل أعجز عن الكلام .. كدت أضحك بصوت

عال . . لم يكن هذا أول من عرفت من الرجال . . لكنه الوحيد الذى صمق بمرأى هكذا .
ولو أننى ضحكت لزاد خجله وفر هارباً .

كان كالحيون الحرون . حاولت ترويضه . قلت . انشدنى شيئاً من الشعر الذى قلته
فى ؟ . . لم يتكلم . قلت . . ماذا تريد منى ؟ . . فعلت ذلك فى صوت ذائب النبرات . .
لكن صوتى لطمه فظل يبخلق فى مذهولاً . أمسكت يده فوجدتها ترتجف . . لا فائدة . .
البطل الذى دوخ كل القبائل داخ من نظرة واحدة . تركته ومضيت . .
مهما كان الأمر فإننا نحتاج من الرجل إلى شىء من الجرأة .

حوار لم يتم :

- يا تأبط شراً . . هل أنت مجرم . . ؟ . .
- ولم لا يسأل أحد لماذا تبدو شمس الصحراء بهذه القسوة . . والأرض بمثل هذا
الجفاف والعصبيات بهذا الوثوق . أننى جزء من طبيعة هذه البيئة الشرسة ممارس قوانين
العرف السائد . يأتى الليل علينا إما أن نقتل . أو نقتل . لا نستند لقانون مكتوب . الأقوى
هو الأكثر تنافساً والأضعف هو الاستثناء وسرعان ما يلفظ دون رحمة . .

- لكنك مجرد فرد . . بصورة أخرى مجرد إرهابى . . إن القبائل حين تتصارع تحكمها
قوانين الحرب . . لكنك لست من قبيلة وليست لك أرض ؟ .

- أنا وحدى قبيلة . اعدو أسرع من خيولهم مجتمعة . وسمعى أدهف من كل
أذاهم . وساعدى أمهرى رمى السهام من كل رمايتهم . وحيث أحلّ تكون أرضى وعليهم
أن يغيروا عليها . أنا لا أخرج عن قوانين البرال . لو شاهدوى نائماً لاسعوى لكننى أنا
كالدئب مفتوح العينين . وهم يغمضون عيونهم ويطفئون نارهم وبدا يحلّ عليهم عقاب
الظلام .

- لكنك بالغ الفسء أنت تقبل حى الأطفال ؟
- أنا أحب الأطفال . أهم السبب الأحصم الوحيد . سبب هذا الفقر . أحب أن يكون
لى أسرة . لكننى وجدت الأرواح طبعين والاماء حائضين . الأطفال هم ثميل يجعلوننا
لا نتمادى فى المعامرة . ولا نلحف فى الرضى . أنا تشغل من أحلهم مع العرف السائد
ونفقد فرديتنا . بمايرى . لكننى أحسهم . ذاب من رأب مدماً نارعا يصطاد الارانب
أردت مداعته فصمق القوس . طهر ندى نادماها . أعطى منه وقتله . لكننى ندمت

بعد ذلك . أدركت أنني دنست الصحراء وأن هابتي قد حانت . حلمت به كثيراً . ورايت صورته تلامق عدوى . كنت موقنا ان ما فعلته لا يغتفر وأن على أن أحمّل العقاب .

- رغم ذلك فأنت شاعر .. ؟ ..

- الشعر هو درعى . وهو خيمتى احتفظ بها فى صدرى . أفرشها على الرمل فتكون أرمى . أرتجل القصيدة فتفجر عيون المياه ويعشوشب الرمل . القوافى قبيلتى . حروفى منحوتة من الشظف . وصورى ملأى بالرعب والخشونة . إنه الثمن الطبيعى لارتفاعى فوق قوانينهم . إن جلوسهم فى البيوت المريحة جعل منهم مجرد رواة يرددون الكلام الطيب ويهزون رؤوسهم فى بلاهة . إنهم أمام شعرى يتحولون إلى عشب مهممل ينتظر الحصاد . . أوروؤوس ماشية تنتظر الرباء . .

- إذا قبضوا عليك هل تعتقد أن القتل هو الجزاء المناسب ؟ ..

- لو أنهم تركونى دون قتل لعاقبتهم جزاء غفلتهم . لا يجب أن يرحم احدا الآخر . قد تكون حياتى قصيرة لكننى سأعيش . لا أحد يستطيع أن يقتل حليماً أو يغتال قطعه من السحاب . ان الآف المعذنين يحفظون أخبارى ويتسقطون شعرى . . ولومت سوف يخرج من بينهم واحد جديد . .

- كيف ستموت يا تأبط شراً .. ؟ ..

- ان ميتى عربية . بل ومثيرة للسخرية . . لعل هناك ضعفا كان كامناً فى لم افطن إليه إلا مؤخراً . . وأنا فى القبر . .

حدثنى أحد الغلمان قال :

اختبأت وراء سياج من العشب وأنا أشاهد تأبط شراً يعير على قومى . . كنا أشبه بالعزل وهو كالريح الهوجاء . . وأنا غلام لم يتعد سنى الخامسة عشر لا أرمى السهام إلا على الارانب . اصيب واحداً ، واخطى عشرة . . لكننى أخذت قومى وسهمى واختبأت . .

كان الرجل الداكن يشد وتره فيشق قلب قومى من الرعب . أبى وأمى وأخوتى ورفاقى . كل الرجال الذين أعرفهم يتدافعون كالمجانين يبعثون عبثاً عن خيولهم أو سيوفهم والرجل الداكن يجذب الوتر ويقيم بينه وبينهم حاجزاً من الجثث . .

رأيت واحداً من أصحابى يموت . صرخت . سمع صرختى التفت . رآنى . تفحصنى بعينه النافذتين . أدركت أنه سوف يقتلنى هذه اللحظة . لكنه بدأ مدهوشاً وهو يتأملنى . أنزل يده المشرعة بالقوس . خيل لى أنه يبتسم . كنت أكره هذه الابتسامة .

وضعت السهم في قوسى وهو مازال يتأملنى . أطلقتته عليه وهو مدهوش خيل لى أن السهم يرتد إذ يلامسه . لكنه نفذ في كتفه اليسرى . بوغت . لم يتوقع أن أفعل هذا فكرت . سوف يرد على . لم يفعل . وضعت سهمى الثانى وأرسلته فغاص في كتفه اليمنى . ظل واقفاً . حاول رفع ذراعيه للرد على لكنه كان قد تأخر . والابتسامة على وجهه كما هى . أرسلت السهم الثالث فغاص في صدره . كنت مندهشاً من دقة تصويبي . رأيت قوماً يقبلون من الخلف في حذر . وهو واقف أمامى حتى ظننته يلعب لعبة ما . وأن سهمى وهما . أطلقت السهم الرابع فغاص في بطنه . ظل واقفاً قلت . سوف يقبل ويقتلنى . أطلقت الخامس على فخذه الأيسر والسادس على فخذه الأيمن وظل واقفاً . أطلقت على وجهه وعلى عضديه وعلى حوصه وعلى قدميه وظل واقفاً . قال لى أبى قديماً أن أحد العرافين المهرة شاهد أثره وقال هذا لا يقدر عليه أحد . أعرف أنى مازلت طملاً ؟ وأن اللعبة أكبر منى . أننى أطلق سهمى بعناد وهو لا يأبه بذلك . فرغت جعبتى أصححت بلا حول . بدأ يتحرك يقبل على . بطيئاً . بطيئاً . يمد ذراعيه المرشقتين بالسهم . وقفت أنا متصلياً . مشلولاً . لا أستطيع الفرار . . وفجأة هوى للأرض . . وأدركت أن البريق الذى كان يتوهج في عينيه . قد انطفأ . .



عروة بن الورد من يملك الكون الرحب . . ؟

وقف عروة بن الورد على حافة الصحراء رأى التلال كالحيوانات الرابضة والنحل
أذرعاً متوسلة . ومضارب الخيام مثل حب الماء ومثل السراب . مد قبضته والقى آخر ما في
جمعته من سهام . وآخر ما في كيسه من نقود . وآخر ما في قربته من قطرات الماء . فإنشق
الرمل عن زهور برية رائعة الألوان وبساتين شيطانية وعشب بصر الحضرة

قال أبو الفرج الاصهاني متوسلاً
- تمهل قليلاً يا عروة . حتى اكتب قصة حياتك

لكها سنوات الجوع واشعار الصخر والانتساب لا تشبع حائماً ولا تشفى مريضاً
«وعطفان» مثل كل القبائل - ومثل كل البشر - فيها الجوعى وفيها المتحمون . ولكى تكون
القسمة عادلة لا بد من جراحة بالسيف والشعر دم القلب . تحمل أبياته كل العداوات
وكل التوق الانسانى للحب والتواصل

أخرج أبو الفرج أوراقه . وضع ريشته في المحرة . قال .
- اجلس قليلاً اذكر نسبك وقص على أخبارك أنت لست مسئولاً عن كل
هموم الصحراء . .

الصحراء في الصدر . ذب وتعوذته . الصعاليك هم نباتات الصبار بين فحاجها .
عندما يظهرون يصحون قبيلته . ويصبحون سبه . ويصبح هو مجرد عروة
الصعاليك .

تمهل بالجواد قليلاً . . أخذ يتكلم بينما أبو الفرج يدون بسرعة :
- أنا عروة بن الورد بن عمرو بن قطيعة بن عبس بن بغيص بن غطفان بن مضر بن
نزار . .

وقبل أن يتم سلسلة الانساب . تعالت من خلف التلال المحيطة بهما أصوات
الاستغاثة . خرجت جموع من الناس . فقراء ومرضى وشيوخ وأرامل وأطفال يتامى . .
اسمال رثه وعيون غائرة . . زعقوا بصوت واحد :

- يا عروة . . يا أبا الصعاليك أغثنا . . .

لم يسألهم ماذا ألم بهم ؟ . . كان يعرف رائحة الجوع حين تتكاثر وتختلط بالعرق
الإنسان والرمل وشمس الصحراء القاسية . . حين تصبح سحابة قاحلة . . يعرف بريق
العيون والتوهج الأخير قبل الإنطفاء . والأطفال يزمون أفواههم وقد عجزوا عن ترف
البكاء والإلحاح . هذه نذر سنوات الجوع والصحراء لا ترحم الضعيف . . قال لهم :

- تعالوا معي . .

تحركت قبيلته البائسة خلفه . ذهبوا لواد منعزل . أحضروا سعف النخل والجريد
واقاموا أكواخاً صغيرة للمرضى والنساء . تفرس عروة في الباقيين الذين لم يهدمهم الجوع ؛
كان عليهم أن يواجهوا معاً مصيرهم . . أصدر أوامره . .

- هيا معي . سوف نغزوا سويا . .

والصحراء الممتدة تحمل وعود الشيع ونذر الموت . ولا يوجد بين التلال المتراصة إلا
طريق واحد يختاره البشر والضباع . حتى أن عروة يحس بنفس حدة الجوع التي يحسون بها .
ينزع قشرة السيادة ويرتعد الصعلوك الرابض في داخله من النسوة . إن ثمة خطأ في
التقسيم . وعليه كل حين من الزمن أن يعيد الأمور إلى نصابها . وفق قانون المباغنة الذي لا
تعترف الصحراء إلا به . .

ومثلما كان عروة يشم رائحة الجوع . إشتتم رائحة التخمة . خلف التلال كانت هناك
قبيلة نائمة . ونار مظفأة . وأبل تجتر شمس النهار الفاتت . زعق فيهم . اهجموا ياكل
فقراء البادية . ياكل الصعاليك . . ويكل شراسة الجوع . بكل غريزة البقاء هجموا .
فوجيء سادة الأبل - الذين كانوا يعانون من كوابيس سوء الهضم - بالهجوم ، استيقظوا
فزعين . هربوا وهم يهزون كروشهم . وتركوا الأبل غنيمة سهلة . لمحو عروة ؛ بريق
سيفه وشارة عمامته وهو يصلو فوق جواده . يصرع من يتعرض له .

سألوه نفس السؤال :

- يا عروة . . أنت سيد مثلنا . . كيف تساعد الصعاليك على نهبنا ؟ . .

لم يرد عروة عليهم . لن يمهوا الاحاة أبدا . كانت سيوف الجوعى لا تنتظر
عادوا بالغنائم . حيث المرضى والشيخ والنساء . أوقدوا نار الفرج العظيمة . وعروة
يقسم الغنائم . كل واحد له نصيبه حتى الشيخ والمرضى . انقضت رائحة الجوع
الثقيلة . وتلونت السنة اللهب بقطرات الدهن المتساقط من الشواء . وإنتعش الليل
بأغنيات الحب . . وهز عروة رأسه في سعادة وهو يقول لأبي الفرج :
- عندما أشاهد نارهم أرحل في الحلم . أغنياتهم التلقائية البسيطة توقد داخل كل
جدوات الشعر وكل الصبايات القديمة . .

هتف أبو الفرج معترصاً :
- لكن ما أكثر الفقراء وما أكثر الأوغاد فيهم . إن شرور العالم لن تنهيا غزواتك
المفاحشة . . والمحدودة . .

— إن علينا أن نحاول فقط . لا نياس ولا نستسلم . هكذا تحتم علينا شهوة الحياة
العارمة . نيرانها تتقد بداخله أشد سطوعاً من نيران القبائل الكبيرة . يمتص وحشة
الصحراء وضراوتها ويجوؤها إلى شعر متألق . ويزرع شوقاً لا يهدأ في صدور النساء . .
الصعلوك لا يمتلك شيئاً . لذا لا تتأثره شهوات التملك . ولا تؤرق ليله أحلام الأنانية .
توحده الصعلكة مع ريح الفجر وحذاء القوافل وهمسات العشاق على حواف العيون . .
حتى أنه يهب كل ما يملك . . يهب . . يهب . . ويب . . ولا يظفر إلا شهوة الحياة
المتدفقة . .

يبلل أبو الفرج أطراف ريشته ويكتب :

- من قال أن حاتم الطائي أكرم الناس فقد ظلم عروة بن الورد .
لكنه ذات مرة حاول أن يمتلك . أمنية . قطعة من السحب . يمتلك روضة
وبيتاً وأطفالاً . في إحدى المرات أغار على قبيلة «مزينة» . فاجأتهم الظلمة مصرحات
الجوع تركوا إبلهم ونساءهم وفروا . أقبل الصعاليك على الغنائم . وقف عروة أمام امرأة
وحيدة في حيمة منفردة . رأى عينيها الواسعتين . عينا لها الشاردة . ووجهها الوديع
واسدال شعرها تحت الحمار :

- ما اسمك ؟

قالت : سلمى . .

سارت خلفه أسيرة . لم تقاومه . لكنها ظلت مترفعة لم تنحدر إلى مستوى السى
وكلما التفت إليها رمقته بنفس العينين المتوثبتين دون أن توليه أى اهتمام .

جلسوا يقتسمون الغنائم . قسموا الابل والثياب والجواهر . قال عروة . هذه المرأة

لى . وفوجىء بالصعاليك يقولون . . كلا . بل تقسم مثل غيرها من المتاع ومن شاء أخذها فليأخذها . وذهل عروة .

هتف أبو الفرج فى حق مبالغ :

- الم أقل لك . . إنهم أوغاد . . لماذا لم تهو عليهم بسيفك ؟ . .

مد عروة يده وأمسك سيفه . تأمل وجوههم التى كانت تنقلص من الجوع وأصبحت الآن تنقلص من السطمع . تذكر أنهم صنيعة . هو الذى جمعهم وصنع منهم قبيلته الصغيرة أدرك فيها يشبه لمحة البرق أنه قد وقع فى خطئه الأول . إن رغبة التملك قاذته إلى ذلك إما أن تمتلك أو تكون صعلوكاً . . قال :

- هانذا أتركها لمن يريد وإن شئت فإفديتها بناقتي

وتسربت المראה خلال نبرات صوته . ولابد أن الصعاليك قد شعروا بهذا أيضاً ؛ أخذوا الناقة وتركوه والمرأة . وحيدى فى الصحراء . مد يده ولس شعرها فانتفضت . . قال . .

- لا تخافى . لن تكونى أمه . سوف تكونين زوجتى . لا أستطيع أن أمتلك شيئاً . وسارا معاً . توالى أيام . جفت آبار وتفتحت عيون وطمر الرمل واحات نائية . وعاش عروة بن الورد بين ذراعى سلمى . مهما تباعدت الغزوات وطالت مشقة السفر . . فهو يعود إليها .

يركض عروة على صدر الصحراء . الرمل حضض دافئ رطب . والسماء زمردة بعيدة المثال . يستغيث به الصعاليك من حدة الشتاء ومن قيظ الصيف . كان معه ناقتان . ذبيح واحدة وحمل مرضاهم على الأخرى وسار إلى مضاجع المتخمين . كان ينفذ عن نفسه رماد الحياة الزوجية الراغبة . فى الخلاء قابله أحد الضعفاء يشكو ظلم قبيلته أعطاه سيفه وخلع عليه طيلسانه . ورأى امرأة طاعنة فى العمر مقطوعة الولد . أعطاه آخر ناقة يملكها . وكانت الشمس رغيماً ساخناً تتطلع للفقراء من فوق قمم الجبال وتدفع داخله الشعور بأنها - هى أيضاً - يجب أن تقسم بالعدل . شكى أحد العشاق المولهن من أن حبيبته لا تأبه به . ألف له قصيدة وطلب منه أن ينسبها لنفسه ويلقيها على اسماعها . رأى القبائل تنأهب للحرب من أجل ثار قديم فدفعت دية القتلى . وظل وقع سنابكه يدق صدر الصحراء مثل وجيب القلب . يضع زهوراً على حافة الآبار ويرثى موت الصعاليك . وينبت العشب الأخضر فى رماد النيران المطفأة ويطير الحب قبلاً على وجنات الصبايا . يرقص رقصة الشيع والدفع . نموذج رائع لأعظم ما يكون صفاء الإنسانى رغم جروح أظافر الأصدقاء . وأسوار الانانية . ورغبة التملك الشرسة . والتخمة والجشع . رغم كل هذا . كان صدره سمحاً كمتداد الصحراء . معتداً كالقمم . صبوراً كزهر الصخر . فرحاً بكل الأطفال لحظة الولادة . وبالبراعم لحظة التفتت . وبكل العشاق حين يتبادلون قبله

مغتلسة . وبالجوعى حين يقدحون بيران الشواء ويصعدون ريح الشيع كان عاشقاً لكل أنواع البهجة الانسانية . وكانت عينا سلمى سوداوين وعيون المها حوراء وريح الصب عذبة ..

قال أبو الفرج وهو يفر غضباً ويلقى ريشته :

- هذا جنون لقد ترجمت للكثيرين . صمالك . ملوك . فرسان شعراء .
لم أر من هو أضعف من النفس الانسانية . أنها مفعمة بالشهوات مثل مستنقع ملء بالديدان أعرف هذا جيداً ..

لكن عروة القى زهرة لسحابة عابرة فأمرت . حمل زوجته على راحلته وسارا .
قالت : وإلى أين تأخذنى يا عروة ؟ قال : إلى حيث شئت كل البلاد بلادى . قالت :
لو أخذتني إلى أهل فأراهم ويروني قال : أما هذه فلا أستطيع . قالت : خذنى إذن إلى بلاد
بنى النضير . قهقه ضاحكاً : هؤلاء اليهود بقلانسهم السوداء الطويلة وضحكاتهم الخافتة
الماكرة .. ما أشد شوقى إليهم ..

كانت سلمى تضرمر أمراً .. والناقة تحث الخطى عبر الوديان والبوادي إلى بلاد بنى
النضير . ثم تجوس خلال بيوتهم الواطئة وطرقاتهم الضيقة الملتوية . وأصوات المزامير وهى
تتعالى من المعابد . والقلانس السوداء تكشف عن الوجوه اليهودية الشاحبة . واللحى
الرفيعة المسترسلة . أخذوا عروة بالاحضان .. لم يكن ثمة من يجهره . انزلوا سلمى من
هودجها . ذهب هو مع الرجال . وبقيت هى فى خيام النساء . كانت سلمى تعرف ما بين
أهلها وبنى النضير من صلات وثيقة . تجارة وزيجات وتحالف . طلبت من النساء أن
يستدعين أزواجهن وبعض وجوه القوم وقالت لهم ..

- أنتم تعرفون نسبى . وأن عروة خارج بى قبل أن يخرج الشهر الحرام . أخبروه
انكم تستحون أن تكون امرأة معروفة بالنسب منكم سبية . وافتدوا منه فإنه يحسب أننى لا
أفارقه ولا أختار عليه أحداً ..

قالوا :

- لكنه سيرفض . لقد عشتما معاً عشر سنين ولك منه أولاد ..
- إنه أكرم الناس . وهو يهب أى شىء حين يكون متيقظاً . فما بالكم لو كان
مغموراً ..

وفى حانة بنى النضير كان عروة يشرب ويضحك ويتحدث . كيف يمتطى الخيول
ويسوق الأبل . يتحدث عن السحب والزهور والنجوم الصغيرة الملونة التى يعثر عليها
مطمورة فى الرمل . ويهود بنى النضير يتضاحكون فى خفوت ويراقبونه وهو يشرب الكأس

الأول قالوا . أنت شريف برومك ونسبك ينتمى لمعر وهو أشرف العرب فلماذا تصاحب الصعاليك ؟ وقال : عندما تخرج السيوف الصعاليك فإن دمهم الذى يسيل يشبه دمي . . وبحس نفس درجة الألم . وفي الليل نحلم نفس الأحلام . وراقبوه وهو يشرب الكأس الثان قالوا . يا عروة . أنت لا تحصل على أى فائدة من ورائهم . أنت فقط تثير عداء أشراف القبائل ضدك . قال : أنا لست يهودياً مثلكم : كل مساء لآوى إلى فراشى قبل أن أحصى أرباحى وخسائرى . ولسن صيرفيا فى طريق القوافل . أننى أحط ترحالى حيث تكون الحياة : يجب ان يتمتع بها الجميع وصحكوا فى صوت خافت وهو يشرب الكأس الثالث والرابع قالوا . . يا عروة . . لكنك سنموت ذات يوم ولن تخلف لأولادك شيئاً . قال . . بل أترك لهم هذا الكون الواسع الممتد . لم أملك شيئاً ولم يملكنى شيء . فتحت لى الريح صدرها . ودثرتنى الصحراء بعباءتها ووهبى الليل أحمل الأحلام . . إننى أترك لهم شعرى . إرث دائم لا يستهلك . . كان قد شرب حتى إنتشى وإتسع قلبه ليشمل الكون وحانت لحظة المساومة الخاسرة . تقدم كبير بنى النضير . كان شيخاً مهيباً لولا تلك القلسوة الطويلة المضحكة التى يلبسها ، قال :

- يا عروة هل تهب أى شيء . . ؟ . .

قال عروة . . أى شيء مادمت أملكه . . ؟ .

قال الرجل . إعطنا زوجتك . قال عروة فى دهشة . . ماذا . . ؟ قال الرجل بهدوء ومكر . .

- ان زوجتك معروفة السبب فىنا . نحن نخالط قبيلتها ولهم علينا حق الجوار . وبيننا أصهار وأقارب . وإن علينا الآن سه لأنها سبية عندك . . فإذا صارت إلينا وأردت ان تخطبها زوجاك إياها . .

قال وهو يشعر برأسه تدور : لكنها زوجتى . أم أطفالى لا أستطيع قالوا : أنت الذى نتاهى سماحتك تتراجع فى نفس اللحظة ؟ تذكر سلمى . تذكر رفاقه الصعاليك . قال .

- لى شرط واحد . أن تخيروها إن احتارتنى وولدها ذهبت معى وإذا اختارتكم ذهبت لأهلها .

قال الرجل بسرعة . . ذاك لك . .

وفى العد ساروا إليها . وقفت سلمى وسط جمع الرجال من ناحية وعروة من الورد من الساحية الأخرى . وبدت وجوه بنى النضير مثل غربان تتحفز للانقضاض . تقدم كبيرهم . قال .

- يا سلمى . . لقد وهنا زوجك لنا على شرط . .

قالت بهدوء وهى تتحاشى النظر إليه : أى شرط ؟
- أن يكون لك الخيار . أن تختارى عروة وولدت فتذهبين معه . أو تختارى أهلك
فتمصين إليهم . .

صمتت المرأة برهة . وفكر عروة بغته إنها لن تختارى . قالت . .

- فأننا أختار أهلى . .

ورغم سابق توقعه فقد أذهلته الكلمات وهى تخرج من بين شفتيها وأذهلته أيضاً تلك
الانتسامة المتواطئة على وجوه بنى النضير . صاح أبو الفرج نائراً .

- ألم أقل لك . كل النساء خائنات . .

وفكر عروة . حتى هى تخدعنى بعد عشر سنين كاملة
وقفت المرأة أمامه قالت بصوت سمعه الجميع .

- يا عروة والله ما أعلم امرأة من العرب ألفت سترها على فعل خير منك . أعض
طرفاً وأقل فحشاً . . وأجود يداً . ولكن ما مر على يوم منذ كنت عندك إلا والموت أحب إلى
من الحياة بين قومك لأنى لم أكن أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول . . قالت أمة عروة
كذا وكذا . . إلا وسمعتة والله لا أنظر فى وجه غطفانية أندأ . فإرجع راشداً إلى والدك
وأحسن إليهم . . وترقب حتى تنسيك الأيام ما كان من أمرنا

تأوة عروة كالمطعون سار عبر الدروب الملتوية والبيد الموحشة يهذى بالشعر
والندم . كان يتذكر بى النضير ، يرى أطراف أنوفهم المدسة . يسمع الزامير ويحس بوطة
الخدعية . . سلمى . . واليهود . . والسنوات الحائرة . هل كنت مخطئاً فى كل ما
فعلت . . فى كل ما عشت ؟ كل أشعارى هباء . والصحراء ضيقة كطرقات بى النضير
والشمس سوداء بلون القلائس والآبار مرة ، وسلمى بعيدة كأنها لم تكن ذات يوم .
والصعاليك يغرزون أطافهم فى جلده والعشاق يدبحون على حواف العيون وسط الفلاة
صرخ كالحيوان الجريح :

- سلمى لماذا فعلت بى هذا . ؟

وتبدد الصدى دون إجابة . . قال أبو الفرج .

- لعلك قد تعلمت من قسوة الدرس . فإذا جاءت سنوات الجوع وإستعات
الصعاليك فلا تجب . . أنت شريف وهم صعاليك .

ترك عروة ناقته وضرب كفلهما . ظلت تحب حتى اختفت . كان فيها بعض من
رائحتها . . وهو يتمنى أن يولد من جديد . لعل هناك أرضاً لم يطأها بشر . وظل يركب

الجواد ويضرب صدر الصحراء . . وتوقف أبو الفرج في ظل صخرة يبلل أطراف ريشته ويكتب حتى أقبل عروة فصاح به :

- توقف يا عروة . . لقد انتهت مهمتي . .

قال عروة . . أى مهمة . . ؟ . .

أشار أبو الفرج إلى كومة من الأوراق كان يحفظها بحرص واضح . .

- لقد دونت نسبك . . وكتبت تاريخك وأخبارك وكل الاسانيد الصحيحة . سجلت

أشعارك ومآثرك وبهذه الأوراق سوف يحفظ لك التاريخ أجمل الصور . . يا عروة إن عمرك كله في هذه الأوراق . . خذها وكن حريصاً عليها . .

تناول عروة لفة الأوراق . إحتضنها كأنما استعاد نفسه أخيراً . لكز الجواد وإبتعد . وحميف الأوراق إذ يمتك بصدرة كأنه همس امرأة . وفي منتصف الطريق رأى شخصاً ما . صعلوك بئس . لا يرتدى من الثياب إلا ما يستر عورته . وقف في طريق الجواد وهو يهنب :

- يا عروة . يا أبا الصعاليك . . أغثنا . .

لوى عروة عنان الجواد وتوقف . . قال .

- ماذا بك ؟ . .

قال الصعلوك :

- بردان يا عروة . . بردان حتى النخاع . .

ودون أن يفكر عروة ألقى إليه بلفافة الأوراق وهو يقول . .

- خذها . . اشعلها وتدفاً على نارها . .

وإنطلق عروة بن الورد نحواده . .



النابعة . المنخل . المتجردن .

الصداقة . الحب . الموت

بينما كان أبو المرحج الاصفهاني تائها في عرض الصحراء مر به فارسان لم ير أحمل معها
حلال تجواله الطويل . ولما كان في أرى المرحج - كعادة كل الفانيين - نقطة ضعف أمام
الوجه الحسن فقد أوقفهما وهو يتساءل .

- أيها الفارسان الحميلان .. انتسا ؟
توقفا قال الأول ..

- أنا النابعة الدبياني واسمى رياس معاوية بن عيظ من بني دبيان
قال أبو المرحج .. فأنت أشعر أهل زمانك ..
والتفت للفارس الآخر يسأله .. فقال ..

- أنا المنخل بن عبيد بن عامر اليشكري
قال أبو المرحج .. فأنت أجمل أهل زمانك . إلى أين تمصيان ؟
قالا . إلى بلاط النعمان بن المنذر ملك الحيرة ..
قال أبو المرحج .

- ان الشعر روح الصحراء اللافة تشرد قوافيه كالجياذ العصية . وعندما غمسه
رياح بلاط الملوك يصبح رخواً متزلزلاً أما الصداقة فهي نبض ليالى الخوف والخطر
المشترك . وعندما تحتضنها الحاشية يصبح الود وقية . واسداء الصبح دسيسة

قالا معاً . أنت لست من أهل زماننا ولا تعرف معادن الرجال
ومصيا قالوا لبعضهما البعض . هذا عجز مخرف كربه الرائحة والملا طويار

الصحراء إذ نام أحدهما أقام الآخر الليل يحرسه . وإذا وصلا لبئر أصر كل منهما على أن يشرب قبل الآخر خشية أن يكون مسموماً . وإذا رددوا بيتاً من الشعر لم يدريا من قائله . كيف جئت يا منخل من بني يشكر . وجئت يا نابعة من بني ذبيان وتجمعتما تحت عباءة الريح عبر كل هذه الفياق ؟ رجلان حقيقان إذا سارا وإذا غزيا وإذا عشقا . وعندما مستهما ريح الطموح ، رحلا سوياً . . وأكد أبو الفرج لنفسه . .

- لكنها مخطئان . النعمان بن المنذر . أحمر أبرص . قصير . دميم . وهما كنصفي القمر كيف يطيقهما في مجلسه . .
وعندما وصلا لديار «الحيرة» . أدركا أنها وصلا لأرض الغربة فتعاهدا بالدم . وبلقعات الخبز وحرعات الماء وساعات السهر وذهبا لقصر الملك . ووقف النابغة منشداً . .

أتيتك عارياً . . خلقتناي . .

على خوف تظن بي الظنون . .

ورأيا النعمان على عرشه . . دميماً كما لا يتصور أحد . وشعره الأحمر يصفى قبحاً مضاعفاً على التاج . . يغافل الحاشية حتى يحك جلده الأبرص . . وهمس المنخل . .

طوال عمري لم أر ضفدعة تتحلل بكل هذا القدر من الذهب والجوهر .

وصفتي النعمان طرباً . . وهتف . .

- هذان صديقان من الصحراء . شاعران يسبحان بحمدي . دقوا الدفوف ومدوا الموائد .

وكان أبو الفرج قادماً من الصحراء فرأى القصر مزداناً بالأنوار والموائد ممدودة . حاول الدخول فأوقفه الحرس . قالوا .

- الملك مشغول . عد بعد عام . .

سأل عن هذه الأنوار . قالوا . شاعران يقولان مدحاً في الملك . قال مدهوشاً . . يا إلهي . لقد هوى سريعاً .

ونفضت المتجردة زوجة الملك النعمان من حمامها المعطر ، سألت عن سبب دوى الدفوف . قالوا : شاعران انضبا لبلاط الملك قالت بسأم . عجوزان أبلهان آخران انضبا لبقية عجائز الحاشية . التفت في علالتها وسارت . كانت تكره القصر والجواري والخدم والعبيد وتجههم الحراس وبعمرة الحرير وبلخ العطور . عصفورة مقرورة في قفص من ذهب . جاء إليها العرش هدية ملوثة لم تسع إليها . كانت زوجة لابن عمها «حلم» أحد أقارب المنذر بن ماء السماء . لا تهوى سوى أمنيات الحياة البسيطة . وذات يوم زار الملك المنذر منزلها . وآها . من ؟ قالت . . أنا المتحددة . زوجة «حلم» .

طل يحدق فيها وعندما حاء زوجها جلس إليه . وكل الامسيات يريد في تقريه ويجعله كاتم سره وعلى مائدة الشراب أحد المدر يمرح شرابه بالماء ويقدم الشراب صبراً «لحلم» ثم قال له

- يا حلم إنه لقبيح بالرحل أن يقيم على المرأة زماناً طويلاً حتى لا يبقى في رأسه ولا لحيته شعرة بيضاء إلا وعرفتها فهل لك أن تطلق امرأتك «المتحرده» واطلق أنا امرأتى «سلمى»

ولأن كل الآراء في رأس المحمور تكون صائبة فقد وافق وأحد كل مهها عهداً على صاحبه وفي الصباح طلق «لحلم» المتحرده وطلق المدر روحته سلمى وأم ولى عهده العمان ثم أسرع بالرواح من المتجرده بيما حرم على سلمى الرواح من غيره

انتقلت المتحرده إلى بيت المدر وهى تعانى من مرارة الخدعة . وكان المدر عحوراً . ودات صباح استيقظت فوجدته ميتاً فلم تشعر بأى حزن ولم ترتد أى سواد وداعتها أسام العتق والحرية لكن العمان بن المدر وقف على ناهها كانت حرة من أرث والده نحاب القصر والعرش والخيرة لم يكن هناك أمل في الخلاص . حتى «لحلم» فقد عقله وتاه في الصحراء وأصبحت دروب القصر شبكة متداخلة وسيوف الحراس ناترة .

تحولت عينا المخل القلقتان . الرطوبة تبعث من كل ركن . رجال الحاشية . يقعون مسحين كالوم العجور في الصحراء يموت الرجال وقوفاً كالنخل . والشمس تشعل الرغبة والحنون . لكن القصر والاروقة الطويلة الخالية لا تحمل سوى الكآبة رغم بريق الذهب والموائد الحافلة والدفوف العالية وكل الأشياء التى تعلق للجميع أن ندامى الملك عاية في السعادة

إستكملت المتحرده رينتها تساءلت في حسرة ما جدوى العطر؟ دخلت وصيفتها قالت الحاشية كلها محتمة . قالت لملل . أعرف كل عمائر الخيرة قالت الوصيعة أمها ليسا عجوزين يا مولاتى . وليسا من الخيرة أيضاً نهضت في تناقل لمجرد أن تعبر من كآنة الحجر . تطلعت من خلف الستر . من نافذة علوية فوق العرش ألقت نظرة سريعة . لكنها توقفت لم يكونا عحورين حقاً لم يكونا من الخيره لم يكونا أحمرين . قصيرين دميمين أرسين . كانا رجلين فيها سمرة الصحراء . وكمل صوت الشهاب همست الجارية فزعة

- لا تحركى الستر يا مولاتى حتى لا يراك أحد . . قال المخل . أنظر يا ذباى . هذا الستر يتحرك . لقد رأيت خلفه عينين كأنها

نجمتان بعيدتان . إرتعد النابغة وهو يهتف : لو نظرت هناك مرة أخرى لكأت نهايتنا . .

هلل النعمان إنسحبت الرقصات . طلب منها أن يقول شعراً في مجده وجاهه أحد النابغة يرتجل والمخل يرقب حركة الستر . شعرت المتجردة بالاشمئزاز وهي سسمع ضحكات النعمان . لكن عينيها ظلتا عالقتين بعيني المنخل والجارية تتوسل إليها أن ينصرفا . . وقال الملك . .

- عدأً سخرج للصيد . . منذ الآن ندماي ندمائي وخير خلصائي . .
خلع عليهما الذهب والثياب . وللمرة الأولى فكر المنخل . لقد أعطى النابغة أكثر منى . ورفع أبو الفرج كأسه تحية لكل ندامى الحيرة وهو يهتف . .
- يا أصدقائي . رمل الصحراء هو مقياس الصدق الوحيد . إنه لا يساوى شيئاً ولا يثير طمع أحد . .

وباتوا يجلمون . كان النابغة يجلم بسوق عكاظ . . وقد غدا أعظم شعراء العرب يجلس في صدر موكب التحكيم . وشعراء القبائل يسعون إليه . يضعون قصائدهم على أعتابه وينتظرون حكمه . كلمته تعنى مولد شاعر . أو موت شاعر . . والمنخل يجلم بحركة الستر . والعينان النجمتان تشعان في صدره . يرفع الستر فيغوص في بحر من عطر الشام . والمتجردة تجلم بالصحراء . أغلقت باب حجرتها . قالت إنها متعبة . وأطفال كل الشموع ورأت القمر مثل امرأة وحيدة تشكو الهجر . النعمان يجلم بالقبائل وهي تردد القصائد التي قيلت فيه بالكلمات وهي تطرق اسماع كسرى ملك الفرس فتولد داخله الحسرة

. . ولم يستطع أبو الفرج أن يجلم لأنه قضى الليل في الشارع . صاحب الخان سلبه كل نقوده وألقى به للرصيف . فقط تمنى أن يؤلف كتاباً ضخماً يبيعه بثمان عال .
وفي الصباح رأتهما المتجردة يستعدان للصيد وعند الظهر رأتهما حول مائدة الغداء . وفي المساء رأتهما في مجلس الطرب . أصابها ما يشبه الهوس . وعينا المنخل تلاحقها . . تتمنى أن تكون جارية صغيرة بعيدة عن عين الملك . والحرس والوشاة . .

ودات مرة كشفت عن وجهها لمدة وجيزة . كانت خلف الستر ، ورأت عينا المنخل تتطلعان نحوها فمدت يدها ببطء وكشفت له عن وجهها . أعطته نظرة طويلة متألقة مليئة بالرغبة . وركض قلب المنخل خوفاً وهو يهمس لنفسه :

- إنها هي
وقررت المتجردة أن تبحث إليه برسالة . . هتمت وصيفتها . . مولاتي . . هذا حيون .
قال الدجق أفصل
بوسلت إليه رسالة . . ثم حمل الرسالة ذاتها تحمل حمر البار . . عندما عاد

إليها سألتها في لهفة بالغة : هل أعطيت الرسالة : قالت : أجل يا مولاي . قالت هل رآك أحد ؟ نفت الحارية ذلك . إن أحداً لم يرها بالفعل . لكن الوصيصة لم تعط الرسالة للمنخل . . إن الذي أخذ الرسالة كان النابغة . .

جلس وحيداً وفتح الرسالة . وشهق . المتجردة تدعوه . أهى خدعة . . أم اختبار للثقة . . ماذا يفعل . . هل يقول للمنخل ؟ . . إنه صديقه الوحيد في هذه المدينة . . صحيح إنه تغير في الأونة الأخيرة لكنه مازال رفيق الصحراء وبينهما عهد الدم . . هل يذهب للمتجردة . . أم يتناسى الأمر كان وحيداً . وجد النعمان قد خرج للصيد والستائر مرخية والأروقة خالية .

وأحس أنه كالمنوم يجتاز الأجنحة ويدخل الحجرة . . بحر من عطر وحرير . . واللوان ناعمة تسلبه كل إرادة ، يدفع باباً خلف باب . . الحجرات خالية والأروقة والأسرة دفع الباب الأخير . وجد المتجردة أمامه توقف مبهوراً كانت في حمامها عارية تماماً وجسدها الأبيض يشع وهجاً كحد السيف وحرقة الرعب التفتت في فزع . مدت يديها تحفى نصفها السفلى تحاول أن تتقية . . همهم . .

- أنا النابغة . . اتذكرين . . الرسالة . .
تمتت في حنق وغضب :

- أخرج وإلا قطع الحرس رأسك . .
ردد نفس الكلمات وهو غير فاهم . حاول الاقتراب . لكنها صرخت أخرج أيها الكلب

جاءت الجوارى مسرعات . ودثرها .
ودفع النابغة . وخرج وهو يتساءل . لماذا أرسلت الرسالة إذن ؟ لم يكن قد رأى امرأة بهذا الجمال . ولا جسداً بهذا البهاء حتى وهي تسبه وتطرده من أمامها .

عاد النعمان من الصيد لم تقل المتجردة شيئاً فقط أدركت أن الرسالة قد أخطأت طريقها وظل طيف المنخل أمامها . تتحين الفرص الاتصال به . . وعندما طلب النعمان من النابغة أن يقول شعراً لم ينبس ببيت واحد . ورأى الستر يتحرك . ورأى وجه المنخل يشرب . والعينين الحممتين اللتين أصبح يعرفهما . . والاختلاجات السريعة على وجه المنخل . شعر بالحسرة تأكل قلبه . . تمهى . لو أنني لم أعادر الصحراء . .

وفي اليوم التالي . رأى نفس الوصيصة لكنها أصبحت تعرف طريقها . ورأى المنخل عندما غاب عن مجلس النعمان . وعندما عاد مرتبكاً . وفكر فيما يشبه الومضة . ترى هل كنت غير مقصود بالرسالة . . ؟ . . والمنخل يتسم كأنه يحلم . والستر يهتز وديدان

البرص تسير على الابسطة وتهبط درج العرش .. وبينما هما عائدان وقف في مواجهة المنخل فجأة .. وقال ..

- يا منخل .. هل تعشق المتجردة ؟

بوغت المنخل : أنت مجنون ..

وتركا بعضهما . أدركا أن كلا منهما قد فضح سر الآخر . وأن ما بينهما قد أفسدته برودة القصر وعطايا الملك . فكر النابغة : يجب أن نفترق ، وفكر المنخل : لا أستطيع أن أترك القصر .. وفكرا سوياً : سوف يكون القتل أهون عقاب يوقعه النعمان بهما .

وعندما هطلت الأمطار وتماسكت الغيوم فوق الحيرة استطاع المنخل أن يلتقي بها . أخبرته كيف تزوجت المنذر وكيف ورثها النعمان ثم كيف أحبه هو من اللحظة الأولى . وكيف أخطأت رسالتها الأولى طريقها إليه وفسد ما بين المنخل والنابغة تماماً وأصبح وجودهما في القصر معاً مستحيلاً ..

كان المنخل يواصل التردد على القصر ومنادمة الملك .. بينما كان النابغة يتباعد . يحاول الا يفتح الجروح القديمة . وفي إحدى المجالس .. همس المنخل في أذن الملك .. دع النابغة يقول شعراً في المتجردة .. ربما حرك فيها هذا الشعر شيئاً ناحيتك ..

أمره النعمان بصوت حازم ..

- قل شعراً في المتجردة ..

نظر النابغة حوله كالمستغيث ..

- لا أستطيع الآن يا مولاي .. أننى أعاني من نضوب قريحتي ..

لكن النعمان كرر بنفس الحدة : قل شعراً في المتجردة ..

وصمت النابغة . ثم بدأ يقول الشعر متردداً : أمس آل مية رائح أو مغتدى .. لكن الشعر عندما يتدفق يفتح كل الجروح القديمة . يوقظ كل الصوات وكل الامنيات المكتومة وكل أحزان القلب المتعب . رأى النابغة المتجردة أمامه عاربه غامماً كانت الشمس تشع من خلف جلدها .. لم يعد يرى المحل ولا النعمان ولا الحاشية وعندما أفاق وجد العيون تحرق فيه شدرأ والنعمان يتنفس في عصب ، والمحل يستسم في حث والحاشية مبهوثة . وظل الصمت ثقيلاً

انتفض النعمان . ضرب الارض بصوخلحانه أمر بعض المجلس وسار الباعه مرتعشاً كشف بسمه وفصح الشعر وانصرف المدحجاء وحق انصاره وهمس «عذب» جلاد الملك في أذن الباعه .

- اننى أعرف نظرة الملك عندما يتنوى القتل . . ولن يمر الليل عليك . .
قال النابغة فى عجز : وماذا أفعل . . ؟ . . قال الحاجب : إهرب . .

وعندما داهم حراس الملك بيت النابغة لم يجدوا إلا بقايا متاع قديم . . والصحراء التى جاءت به تحمله وتلقيه بعيداً . لعله يفلت من أظافر النعمان الطويلة . وأصبح المنخل وحيداً . ودروب القصر مفتوحة أمامه . لم يعد يفارق المتجرده . كان النعمان يحس بالمتجرده وهى تزداد جمالاً يوماً بعد يوم . وتغدو أكثر مرحاً . كان يشعر بالحنق لأن النابغة قد أفلتت من يده وكانت المتجرده تتمنى وهى بين ذراعى المنخل . ليتنا نصبح نخلتين وحيدتين فى مكان ناء بالصحراء . . لماذا لا نهرب . ؟ . قال المنخل : ما أقسى الصحراء فى وجه هارين خاصة لو كانت أظافر النعمان بهذه الحدة . تمتت لو أن النعمان يموت فجأة كما مات أبوه . وكانت «الحيرة» تنبئهم لمساتها قليلاً . قليلاً . وعجائز الحاشية الذين أصابتهم البرودة بالصمم بدأت تلفحهم نيران الهوى الجديد .

ثم كانت المرة الأخيرة . . خرج النعمان للصيد . . وتسلسل المنخل إلى حجرة المتجرده . . كانا يريدان أن يصلا سوياً للدرجة من الامتزاج . . وأخذت المتجرده تلاعبه فأخذت قيداً وجعلت أحدى حلقتيه فى رجله . . والحلقة الأخرى فى رجلها . . كانا يريدان أى رباط لا فصام له . . لكن المسافة بين القصر والصحراء بعيدة . . حتى حرارة الرغبة لم تكن تقدر على اجتيازها .

كانت هذه المرة هى الأخيرة . النابغة يتخفى مرعوباً . والقبائل ترفض أن تحيره وتهدر دمه . وعاد النعمان «للحيرة» فى صمت . كان قد فشل فى الصيد . وفرت كل الغزلان . دخل القصر دون أن يشعر به الحرس . وعندما تنبّهت الوصيصة أخيراً نهضت مفزوعة لتنذر سيدتها . والنعمان يجتاز الأروقة فى حذر الصياد الماهر . وصرخت الوصيصة . .

- الملك قادم . .

نهضاً فى رعب . حاولا أن يخلصا قدميهما من القيد . ولكن بلا فائدة . هل كانت هناك وشاية ؟ . من الذى وشى . لم يكن هناك وقت للتساؤل . . لأن الثلاثة . المنخل والمتجرده والوصيصة سمعوا السمعان وهو يهتف . .

- دعوا «عكب» يساعدهم على الخلاص .

وحلقب العيون الستة رعباً . أشار الملك فتقدم «عكب» رفع سيفه . هوى به فى حركة ماهرة على ساق المنخل . بترها ، مم - المنخل من الألم الرهيب انفجرت نافورة من الدم القانى . وأمرهم الملك

- احملاه واقتلوه بعيدا
حمل الحراس المتخل وهو يصرخ وسيل س. يتدفق . يرسم خطا بطول الرواق
والفصر . . والمتجردة فاقدة الوعي .



عمارة بن الوليد .. بيد عمرو .. لا بيدى ..

كانت أجنحة قوية .. وسماؤه ضيقة .. كيف يستطيع إذن ان يخلق في جحر
الفأر .. ؟ .. عمارة يعشق صورته في الماء .. والماء يعشق الطحالب العطنة ..
والطحالب تعشق صدى البحر البعيد ..

كان عمارة .. وكانت المقايضة هي آخر حل إختارته قريش ولم تجد خيراً منه .. حلم
كل أب وأم .. وكانوا كلهم : الرجال والنساء والاصنام متلهفين لآتمام الصفقة .. صفقة
غريبة لأن الموت أحد طرفيها . وعمارة يسير وسط رجالات قريش . وهناك بجوار الكعبة
أجساد تنزف .. وصراخ يحمل كل العذابات الانسانية . وعمارة ناعم ، ناعم . نعومة
عطر الشام ورقة الديباج الفارسي . هذا الصنم الضخم يرمقه في حسد .. وهذا الرجل
الذي يموت من أجل الشيء الذي آمن به أحق .. والموكب الذي يمضي عمارة في منتصفه
يكبر كل لحظة .. عمرو بن العاص يسير عن يمينه .. يؤكد له أن الطرف الآخر سوف
تغريه الصفقة .. عمرو ليس صديقه فقط . إنه استاذة .. وتجرته الأولى في هذا العالم ..
وعندما يؤكد له هذا فإن احساسه بالفخر يتضاعف ..

وصلوا إلى بيت أبي طالب في شعاب مكة .. جلسوا .. وجلس أبو طالب في
مواجهته . احاطت به كل الوجوه المراوغة .. ونهض كبير القوم يبحث عن أكثر الكلمات
نعومة :

- يا أبا طالب .. أنت سيدنا وأشرفنا ونحن أحرص اهلك عليك رغم ما فعل ابن
أخيك بنا وبأهلنا .

وأبو طالب صامت .. وضحك الرجل ضحكة جافة وهو يبحث في لحيته ..

- لذا جئنا نعرض عليك أمراً صالحاً .. تدع لنا محمداً نفعل به ما نشاء .. ونعطيك بدلاً منه هذا الفتي ..

والتفت في حركة سريعة وهو يشير بيده معلناً ..

- عمارة بن الوليد المخزومي أجمل فتيان قریش . بل أجمل فتیان العرب .
.. وتعالى همهمات الإعجاب . وأحس عمارة رأسه متواضعاً .. حتى عمرو ابتسم وأبو طالب صامت . لم تظهر على وجهه أية بادرة من بوادر السرور التي توقعوها .. تبددت الضجة الزائفة .. ورفع عمارة رأسه فوجد أبا طالب يحرق فيه .. أمى نظرة الغضب .. أم الاحتقار .. ؟ .. وظل الصمت غمياً ، وقال الرجل متردداً .

- ما قولك يا أبا طالب .. هل توافق .. ؟ ..

وزار أبو طالب في غضب ..

- يا لها من صفقة .. آخذ ابنكم فأربيه .. وأعطيك ابنى فتقتلونه .. إذهبوا عني ..

ارتفعت ضجة من التهديد الأجوف . وشعر عمارة بخزي مفاجئ .. أنهم يريدون استبداله برجل يكون قد نبأ حقاً . كان ساذجاً عندما أغراه ابن العاص بنسب بنى هاشم .. ونساء بنى هاشم .. وكل واحد يصرخ ويلوح بيده ، وعمرو المبتسم الوحيد .. أبوه الوليد بن المغيرة يهتف في عصبية .. وأمى بن خلف يعانى من نوبة تشنج . حتى عمرو بن هاشم يشعر أن الأمر كله امانة شخصية موجهة إليه ..

لم يكن أمام عمارة إلا أن يتسلل .. ترسب فيه من الخزي ما يكفى .. خرج من شعب أبى طالب . عبر البيوت الضيقة . يخشى أن يقابل محمداً فتزداد درجة خزيه . وصل إلى الكعبة .. هناك بالقرب من تمثال آساف ونائلة كانت امرأة واقفة . ترقب عبيد أبى هب وهم يقومون بتعذيب أحد الرجال .. يربطونه في أحد الخيول ثم يدفعونها لتعدو حول صنم هبل الضخم .. كانت المرأة تشرب المشهد .. ترتعش وتتأوه في خفوت . كلما تناثرت قطرة من دم أو تهشمت قطعة من عظم .. وقف عمارة أمامها يرقبها . الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة .. وتأوهات الموت تتحول إلى لمسات من النشوة تهز جسدها .. امرأة لم يرها عمارة من قبل .. لم يحلم بها .. توقفت الخيول وهدأت المرأة .. دارت بعينيها فشاهدت عمارة .. اكتشف كل منها الآخر .. دون صوت دار حوارهما . سارت فسار خلفها . كان محبطاً . مسلوب القوى . شاعراً باليتم . وهى تعرف أنه خلفها ولا تلتفت . وصلاً إلى تل منعزل . إقترب منها .. كانت هناك بقايا من نيران الرعيان .. جذوات لم تحمد بعد .. هل مست جبينه بأصابعها .. أم أنها وضعت عليه جذوة من نار .. كان

صغيراً .. وأبوه الوليد يهرى بالسياط على ظهور الجوارى . لعل أمه واحدة منهن . وأخوه خالد يهرب إلى الجبال يقتل كل ما يقابله من حيوانات لعله يقتل فيها صورة الأب . والمرأة أمامه . يده مغروسة في الجذوات المتأججة .. والنار هادئة هدوء الخزى . قال لها . أريدك . فتضاحكت . ونثرت الرماد بينهما .. كانت تفر مثل السراب .. قالت .. اتقدر على .. ؟ اتقدر على زوجى ؟ .. هتف في دهشة .. ماذا .. أنت متزوجة ؟ .. ضججت في نعومة وتهايات لكى ثمضى .. وتركت جوابها خلفها ..

- زوجى . عمرو بن العاص .. ماذا ؟ إلا يوجد غيره في هذه الصحراء .. من بين كل الأزواج البلهاء لا يعشق غير زوجة ابن العاص .. منذ أن انتشله وهو طفل غريب وعلمه كيف يواجه شظف البادية .. كان يشد القوس لنهايته فقال له . لا توتر قوسك وإلا ارتد إليك .. وعندما كان يسعى خلف الصيد .. قال عمرو : إجهد صيدك ثم ارمه .. وعندما كان يشعر بالضالة أمام أخيه خالد .. قال عمرو : كل لحظة من المتعة تجعلك أكثر منه قوة . ترك ابن العاص بصماته على كل ذكرياته .. الرفيق .. والصديق .. والمرأة تنهض وهو غارق في ذهوله .. قال لها : ما اسمك .. قالت : اسمى الرباب .. هل يفيدك هذا في شيء .. تركت آثار الحريق في وجهه وأصابه .. وتركت الرماد في قلبه .. خزيان في يوم واحد .. هذا كثير ..

في الفجر هزته ريح الفجر فاستيقظ .. وكانت الأحلام مليئة بالكآبة .. والليل يمضى سريعاً . والشمس تشرق على خزيه ولا تغيب .. ابن العاص يضحك من آثار النار التي على وجهه ويهتف به ..

- تبدو كأنك أحد العبيد الذين أسلموا .. ثم عذبوا ..

خبز النسيان مرير وجاف .. أرض ليس فيها إلا صديق واحد .. ورغبة واحدة . حتى أبوه الوليد بن المغيرة أصابه من جنونه .. اصنام عجوز لم تكل من السياط .. والنبي يمضى كالسيف . قابله عمارة مرة فإبتسم له ابتسامته العذبة الفريدة . فكر : وكنت أظن نفسى مجنوناً حين أفايض به .. وقال له عمرو .. لقد رحلت كثيراً حتى أننى عرفت أن الكلمات العذبة كلها كاذبة ..

وفي اليوم التالى قال عمرو :

- هذه ليلة وداعنا .. أننى راحل من عدى إلى الحبشة .

انزل عمارة كأسه وترقب بقية كلماته قال عمرو :

- هؤلاء المسلمون .. أمرهم محمد بالهجرة إلى الحبشة ولأننى أعرف النجاشى معرفة

وطيدة فسوف أطلب منه أن يرد كل من هاجر إلى بلاده .

هتف عمارة : خذنى معك .
تردد عمرو : إنها رحلة طويلة .

البحر عمارة : أنت وعدتني ..
وافق عمرو .. مجبراً .. لم يلاحظ عمارة ذلك . لم ينم بقية الليل . سوف يرحل عن مكة ولن يعود إليها إلا بعد أن تبرا كل الجراح .. عندما يصطحب عمراً .. سوف ينسيه هذا رغبته في الرباب .. وسوف يعود أكثر حرصاً على صداقته ..

في الصباح خرج كبراء قريش لوداع ابن العاص .. يوصونه أن يستعمل كل دهائه ويبلغه .. كانت النوق كثيرة .. والخلق كثيرون .. والاصنام شاخنة والصحراء تحمل السلوى والعزاء .. لكنه لاحظ أن هناك جملاً آخر بجوار جمل عمرو . عليه هودج مغلق .. هل هي ؟ !! لأجل هذا تردد ابن العاص بالأمس .. هذا الهودج المغلق الغامض .. هل يحتوى نفس المرأة .. رأى عمراً يتطلع إليه كأنه يقرأ ما يدور في ذهنه ..

- إنها زوجتي .. لم أكن لأفارقها في هذه الرحلة الطويلة ..
لم يرد عمارة ، وحاول بقدر امكانه ان يخفى رعدته .. إنها هي .. ذكرياته معها قبضة من رماد .. مجرد وجود علمى .. وعمرو يبتسم .. الابتسامة التي لا يعرفها أحد من العرب كما يعرفها عمارة .. لماذا لم تخبر زوجها ؟ .. لقد فضلت أن تحتفظ بخزيه الخاص سرّاً لها ..

انزوى بعيداً .. وجاء الليل لفقدت الصحراء الفتها وعزاءها .. والهواء يطير ضحكاتها .. رائحة .. صافية .. يتبعها صوت ابن العاص الخشن .. وعمارة يرتجف حتى الصباح يتتعد كل يوم عن قريش ويدخل في ذاته ..

ثم ظهر البحر أخيراً .. حيوان أخضر لا يكف عن الالتواء واللغظ . وقف عمارة أمامه كالطفل اليتيم .. يشعر بالنسيم البارد كأنه يد تحنو عليه أخيراً .. التفت فوجد الرباب تتطلع إليه من الهودج .. وزوجها مشغول بالجدال مع ربان السفينة .. تحدثت بعينها .. تبادلوا رغبتهما الحارة العاجزة دون صوت كما حدث في المرة الأولى : إن أريدك يا عمارة .. كان هذا كافياً ليعيد إليه توازنه الداخلى .. اصابعها ترفع ستر الهودج . فيظهر جزء من وجهها وجزء من صدرها وجزء من الحلم الذى أضناه طويلاً ..

هتف عمرو ..

- هيا يا ابن العم .. سوف تفقدنا هذه السفينة الحبشية إلى بلادها .. وأناخ جملها . شاهداها تغادر الهودج بجسدها الفارع الوحشي الجمال .. تركوا النوق مع القافلة التي صحبتهم .. وحمل عمارة متاعه وانزوى بعيداً .. وعند الفجر سارت السفينة . وابتعد خط الصحراء الاصفر .. وتعود ان يراها من بعيد .. واقفة عند حاجز السفينة

تتطلع . لعل هناك أفقاً ما . يسعها معاً . ويلفظ ابن العاص . . وفي ليلة جاء عمرو إليه . . قال . .

- انضم إلينا يا بن العم . .
وتأمله عمارة في دهشة . . هذه الدعوة الغريبة . . أهي وراءها . . سار معه . .
كانت في انتظارهما سافرة بلا نقاب وبلا هودج تتطلع إليه بثبات . . اهتز البحر وارتعشت السفينة . . وتناول عمارة كأسه في جرعة واحدة . . وضحكت الرباب . .

- رفقاً بنفسك . .
ضحك عمرو . . قال . .
- الفقى مصاب بدوار البحر والحنين إلى الديار . . رفقاً أنت به .
لم يكن دوار البحر يا عمرو . . ولا حنين الطيور المهاجرة . . ما جدوى التمهّل واللهب يستمر في دمائي . . كأس أخرى أيتها الرباب . .

شرب كثيراً حتى هدأ . . ثم انتشى . . وعاد يخرج من نفسه ليكون عمارة المخزومي فتي قریش كما كان دائماً . . لا يبالي بإبتسامة عمرو . . وأصبحت النظرات بينه وبين الرباب أكثر حرارة . . وكان القمر يفرش ضوءه على صفحة البحر وعمارة يغوص في عينيها . . كأنه يحلم . . غرق القمر في البحر وبرزت الشمس . . حمراء كالدم . . ما بين شاطئين تهب ريح الصحراء اللافحة . . وتهب ريح الحبشة المحملة برائحة البخور والفلفل والصندل . . وترف الطيور البيضاء فوق رأسيهما بعنف . . ثم اختفى . .

إلى أى مدى ذهب الأمر . . ؟ . .
سأل ابن العاص نفسه في الصباح ولم يظفر بجواب . . الصداع يفتك برأسه . . والرباب نائمة . . قطرة وديعة دافئة . . والبحر هادئ بالغ البراءة . . نهض كالجنون . . ذهب إلى حيث ينام عمارة . . كلب وديع دافئ . . وهو الوحيد المستيقظ . . المغدور به . . وحينما استيقظا أخذ عمرو يتكلم . . ويتكلم . . وهما صامتان . . على وجه كل منهما ابتسامة راضية . . يحدثان في موج البحر ويحلمان نفس الحلم . . ماذا حدث أيها الوغدان . . اللعنة على الخمر الفاسدة . .

وفي الليل إستدارت الحلقة رغباً عنه . . إبتسمت وهي تعطيه كأساً كبيراً لكنه أخذ يقل من الخمر ويكثر من الماء . . وهما يشريان خمرتهما صرفاً . . ينتظران لحظة الأمس . . ولن يطلبها الاذن منه . قال عمارة .

- هل الخمر جيدة يا عمرو .
أيها الصغير الفاسد . ذكرياتك من صنمى . واشعارك نفايات قولى . . ها هي

اغنيات الاحباش مختلطة بطبولهم الوحشية .. كانا يراقبان لحظة ضعفى .. كن شاهدى
أيها الليل لقد ارقت لهم غمى .. ومددت لهم حبل ..

إنسحب عمارة كسيراً إلى مكانه .. وطاطأت الرباب رأسها ومضى الليل بطيئاً ولم ينم
أحد من الثلاثة .. وجاء اليوم الثانى وعمرهم مازال متنبهاً .. لكن عمارة قابلها فى لحظة
وجيزة .. توحداً لبرهة رغم المسافة التى تفصلهما .. وهتف عمارة ..

- ولكن .. ماذا الفعل .. ؟ .. قالت فى هدوء :

- ان كنت تريدنى تخلص منه ..

وابتعدت .. قريش بعيدة والرباب هى حدود عالمه .. بنو العاص ضعفاء .. وبنو
المغيرة أقوىاء .. أخوة خالد بكل آل العاص .. والبحر غاضب .. والسماء مثل خيمة
متربة .. والاحباش يدقون الطبول وقد أصابهم مس من الجنون .. تهتف به أن يقدم ..
عمرهم واقف على حافة السفينة يرقب الموج .. يتيح له الفرصة النادرة .. ليكون جريئاً ..
ليفضى عليه .. والاحباش يزعمون .. يتوسلون لكل الآلهة المجهولة .. وإقترب من ظهر
ابن العاص الصامت .. مديده فى الفراغ ثم اندفع .. ازاحه من أمامه .. من فوق ظهر
السفينة .. من فوق وجه العالم .. صرخ عمرو .. لكن الطبول المزججعة إبتلعت
الصرخة .. والتهم الموج جسده .. ذهب .. واصبحت الرباب أخيراً له .. القتل هو
أعظم شهوات الدنيا .. يفوق حتى شهوة الحصول عليها .. كان محموراً وهو يصرخ
بها ..

- لقد فعلتها .. قذفت به إلى البحر ..

كان فى يدها سوار من الذهب المرصع .. ظل يغمشه فى ظهره طوال الوقت .. قالت
لن تستطيع العودة إلى قريش .. قال .. أنت عالمى .. كان الفراش مليئاً بالاشواك ..
محشواً بريش الغربان .. وفى الركن صنم صغير أبله لا يكف عن التحديق فيها .. ونداءات
الاحباش الوحشية تعلو حتى الموج يتلوى غاضباً .. موج افريقى دافئ .. ملئ بالحيتان
وكلاب البحر والأسماك والجثث .. تتوالد كلها من جثة عمرو .. وكانت الحركة عنيفة ،
ووقع المصباح الزيتى الذى كان يضىء لهما .. إشتبك لسان من اللهب فى الفراش .. فنهض
عمارة ليطفئه .. وحين إستدار شاهد ابن العاص واقفاً على الباب والماء يقطر من لحيته
وثيابه ..

تراجع ببطء .. يبحث عن شىء يستر به عريه به فلم يجد .. احسن بقطر الماء المالح
على جسده وعمره يقترب .. صرخ ..

- لو علمت .. لو أننى فقط علمت أنك تحسن السباحة ما فعلتها .. صدقتى .. ما
فعلتها ..

كان يهذى ويرتجف . . ويتراجع .

-- ما فعلتها . . ما فعلتها .

قال ابن العاص هادئاً . . إني اصدقك يا عمارة .

وظلت النار تأكل الفراش المحشوب بالريش . .

أطلت عليهم شمس حمراء من فوق الجبل . جاءت الحشة بعد أن هجرتهم كل
النجوم . . وهبت الريح ساخنة . . كانوا ثلاثة . . استقبلتهم مصوع بلا أى ترحيب . .
مطر عنيف . . وشمس لزجة ليس فيها شيء من جفاف الصحراء . تحط على جسد
عمارة مثل عشرات الأيدي القذرة وابن العاص يتصرف بشكل عمل . . كان يعرف جيداً
مدى ضعف آل العاص وقوة بنى المغيرة . توازنات دقيقة لا يدركها إلا رجل مثله . . مهما
قال فلن يوضح إلا نفسه . سوف تجف الدماء . . ويبقى العار . .

في الطريق قابلتهم إحدى القوافل العربية العائدة إلى الصحراء . وضع عمرو
الرباب معهم لتعود إلى مكة . . وأعطى رئيس القافلة رسالة ليوصلها إلى أبيه . . كانت
هذه هي الخطوة الأولى في طريق انتقامه الطويل . .

وبعيداً في مكة تلقى العاص رسالة ابنه . . وفهمها على الفور . كان يوصيه أن يعلن
أمام الناس جميعاً - وبالأخص أمام بنى محزوم والمغيرة - أنه قد خلع عمرو وترأسمه ومن حريز
ثأره . واسرع الأب إلى بنى المغيرة وهو يصيح . .

- إني نرى من عمرو . . ومن جريرة ثأره

والتفت حوله بنو محزوم . سألوه عما يعنى قال

- خرج إبنى من عمارة بن لولند وكلاهما شاعر . فأتك . فلا من آمن أحدهما على
الأحر . . لذا برئت نفسى من عمرو . ومن حريزته

وتناقش بنو المعيرة . . وكان الوليد ان المعيرة يعانى من حالة مره من البلاهة منذ أن
أسلم وارتد . وذكر أن العاص يلجأ للخديعة . وعليه أن يلجأ لها هو أيضاً . وهكذا
طاف مبادئ المعيرة وهو يقول . .

- نحن أرباء من دم عمارة . . ومن جريرته

وتقاطعت النداءات حول الكعبة . وسمعها رجل أعمى . . دق الأرض معصاه
وواصل سيره وهو يقول . .

- ضاع والله دم عمارة إلى الأبد .

كانوا يصعدون وأقسام العالية أشبه بوكرة العقاب . . لا يصعد إليها الضحايا

إلا حائرى القوى . والصمت ثقيل مشبع برذاذ الماء . وكان خزى ثقيلاً حتى إنه تبع عمرا دون أن يجرؤ على الهرب . . . والحبشة هى مصيره المجهول . . . أكوخ القش . . . وأناس سود نحاف . . . وطيور مفزعة . . . ذات أجنحة مديبة تندفع فى طيراتها خلال قوس قزح الهائل الذى كان يمتد من أول الجبل إلى نهايته . . . كانوا يصعدون . . . وشعور الوحدة فى داخل عمارة يزداد : إن عمرا يريد قتلى . . . ولكنه يخاف من قومي . . . ومن خالد أخى . . . إننى صعيّف حقاً . . . ولكنه أضعف منى . . .

وأحيراً بعد أيام من الصعود الشاق . . . أشار عمرو إلى القمة الخضراء المزدحمة بالأكوخ وهو يقول :

- هذه «أقسام» حاضرة النجاشى .
وقطع الصمت دقات النواقيس . ترن فى البرية فيضاعف الصدى من صوت الدقات كأنها تنعى إلى عمارة نفسه . والقافلة تقترب . . . أقسوم لا تختلف كثيراً عن كل القرى التى شاهدوها فى صعودهم . . . لا تزيد عنها إلا فى الكنيسة العالية والبرج الضخم والجرس الذى يتلوى فوق الغابات والوديان الصامته .

الدليل يسير أمامهم . . . توقف حين شاهد حالة الذعر التى تسود المدينة . . . الأكوخ المهتمة . . . والأشجار المقتلعة . . . وجثث الأطفال المهشمة . نظر عمارة إلى ابن العاص فوجده مذهولاً . . . كان الناقوس يستغيث . وقال الدليل :

- بحق المسيح . . . لقد هاجمت الأفيال «أقسام» . . .
ساروا فى الدروب الخالية . عمرو يعرف طريقه إلى قصر النجاشى . . . وأثار القيل مطبوعة بوضوح على التربة الحمراء . . . وتساءل عمارة . . .

- هل من اللائق أن نزور النجاشى الآن . . . ؟
قال ابن العاص . . .

- هذه هى الطريقة الوحيدة لكى يسمح لنا بالبقاء فى أقسوم .
قصر النجاشى يقع على حافة بحيرة هائلة منها تتفرع كل انهار الحبشة العظيمة . . .
ومنها نهر النيل العظيم حيث لا أثر للملوحة الصحراء .

فى الأرض البحيّرة وفى الساء السحب وفى الهواء الرذاذ وعمارة يتطلع إلى قوس قزح الملىء بالامرار . يبدو قريباً منه لكنه لا يترك فى قلبه أى لون مبهج . كان هناك صف من القساوسة . . . أرديتهم مسوداء . فى أيديهم اليمنى عصى طويلة تنتهى بصليب من الذهب . . . وفى اليسرى مباخر تخرج منها أدخنة ملونة . . . يرتلون أدعية غريبة . . . بلغة غريبة .

القصر واسع . مفروش بالخصير المجدود . وعلى جدرانها رسوم قبطية كلها تمثل الملائكة والقديسين بيض الوجوه ما عدا ابليس فهو الوحيد ذو اللون الأسود . كل شيء يبدو غريباً . . وغامضاً . . فوجيء أن هناك أيضاً من يراقبه . . عيون واسعة . . امرأة . . ولولا أنه متأكد من أن الرباب عادت من مصوع لأقسم أن هاتين العينين الواسعتين الجائعتين هما للرباب . . ودفعه عمرو في حدة .

- أيها الأحمق . . لا تتلفت وإلا ضعنا . .

كان عمارة يشعر بتيار هذه العيون الدافق وهو يسرى في داخله . والنجاشى جالس في بهو القصر الواسع . وحوله رجال القبائل بملابسهم الزاهية والقساوسة والسحرة . . وهو على العرش مغطى بجلد أسد تحيط برقبته اللبدة الكثيفة وعلى رأسه تاج من العاج . . إنحنى ابن العاص حتى قبل الأرض . . وصنع عمارة مثله . .

كان وجه النجاشى كثيباً . . وعندما تكلم عمرو وترجم له الدليل الكلمات . . لم يفهم أى شيء . . الأمر كان معقداً كما إكتشف عمارة بينه وبين نفسه . . كان يتحدث عن أناس آخرين . تركوا دين قریش الذى لا يؤمن به النجاشى . . واعتنقوا ديناً آخر لا يعرف عنه النجاشى شيئاً . تركوا أهلهم وديارهم خلفهم فماذا يراد منهم أكثر من ذلك . وتلفت النجاشى إلى القساوسة ورجال القبائل والسحرة وحاول الدليل قدر طاقته أن يترجم . . لكن شعر ابن العاص كان بالغ الصعوبة والركاقة بحيث لم يعد الدليل نفسه يفهم شيئاً . وتلفت عمارة فرأى عيني الرباب . . كلا . . ليست إلا امرأة بنية اللون تطل من كوة فوق العرش وتبتسم له وحده وظل النجاشى يتساءل حتى أحس بالملل . . ثم أمر ابن العاص أن يبقى في ضيافته على الأقل حتى يفهم ماذا يريد منه بالضبط . .

وذهبا إلى الأكواخ التى أعدت لها . . وفكر عمارة . . يا لها من امرأة . . هل يمكن أن تنسيه الرباب . سمع صوت الاستغاثة . . والأهالى يصيحون مع دقات الطبول . أمرهم هجوم آخر للقبيلة ؟ . . خرج عمارة . . جرى وسط أناس «أقسام» . . كانوا يطلقون صيحات الفرح . . إنه عيد ولا شك حتى الدليل يصيح فرحاً . . كان عمارة سعيداً . إستيقظ الطفل النائم في داخله . سمع صوت هزيم هائل . . هزيم متحشرج . . يشبه خوار عشرات الأبقار . . إندس عمارة في زحام الساحة . كان هناك . . على الأرض فيل ضخم يغور في وحشية وعشرات الرماح مرشوقة في جسده . . يتقلب ويضرب الأرض بخرطومه والرجال السود يتقاذون كالكرواد كل واحد يستعرض براعته ويرشقه في أكثر الأماكن حساسية . . والاصوات تهدر بالتحية . ودم الفيل يفرش تحت أقدامهم ملاءة حمراء لزجة وهتف الدليل في عمارة . .

- إهتف معنا . . إن صيد الفيل أو فرس النهر هو أهم الأعياد التى نحتفل بها في «أقسام» .

دقت الطبول وأوسع الجميع مكاناً في صدر الحلقة . أقبل النجاشى بنفس هيبته .
ضخماً مهيباً مثل شجرة باسقة ورأس الأسد الذى يرتدى جلده يتأرجح بين ساقيه . . . وذهل
عمارة عندما شاهد المرأة بجانبه . عارية حتى وسطها . . وكل هذا الجزء الظاهر من
جسدها مغطى بالوشم . .

هتف الجميع في صوت واحد . واصلوا القفز ليجهزوا على الفيل . تشنجت قوائمه
الأربعة المتجهة إلى السماء . ارتجفت عمارة . . نفس الرجفة التى أحس بها بالقرب من
الكعبة . وكانت الرياح وكان هناك رجل يموت . .

ملاؤا إناء من الدم والقوة تحت أقدام النجاشى . . هبط بقدميه الخافيتين وأخذ يدور
في حركة راقصة وصرخت المرأة في وحشية . غمست يدها في الدم ولطخت جسدها العارى
وعيناها معلقتان بعمارة . . وأحس عمارة بهذه النظرات تغوص في دمه . . قال للدليل . .

- هذه المرأة . . من هى . . ؟ . .
ورد الدليل في غضب حقيقى . .

||

- أيتها الأحق الملعون . . إنها زوجة النجاشى . .

ازدادت حدة الرقص وضاع رنين الناقوس وسط الطبول ورفع النجاشى دنا كبيراً
من الشراب إلى فمه . . أخذ الجميع يشربون في شراهة . ويرقصون وينقضون على جسد
الفيل قتلاً وغزيقاً . . وعيناها تشيران إليه حتى يتحرك . . لم يلحظ أحد إنها تبتمد . . ولم
يلحظ الدليل أن عمارة قد تمعها . .

قوس قزح . . تام الاستدارة . . يمتد من أول العالم إلى نهايته . . وجسدها خشن من
الوشم . لم يكونا في حاجة إلى مفردات اللغة العاجزة كان النهر ينصب من البحيرة كأنه
صفحة واحدة . وطيور الزرزور تحط على الصخور وعلى جسديهما . وقوس قزح يطبع
الوانه عليهما . . لماذا يبدأ كل شيء بهذا التدفق وينتهى بهذا الحزى . . فكر عمارة بين
ذراعيها . . هذا الكائن الأسود المشوم هل ينسبه الرياح . هل تجدى حرارته اللافتة في
اقتلاع حدود ذكرها . . رائحة النهر . . رائحة الدم عطر غريب . . لم يفهم
كلماتها . كانت تصف له كيف يمكن أن يتسلل إلى القصر عبر البحيرة ويدخل محدها
الحاص بعيداً عن عين النجاشى .

تذكر نفسه الآن . يمد يده فترجع خائبة بلا نجوم . لا أحلام وعمر وأمامه الآن
يتشرب في عطرها رائحة الكافور . . وسرخس الماء . . وزهور اللوتس . . لقد كسب ملكة
الأحباش فهل كسب جولته أمام ابن العاص . .
عاد إلى الكوخ عمرو في انتظاره يتظاهر بالقلق عليه . .

- لقد أحرت كثيرا . . والقوم هنا يتتابهم الجنون بعد الشرب .
همس عمارة في نشوة . .

- لقد حصلت عليها .
وقال عمرو : من ؟ . .

روجة النجاشي

- أيها المجنون .
أوشك أن يهب صارخاً في وجهه أن يمسه ويهز كتفيه حتى يفنى . لكنه سكت .
كتم كل انفعالاته . . قال في هدوء . .

- أعني أن هذا مستحيل . لا بد وأنها امرأة أخرى تزعم ذلك . تزعم أنها زوجة
النجاشي لترغبك فيها .

وأكد عمارة . أقسم بكل الآلهة . قص ما حدث . وعمرو يتسم . . يسأله إن كانا
سيلتقيان مرة أخرى . . وقال عمارة . .

- غداً سوف أدخل القصر . . سوف أركب قارباً عبر البحيرة وأدخل مخدعها رغماً
عن أنف النجاشي .

وضربه عمرو على ظهره في حماس مبالغ فيه . .

- يا لك من فارس شاعر . . لقد غزونا الأحباش في عقر دارهم .

وتركه . . أدرك أن لحظة انتقامه قد حانت أخيراً . . كان يعرف منذ البداية أن عمارة
سوف يقع في مثل هذا الخطأ القاتل . . من هذه اللحظة سوف يضع لمسات انتقامه ببطء
ودقة وأن يمد له حبال النشوة حتى يأتي الموت مباغتاً . .
وفي العد ذهب إليه سألته باهتمام .

- هل ذهبت إليها .

- فصيت الليل بأكمله معها

- لا اسدق . . كلا يا عمارة لا بد إنها امرأة عادية من عامة الأحباش

وأقسم عمارة وراح يسلي دل ليله عبر المحيرة والنجاشي يستدعي اس العاصم
يسأله عما يطله بالصبط أي دين والدليل عاجز عن أن يوصل ما بينهما . .
يعود حاملة عقده ال مرحد وايقوناب العاصم وحناجر مرصعة بالخواهر يسبح في

الوشم المتشابك على جسدها . . لعله يسمى الرباب . لعله يخفف من درجة خزيه أمام ابن العاص . . لكنه لا يصدق . يصرا لا يصدق . . ويهتف عمارة .

- كيف أثبت لك صدقي . . ؟ . .
سكت عمرو قليلاً . . ثم قال . .

- آتني بعطر النجاشي . . عطره الذى يعده السحرة من عنبر الحيتان ومن الأعشاب السرية ولا يستعمله إلا هو آتني به فأصدقك .

وضحك عمارة من تفاهة الطلب . كانت الأنشطة تضيق حول عنقه وهويرقص رقصة الحياة الأخيرة . يعبر البحيرة . . وترف طيور اللقلق البيضاء كأنها تحذره . . لكنه يلوح لها فى جذل . ويسبح فى البخور . والوشم ينطبع على جسده . على روحه . لكنه لا ينسى الرباب . . حفرت وشمها الخاص ومضت . دون أن يلتزم أى جرح . يستنزف النسيان قطرات دمه فلا ينسى . إكتشف متأخراً . . أنه يحاول الانتحار فى جسدها . .

عاد إلى عمرو وفى يده قارورة كاملة . غثومة . وهتف ابن العاص معلناً إنه بصدقه . لكنه إنزوى فى كوخه صامتاً . لقد عزم ألا يذهب مرة أخرى وأن يرحل بعيداً عن الحبشة . . لن يعود إلى قريش . . ولا إلى أى مكان . . سوف يرحل وكفى . . وضاعت الأنشطة لآخر مداها . .

فى الصباح طلب ابن العاص الأذن بالدخول إلى النجاشي . . كان مملوئاً من مطالبه غير المفهومة . . ولكن عمرو لم يلجأ للدليل هذه المرة . استعمل كل مهارته فى العربية . . والامهرية ولغة الإشارة التى لا يخطئها أحد .

- خبرى هام يا مولاي . . ابن عمى سفيه خوان . . يخلتق الأكاذيب ويبالغ فيها .
لقد جاء بقارورة العطر هذه . . وزعم أنه دخل على بعض نساءك وجاء بها . .

وفهم النجاشي . . كان عمرو هادئاً . رأى نظرة الجنون تطل من عينيه . . سمعه يلتقط أنفاسه فى صعوبة . . ورأى أصابعه وهى تتشنج على مقبض العرش . . بل يوشك أن يقفز غاضباً لكنه يبذل جهداً كبيراً ليتمالك نفسه . ويشير إلى ابن العاص أن يضع القارورة وينصرف . وسار عمرو . لقد غسل يده إلى الأبد من دم هذا المدعو عمارة . لقد حاول أن يلقيه فى جوف البحر فآلقاه هو فى غياهب الحبشة السوداء . .

كان عمارة يجمع متاعه ويستعد لهبوط الجبل . إنفتح باب الكوخ بعنف وسد الباب عشرات الاحباش المسلحين بالرماح . القى المتاع ووقف جامداً . لقد كشف أمره .

وتوجهت كل الرماح إلى صدره . . قادوه عبر الاكواخ والكنيسة والأجساد السوداء . . إلى قصر النجاشي . . مثل جرة سوء الحظ .

دفعوه حتى إنكفأ تحت قدمي النجاشي . . حاول أن ينهض ولكن النجاشي ركله بقسوة . . كان سقف القصر بعيداً والوجوه الغاضبة شديدة القرب . . القساوسة . . والسحرة . . يرتدون الأقنعة الملونة وأثوابهم من ريش الطيور . . يدقون العصي التي تنتهي بالجماجم . .

صاح النجاشي . توجه للسحرة ثم أشار إلى الحرس . اقتربوا من عمارة شقوا ثوبه ونزعوه عن بدنه . صرخ . . دار وسط حلقة السحرة وهم يدورون ويدقون الأرض بالعصى فتهتز كل الجماجم . انبعثت أدخنة البخور من أماكن مجهولة . . كانوا يصرخون في وجهه بالتمائم والتعاويذ . إرتمى على الأرض فانهضوه رغماً عنه . حاول أن يستر عريه أمسك أحدهم دهاناً أسود وإلقاه على جسده فصرخ . . وتحولت صرخاته إلى عواء عندما اقترب منه شيء مفاجيء ولمس الجزء السفلي من جسده . . يحرقه . . يشل رجولته إلى الأبد .لقى ساحر على رأسه سائلاً جديداً . . مثل آلاف الجمرات الملتهبة . . تلوى والبقع الحمراء تتسع فوق وجهه وجسده . ومن بعيد يبدو النجاشي . وعمره . والرياب . . وشخص ما . يشير إلى جسده المشوه . . ويصيح . . هذا أجمل فتيان قریش . . لكن آلاف الحيوانات تركض في داخله . وتمزق أحشائه . . تدفعه حتى يعوى مثلها . . ويركض ويغرس أسنانه في أي شيء يقابله . يقف مخنياً وسط السحرة . . يقفز مثل قرد شرس جائع أبيض اللون يشاركهم رقصة الألم . .

تركه السحرة وسط القاعة . . أشار النجاشي للحرس ففتحوا أبوابها . . وفتح الخدم أبواب القصر . . وكانت الغابات مفتوحة . . قوس قزح تام الاستدارة . . جرى عمارة إلى حياته الجديدة . . أوقبره الأخير . . كانت كل الحيوانات في انتظاره . . كي ينتظم معها في عوائها الطويل

أعوام طويلة مرت منذ أن عاد ابن العاص إلى قریش يشكو ظلم النجاشي وخيانة عمارة وفعل السحرة حتى جاءت خلافة عمر بن الخطاب . خرج من بني مخزوم بعض من أبناء عمومته ليعيثوا عنه وسلكوا نفس الطريق الذي سلكه من قبلهم نحو المحلول صعدوا الجبل . . يقودهم بجير بن أبي ربيعة . اجتازوا أقسوم . . كان النجاشي قد مات . ربضوا على حافة الغابة . . سألوا الأهالي وسمعوا الروايات المنتشرة عن الوحش الأبيض . . وظلوا يتتبعون أي أثر له . . وصلوا إلى نبع ماء جار في وسط الغابة شاهدوا آثار الحيوانات وبينها آثار قدميه اختبأوا فوق الأشجار والوحوش تأتى وتشم الهواء ثم تشرب في دعر واضح وتنصرف . حتى جاء عمارة . غربياً . . لم يتعرفوا عليه . . جسده مغطى

بالشعر الغزير . . واظافره تحولت إلى مغالب . . وحين وصل إلى النبع إرتمى على بطنه وأخذ
بنهل من الماء . . قفزوا عليه . . نهض في فزع . . حاول أن يفلت ولكنهم أمسكوه . .
شدوا عليه وهو يصرخ . . يريد أن يعاود انطلاقه . . أن يهرب إلى حوض الغابة . . تعرف
على وجوههم لكن صراخه الوحشى ازداد حدة . . هتف يخاطب بجيراً :

- اتركنى يا بجير . . لا أستطيع أن أبعد عن هنا . . لا أستطيع العودة اليكم .
لم يتركوه . . كان يرتعد . . يمور فى داخله ألم غامض . آلاف الأنياب والأظافر تنضب
فى أعماقه . . يصرخ فيحاويه جوع كل حيوانات الغابة وحنينها للعتق والانطلاق . . دوت
الأجراس تبلغ رسالته العاجزة . . تنساب قطرات عرقه . . وينزف الدم من عروقه شعروا
بالفزع فتركوه . . ليذهب إلى حيث يشاء . . نهض فى اعياء وسار بضع خطوات متجهاً إلى
الغابة . . ولكنه سقط . . والجرس يرن . . والحيوانات تعوى . .



الخنساء

من أين جاءت بكل هذه الدموع ؟

وأخيرا . . قال صخر لأخته :

- سوف نذهب لموسم الحج هذا العام . . لعلنا نرى من قتلوا أخانا .

ونفضت الخنساء لتمسح دموعها ، وتستعد للرحيل . . إلى البلد الحرام والأشهر الحرم حيث يتجاور القتلة وطالبو الثأر ، دون أن يمرؤ أحد على رفع سيفه . لا تسمع سوى أصوات الشعراء والابتهالات إلى الآلهة حتى تكون أقل قسوة . إن الرحيل جوع جديد . ورأس الخنساء حليقة . جسدها لا يمسه طيب أو دهان . ومازال طائر الصدى ظمآن . يلح عليهم كما يلح دم معاوية . . ياديار سليم . . يا آل الشريد . . يا أذل العرب . ثأركم ما زال ضائعا . كوني حنونة يا نجوم السماء ، وتلوني بلون الدم . لعل نار المراثى تحبو قليلاً .

كانت الخنساء صغيرة عندما دق الموت بابهم . إسمها تماضر . وتشبه الطيب الصغير . وسميت الخنساء نسبة لأحد أسمائه . لم يلتفت أحد إلى جمالها ولم تلتفت هي إلى نفسها . كانت قبيلتها «سليم» في ذيل القبائل . . حتى جاء أخوها . . معاوية وصخر . .

منذ ذلك اليوم أصبح من حق أبيها أن يسير إلى عكاظ ليفاخر بقية العرب . . لا بماله . . ولا بنسبه ، إنما بولديه . يقف وسطهما ويتف :

- أنا أبوخيرى مضر . . ومن نكر . . فليعتبر . .

وحفظت الخنساء هذا التفاخر . تمثلته كحقيقة من حقائق الطبيعة . واستجمعت القبيلة المهزوزة شخصيتها . تغزوما حولها من القبائل وتفرض كلمتها . . ماذا يفعل بنو مرة أو أسد ، أو غطفان ، وليس فيهم صخر أو معاوية . . ومع الحرب والغارات تدفقت

الأسلاب على القبيلة ، وامتلا البيت حول الخنساء بالغنائم الملوثة بالدم . . وكانت راحتها
أطيب من أى عطر ا

معاوية هو الأكبر . . القائد . الشمس الساطعة التى تبهز عينيها ، غاية فى الساحة
والجود والعطاء والقوة . لم يدانيه فى الفروسية إلا دريد بن الصمة فارس بنى جشم . لذا
تصادفًا وتحالفًا . ولكن نهاية معاوية كانت سريعة . . وكانت امرأة هى السبب . . مجرد
إمرأة يملكها الأقوى والأقدر على دفع الثمن . . «اسماء المرية» بغى سوق عكاظ . . دعاها
معاوية إلى نفسه فامتنعت . قالت إنها عند «هاشم بن حرملة» . عدوه اللدود من بنى مرة .
وصمم معاوية على أن ينالها . ولم يغفر له هاشم هذه الاهانة . ظل يترصده ويرقب
تحركاته . . حتى نخل معاوية ذات مرة عن حذره وسار وسط جمع قليل من رجاله . وإذا
بجيش بنى مرة يحاصره . وحاول معاوية أن يشق طريقاً بالسيف . لكن هاشماً وأخاه
تصديا له . تظاهرا أحدهما بالهزيمة وحين هم معاوية بالاجهاز عليه طعنه الآخر فى ظهره . .
منذ تلك اللحظة خرج طائر الصدى من رأسه يجوب الفضاء ويزعق من العطش . ولبست
الخنساء ثوب الحداد . . وبدأت أيام المراثى .

يا إلهى . . من أين جاءت الخنساء كل هذه الدموع . . ؟ . .
سافرت وأخيها إلى مكة . . طافا بالكعبة والاصنام وسوق عكاظ . . يسألان عن
مكان بنى مرة . كان صخر هادئاً . والخنساء ترتعد . رأت عباءة معاوية معلقة فوق إحدى
الخيام ، ممزقة من أثر الطمن . ملوثة بالدم . . ولدا حرملة واسماء المرية يشربان . .
ويتفاخران بما حدث . . وهتفت الخنساء فى كراهية : اقتلها . . الآن ا

وتمنى صخر بصوت عال : ليتنى استطيع . . لولا هذا البلد الحرام ا
وتقدمت هى . لم تكن تملك سوى سلاح الشعر . أخذت تفغر بأخيها . ترثيه وتهدد
القتلة وسط ذهول الجالسين . انتزعت عباءة معاوية . والتفت بها . بدت مثل شجرة صبار
ملوثة بالدم الجاف . إنها لا تزال صغيرة لكن صوتها ممتلئ بريح السموم . . وصخر
صامت ، وجهه مثل قناع كثيف لا يظهر أى انفعال ا . .

وعادا إلى ديار سليم . وبدأ صخر يستعد للثار ، والخنساء تستعد للزواج دون حب أو
رغبة ، تؤدى ما تفرضه عليها التقاليد القبلية . زمان «قبل ان يموت معاوية» كانت تملك
القدرة على الحكم وعلى الاختيار ، حتى عندما تقدم لها «دريد بن الصمة» فارس بنى جشم
وحليف أخيها . رفضته . قالت لأبيها :

- أوأترك أولاد عمى مثل عوالى الرماح واتزوج شيخاً عجوزاً من بنى جشم ا؟
وانصرف «دريد» مخذولاً . لم يفرض أحد رأيه عليها . واخذ «دريد» يهجوها بأقذع
الألفاظ . لكنها كانت من القوة بحيث لم ترد عليه . ولكن معاوية مات . وجاء ابن عمها

«رواحة» . مثل «عوالى الرماح المثلومة» . تطلعت إلى وجه صخر فوجدته جامدا . لا رفض ولا قبول . . على أى حال . . كان يجب أن تتزوج !

فى ليلة الزفاف لم تخلع ثوب الحداد . زفت وهى حليقة الرأس . وظلت ساهرة تنتظر عودة صخر من أولى غزواته ! نسيت أنها ورواحة قد أصبحا فى بيت واحد . وعندما وضع يده عليها إرتعدت . نظرت إليه فى اندهاش . . وسمعت الخيل وهى عائدة فهرعت إليها . كان صخر وكأنه سيف ملوث بالدم . . فهتفت به .

- هل ادركت ثارك . . ؟ . .

قال : كلا . . لم اشف غليلي بعد !

وفى ليلة الزواج قالت أكبر مراتها . . جلست أمام «رواحة» تحتر أحزان عمرها الذى لم يبدأ بعد . وإستيقظت فى الصباح فلم تجده بجانبها !

أى قوة خفية تشدها لصخر . . ؟ . . رغبة الشار الحارة . . ؟ . . عجزها عن أن تعيش فى ظل غير ظله . . ؟ . . هل هو مجرد أخ . . رجل . . فارس منتقم . . رمز لأشياء مجهولة . . أم هورغبة محرمة . . ؟ . . لا توجد احابة محددة . لأنها حملت من السنين أكثر من عمرها . وأهدرت من الدموع ما لم تقدر عليه عين . وارتدت ثياب الحداد حتى بل جلدتها . . وتشربت كآبة المقابر حتى النخاع . . حتى كلمات شعرها تحولت إلى سهام مسمومة . .

لم يكن رواحة هو الروح المناسب . ولم تكن هى الزوجة المريضة . فهجر المنزل إلى اطراف القبيلة . . حيث يجتمع السادة والصعاليك واللصوص والتجار الشرفاء فى حلقات المقامرة . . وحيث ينهض «حميع حاسرين . . ولا يدري أحد أين يذهب المكسب . . ؟ . . فى اليوم الأول . حسر «رواحة» كل نقوده ، وفى الثانى خسر «خواتمه» كل ما كان يزينه من قلائد ذهبية . ثم عاد دون سيفه وخنجره . ثم بدأ يسلب الأشياء ذات القيمة الموجودة فى البيت . . ولم تكن الخنساء تريد أن تنجب منه . . لكنها انجبت رغما عن أنفها طفلها الأول «عبد الله» .

وذهبت تشكو إلى صخر . أعطاه نصف ما فى بيته من أموال . . فأتى رواحة وسلمها . ولو أن المراثى تباع لقامر بها أيضاً . . وحاول صخر أن يصطحبه معه إلى الغزو فرفض رواحة . . وتطور الأمر بينهما إلى التهاجى . . والتحدى . .

ثم عاد صخر سعيداً من الغزو . لقد روى طائر الصدى أخيراً ، وبلل منقاره الأسود من الدم الصافى ، أباد بنى مرة . وقتل ولد حرملة . ظفر بثأر وحشى كامل . وسوف تظل الجثث عارية . . تأكل منها الجوارح حتى التخمرة . . ثم تدروها العواصف . لعل معاوية يهدأ . ولعل أشعار الخنساء تصفو قليلاً . اندفع إلى خيمتها ، يحمل البشرى فوجدتها

باكية ، ممزقة الثياب . . شعناء الشعر والولد الصغير ملقى في زاوية الخيمة . قالت :

- إنه رواحة . . لقد أخذ كل ما يمكن بيعه . . وذهب !
ودمدم صخر . سيفه مازال دافئاً . لكن «رواحة» هو ابن العم ، وزوج الأخت
وأشرق وجه الخنساء وهي ترى علامات القتال على ثيابه . . هتفت بسؤالها التقليدى :

- هل ادركت ثارك . . ؟ . .
قال أجل . . وافئيت بنى مرة عن بكره أبيهم !
كان يحسب أنها سوف تهدأ . . لكنها تساءلت في مرارة :

- وحلفاء بنى مرة . . أسد . . وغطفان . . مازالا بخير . . أليس كذلك . . ؟ . .
ووافقها صخر كأن الصحراء كانت مقبرة واسعة . . وعلى الجميع أن يكونوا فيها
موتى !

وفي الصباح عثروا على جثة رواحة . . قالوا إنه تعثر في الصخور وسقط . لكن أثار
الطعان كانت واضحة في جسمه . نقلوه إلى بيته . ثم إلى قبره . ولم تكن الخنساء قد خلعت
ثوب الحداد بعد . لكنها لم تنزع عليه بكلمة . . لم ترثه بيت . ولم تفكر لحظة في أن تزور
قبره . وظلت ترثى معاوية كأنه هو الذى مات بالأمس . لم يبق إلا «عبد الله» . . الشاهد
الوحيد لهذه الزيجة !

وتفرغت لصخر . وتفرغ صخر للثار المطلق . ثار يقع على كل من شاهد القتلة أو
سمع عنهم . ثلاث قبائل كاملة من أجل فرد واحد . . لكن القبيلتين الباقيتين لم تكونا
فريسة سهلة . توثقتا . وتعاهدتا . وأحضرتا ربيعة بن ثور أبرع من رمى الرمح في بلاد
العرب . . إستضافوه . . وجهزوا له الأموال والجوارى حتى يأتى وقته . .

وركب صخر فرسه الشفاء . وقال لأخته :

- أخشى أن يعرفنى . . ويعرفوا غرة الشفاء فيتأهبوا . .
وسودتها الخنساء بتراب الفحم . وودعها صخر ، تحلى وجهه للمرة الأولى عن
جموده . . وحمحت الخيل إلى ديار غطفان . وهتفت فتاة من فوق مكان عال : هذه والله
الشفاء . . لكن قومها ردوا عليها في بلاهة ، يا حمقاء . الشفاء غراء وهذه بهيم . وظلوا
ينكرونها حتى دهمتهم الخيل . ونفذ سيف صخر في اجسادهم . هرعوا إلى ربيعة بن ثور .
لقد حانت لحظته . ولم تكن سليم تتوقع هذه المقاومة الشرسة ، ولا هذا العدد الكبير من
الفرسان وجهز ربيعة رحمة . ثم أطلقه كالوميض إلى الجانب الأيمن من صدر صخر . لقد
حافظ ربيعة على مستواه ولم يخطئ هذه المرة أيضاً وانتزع صخر الرمح . وظل يقاتل . .
ويتراجع . . وينزف . .

تناثرت قطرات دمه على غرة الشفاء فتحولت إلى اللون الأحمر . وارتقى صخر - أشد
فرسان الصحراء قوة وضراوة - عاجزاً ، فوق فراش داخل بيته . . وهرعت الخنساء إليه .
دفعت زوجته بعيداً ، وجلست بجانبه ورأت جرحه . إنه جرح غريب ، في أسفل الجانب
الأيمن من الصدر واسع وعميق . تبرز منه كتلة حمراء دامية بحجم قبضة اليد . . حاولت
الخنساء أن تلمسها . أن تعيدها إلى مكانها . لكن صخر . . صخر القوى الصلب ،
يصرخ من ألم مميت . إنتفض جسده كله كأن براكين العذاب تغور في داخله . جاء كاهن
القبيلة . إكتشف أن كبـد صخر قد خرج عن موضعه . . ولن يعود مرة أخرى .

مات معاوية مرة واحدة . لحظة واحدة . لكن صخراً يموت كل لحظة عشرات
المرات . والكاهن يحضر الجمر والاسياخ المحماء . ويكوى شفرق الجرح وصخر يتوسل
اليهم أن يجهزوا عليه . أن يرحموه من عذاباته . . أعطوه كل الأعشاب المداوية . . ولم يكن
هناك من يجرؤ على الاجهاز عليه . والخنساء تتأمله . إنه فارسها . ورجلها الحقيقي ولكنه
عاجز مثل جواد نافق . . يوم وراء يوم وشهر وراء شهر . وكل من يسأل عنه لا يتغير
الجواب . .

- «لا هو ميت فينعي . . ولا هو صحيح فيرجى» !
والجرح مفتوح . في البداية كان ممتلئاً بالدم . . ثم أصبح ممتلئاً بماء اصفر عكر . ثم لم
يعد ينزف غير الصديد . والرجفة تغمر جسده . تلهبه بالحمى والهلديان . والخنساء عند
قدميه . تتوسل لكل قوى الصحراء الخفية ان تنقذه . أن يعود الكبـد ويلتئم الجرح ،
وينهض صخر . لم تكن تتصوره ميتاً أبداً .

وفي اليوم الأخير من عام المرض والعجز . . همس وهو يهذى :

- أنا الذى فعلتها . . ؟ . .
لم تفهم . . كان قد فعل الكثير . . قالت حتى ترضيه :

- أنت قاتلت كل القبائل من أجل ثأرنا .
هز رأسه بالنفى . . وأضاف وهو يشهق : راحة . .

وكف عن الحمى والهلديان والصراخ أخذ نصيبه من الألم كاملاً . لم يبق للخنساء من
يأخذ بالثأر . ان ثأر الكون كله لا يكفيها . . لقد تدفق الشعر كالسيل . . لم تعد امرأة . .
اصبحت فقط نفساً غاضبة . وكلما بلى ثوب الحزن ارتدت غيره . وكلما جفت الدموع ،
المهبت بالقصائد عيون الآخرين . أشعار جافة ، مباشرة . لا تأبه بصورة أو تشبيه . تكشف
عن أغوار هذه النفس الإنسانية عندما يضيئها الأحساس بالغبن .

قليل للخنساء : صفى لنا أخويك صخرأ ومعاوية . قالت : كان صخر جنة الزمان الأغبر . وزعاف الخميس الأحمر . وكان معاوية القائل الفاعل . قيل لها فأيهما كان أسنى وأفخر . قالت : أما صخر فحمر الشتاء . وأما معاوية فبرد الهواء . . قيل لها . . فأيهما أوجع وأفجع . قالت : أما صخر فجمر الكبد وأما معاوية فقيام الجسد . .

ركبت جملها إلى عكاظ . تذكرت المرة الأولى التي جاءت فيها مع صخر . وقفت تنشد المراثى . وتساءل العرب : هل هناك من هى أعظم مصيبة منها ؟ . . ولكن امرأة أخرى وقفت في محاذاتها هتفت في الموجودين مفاخرة :

- أنا أعظم العرب مصيبة !
نظرت الخنساء إلى البكاة المنافسة ، وسألتها :

- من أنت ؟
- أنا هند بنت عتبة اعظم العرب مصيبة . أبكى أبى عتبة بن ربيعة وعمى شبيبة وأخى الوليد . وكلهم قتلوا في بدر . .

وانطلقت تنشد الأشعار . تحكى عن يوم بدر . وتحرض الجميع على «عمد» الذى أوقع العرب في العرب . . وانطلقت الخنساء أيضاً . كل منها تنبأه بقتلاها . وتفضل مصيبتها . تحول الحزن الإنسان إلى منافسة كلامية . وتفوقت الخنساء بحكم الخبرة . وانصرفت هند مخلدولة . لكنها ما لبثت أن أطفأت «حرقتها» حين مضغت كبد حمزة بن عبد المطلب في يوم أحد . وبقيت الخنساء في حاجة إلى عدد هائل من الأكباد . .

أفاقت «سليم» وقد عادت إلى مكانتها الأولى . ضعيفة . مكسورة الناب . لا تقدر على رد اللدغة . ذهب «فارساً» آل الشريد . وبقيت أسد وغطفان . خطر دائم متجدد . اجتمعوا . تناقشوا . وكان الاتفاق على الانضمام إلى أكبر القوى الصاعدة - والى تعاديا أسد وغطفان في الوقت ذاته - أن ينضموا إلى الاسلام .

وتألف وفد منهم . ظهرت عليهم امارات الاقتناع المفاجيء بالدعوة الجديدة . والخنساء بينهم . تسير بثوبها الغرابى . كان النبی في مسجده . وأحست «سليم» أن الأمر مختلف عما تصورت . ليس تحالفاً أو سعيًا للحماية . إنه التزام صارم . . يتطلب العطاء قبل الأخذ . . إنها رسالة . . وليست فرصة تتنهر . لكن أحداً منهم لم يتحرك . انسابت كلمات النبی «ص» إليهم وتشربتها نفوسهم كالاراضى العطشى . . وابتسم النبی «ص» في وجه الخنساء ، وهو يقول : هيه . . يا خناس . .

استمع إلى أشعارها في حزنها . . أخبرها أن في الاسلام العزاء لكل القلوب الحزينة . .

تزوجت للمرة الثانية : مرواس بن أبي عمر . شيخ كبير يلاثم مزاجها النفسى . ولم يكن صخر موجوداً فتفرغت لحياتها الزوجية ، ووالدت انجاب الأطفال . تحاول تعويض أيام العقم والرثاء . لكنها تجردت من كل عواطفها . ومارست الطبيعة دورها خلال جسدها دون أى احساس حقيقى . ماتت داخلها رغبة الاستمتاع بالنزوات الصغيرة . . واصبحت أما . . صارمة . . عكرة المزاج ! .

ولم يمنعها هذا من أن تنجب بنتاً جميلة هى «عمرة» . ظبية صغيرة تملك قلباً متوثباً . يتوق للحب والمرح وأشعار الغزل وهمس العشق عوضت كل ما حرمت منه أمها ، وأخذت تصنع من الخطايا اليومية ذكريات جميلة ! .

ومات النبی « ص » . وانقسمت القبائل . اعتبروا الزكاة وكأنها كانت نوعاً من الاتاة تؤدى لرجل قوى . وانتشر الأنبياء «الكذابون» يدعون أحقيتهم بالنبوة . وتذكرت الخنساء أن لها ابناً اسمه عبد الله من زوجها الأول . تذكرت ذلك حين إمتشق حسامه مع المرتدين . وقف خلف طليحة أحد الأنبياء الكاذبين . يواجه جيوش المسلمين . وتبلدت مشاعر الخنساء إلى حد الموت لم تبال إن كان مسلماً أو مرتدأ . . نجح في المقاومة أولقى حتفه . .

لم تهتز إلا عندما اكتشفت وجود علاقة غرامية بين ابنتها عمرة وشداد بن مرواس ابن زوجها من امرأة أخرى . ذهلت من أن تقدم ابنتها على مثل هذه العلاقة المحرمة . ولم تبال عمرة . لقد وقعت في غرام عشرات الفرسان فلماذا لا تقع في غرام شداد وليكن ما يكون ؟ لكن الخنساء وقفت أمامها في حزم . وعندما مات مرواس قطعت كل ما كان يمت إليه بصلة . ورثته بأبيات باردة هشة . لكنها كانت خيراً من اللا شيء الذى كان من نصيب رواحة . وأنهات العلاقة . وهزت عمرة كتفها ، فهى لا تزال قادرة على الحب ، والعالم ملء بالفرسان الذين لا يمتنون لها بصلات محرمة . .

لم ترحم الأيام الخنساء . حولت كل ذكرياتها إلى قبور . ولم ترحم هى نفسها فتحولت أيضاً إلى مقبرة . أمدت روحها بعشق دم الآخرين . وكانت أكثر عطشاً من طائر الصدى ولا أحد يدرى كيف إستقام هذا الشعر الجيد مع هذه المشاعر المريضة ! .

حين أقبلت على المدينة ومعها أناس من قومها التقوا مع «عمر بن الخطاب» وقالوا : هذه الخنساء نزلت المدينة بزي الجاهلية . فلرو عظنتها يا أمير المؤمنين فقد طال بكأوها في الجاهلية والاسلام . وقام عمر واتاها . قال : يا خنساء ما الذى ترح عينيک ؟ . . رفعت رأسها وقالت : البكاء على السادة من مضر . . قال : إنهم هلكوا في الجاهلية وهم وقود للهب وحشوجهنم . قالت . فذاك الذى زادنى وجعاً . .

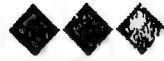
لم تغير ثوب الحداد . لعلها ماتت به ، مرة واحدة في زفاف ابنتها عمرة . التفت في

شال أحمر ، وجلست في ركن لا تشارك في الرقص ولا الغناء ، تاركة النساء الغربيات يزين
ابنتها . كانت تحاول أن تتذكر ما حدث في زفافها الأول . . هل غنى أحد أغنية من
أجلها . . ؟ . . فوجئت بعمره تدوس على قدمها . . كانت قد نهضت لقضاء حاجتها وهي
ترتدى ثوب العرس . . كانت جميلة بحق . . لكنها هتفت فيها بغيط :

- يا حمقاء . إنني كنت أحسن منك عرساً . وأطيب درساً . وأبسط منك عرفاً .
وأرق منك فعلاً وأكرم منك بعلاً . لا أذيب الشحم . ولا أرى «البهم» ، كالمهرة
الصنيع . لا مضاعة . . ولا عندي مضيع ! .

وقفت «عمرة» ذاهلة . وذهل بقية المدعوين . والأم تسلط لسانها الحاد . لقد
اكتشفت أنها لم تكن عروساً في يوم من الأيام . . لم تحب . . لم تستمتع .

عاشت أيامها كلها في الشيخوخة . وفقدت بصرها قرباناً لأيام البكاء الحارة . وحين
جاءتها الأخبار أن ولديها الاثنين قد استشهدا في معركة القادسية كانت قد استنفذت كل
الدموع ، وكل أبيات الشعر . لقد زاد عدد القبور قبرين . وأدركت بشكل غامض أن كل
ما يمت إليها بصلة مقضى عليه . لم يبق إلا هي : وحيدة كثيبة . . تنتظر وقع دبيب الموت
الذي تأخر عن مواعده !



أميه بن أبى الصلت المتوهم والمتنظر الأعظم

كان يهذى من الحمى عندما مرق طائران من خلال النافذة ودارا حوله عدة دورات ثم
نفذا إلى الفضاء الخارجى .. زعق .

- لييكما . لييكما .. ها أنذا لديكما ..
لا برىء فأعتذر .. ولاذو عشيرة فأنتصر ..

هتفت إبتته : إهدأ يا أبى .. أنت تهذى .. دفع يدها وهو يحاول النهوض .. هذان
طائرأ النبوة . يحملان لى الخاتم والرسالة قالت : أنت تتوهم يا أبى لا توجد طيور .
والرسالة مجرد حلم . لكن صدره كان يعلو وينخفض . يسمع صراخ الطيور الحاد وهى
تناديه من فوق حواف الصخور المسنونة ومن قيعان الأودية المحترقة وعند الآبار والينابيع
حيث تموت الأوهام فى وهج الظهيرة .. يلاحقه الصوت الغريب فى النهار كالنذير وفى
الليل كالحلم .. إنهض يا أمية . جاءت أعلام الزمن الجديد . يتفصد جبينه بالعرق
ويصرخ : من ذا الذى يرفع الأعلام ؟ . ومن أى الجهات تهب الريح ؟ .. أحس ريح
الصبا .. وأحس بريح الموت .. ولكن أين ريح النبوة ؟ .

مرق الطائران خلف النافذة مرة أخرى .. فهتف :

- لييكما . لييكما .. ها أنذا لديكما ..
لا مال يغنىنى .. ولا عشيرة تحمىنى .

نهض من الفراش . دفع إبتته بعيداً خرج من البيت واجتاز الحى وابتعد عن
المضارب . يقوده الطائران فى السماء نحو آفاق بعيدة .. رآه قومه من «ثقيف» .. هتفوا
به ..

- إلى أين تمضى يا أمية ؟ ..

رأه رعاة الماشية وجداء الأبل وعشاق الآبار الجافة . وكان الطريق الذى يسلكه لا يقود إلى اليمن أو الشام . . لكنها مسارب غريبة يا أمية لا تنى تتفتح وتتشابك كالفيخ . . كأنك الطراد والصيد . والقلب الذى أضنته الحمى والانتظار الشاق يصرخ . .

- يا طيور السماء . يا كل الموجودات . من آخر أنبياء الزمن الآتى ؟
يهتفون به جميعاً . .

- أمية بن أبى الصلت . .

أهو السراب الخادع مرة أخرى . . أيتها الطيور توقفى قليلاً وأجيبى على سؤالى . .
إذا كنت أنا حقاً آخر أنبياء الزمن الآتى . . فمن هو هذا النبی الذى ظهر من قریش . هذا الفقير البائس . . أنراه قد سلب حقى وسرق منى رسالتى ؟ ..

ولا تتوقف الطيور ، تخترق قطع السحاب المتناثرة وتقوده خلفها . أنفاسه كأنها الحشرات الأخيرة ، وصدره مثقل وقدماه تغوص فى رمال متحركة . . وأخيراً توقفاً فوق تل مرتفع وأخذاً يرمقانه بعيونهما المستديرة الحادة . . هتف :

- لييكما . لييكما . . هاأنذا لديكما . .
محفوف بالنعيم . . محوط من الريب . .

وظل يتسلق التل حتى تجرحت راحته . . الاحجار جماجم . والرمل دم جاف .
والطائران خفاشان كبيران يلغان فى القاذورات ويرقبانه فى تحفز . . توقف مشدوها ثم هتف
نئ يأس مطبق . .

- لقد خدعتنى السماء . .

وأغمى عليه ، حتى عثر عليه بعض الرعاة من قومه وشاهدوا طائرين أسودين يجثمان
على صدره وينقران لحيته .

لم يزل أمية بن أبى الصلت فى الانتظار . منذ أن شب ووعى . رأى الصحراء المترامية
تسكنها بطون وقبائل متفرقة لا يحكمها غير قانون الثار . . والأصنام الضخمة تنتصب حول
الكعبة . والتجار يستخدمون كل الوسائل من أجل الكسب . والعبيد يذوون تحت شمس
الصحراء القاسية تعباً وعرقاً . وبيوت اللهوثملىء بالحالمين التعساء . . سافر أمية شمالاً إلى
الشام . وجنوباً إلى اليمن . باع وكسب وخسر وعرف ، واتسعت حدود العالم وانبسطت
اليابسة . شاهد الرهبان فى أديرتهم المتناثرة واليهود فى معابدهم . ورأى الأحباش اتباع

سيف بن ذى يزن يعضون عمرهم في مصغ القات بعد أن تخلت عنهم الهالات الاسطورية . . وأحس بنظرات الاحتقار التى يلقيها الفرس والروم على كل ما هو عربى . . وعندما كبر قليلاً بدأ يقرأ قرأ كتباً لم تقرأها العرب وعرف نبوءات لم يسمع عنها أحد من قومه وهياً نفسه من أجل رسالة كانت جنيناً فى بطن الغيب . أدرك أن الأصنام باطلة والخمر فاسدة والكون زائل فلبس السواد وتمسح بالزيت . . وانتظر .
قال أمية بن أبى الصلت يحدث صاحبه . .

- إن ها هنا راهباً عالماً أخبرنى أنه تكون بعد عيسى عليه السلام ست رجعات وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة وأنا أطمع فى النبوة وأخاف أن تخطئى

كانت قبيلته «ثقيف» حملاً تنوء به أكتافه . يحمل لعنتها واثمها المتكرر وسط عالم يقيم كل شىء وفقاً لسلسلة طويلة وقاسية من الانساب . تنحدر ثقيف من أباد . . وأياد من ثمود . الذين قتلوا نبي الله صالح وعقروا ناقته . هنالك حديث نبوى يقول .

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجب ثقيفاً . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يبغيض الأنصار» .

ما من مكان يذهب إليه ثقفى إلا ويخرج له من يعايره بشمود . . وكلما فاخر العرب بعضهم بعضاً - والمفاخرة هى عدة الأمة العاجزة - عدواً ثقيفاً من غير العرب . وظل رمز عارهم مثلاً فى قبر «أبو رغال» كلما مرت به قافلة أو جماعة رجته بالحجارة كأنما ترجم ثقيفاً كلها . كان جددهم الأكبر وأول ملوكهم . كان ظالماً حتى أنه ذبح الماشية التى كانت تمد الأطفال الرضع باللبن . . وكان دليل جيش «ابرهة» . . بعد أن رفضت كل القبائل أن تدله على الطريق للكعبة دلهم أبو رغال وهلك فيمن هلك معهم ودفن فى مكان بين مكة والطائف ومر الرسول بقبره فأمر بجرمه فرجم . فكان ذلك سنة . .

ظل أمية يحس بوطأة هذه اللعنة فى أعماقه . تسرب إليه اللا شعور الجماعى الذى كان يثقل كل أفراد قبيلته بالعار . حتى أن اللعنة تحولت إلى وضع إجتماعى ثابت . لكن رغبة التطهر الحارة كانت تؤرقه . لم يصور الاصفهاني مثل هذه العاطفة الجياشة وهذا التوق الذى كان يفور بنفس هذا الرجل . كان فى الرسالة التى ينتظرها خلاصه ، وخلاص قومه ، ورفعهم من مرتبة القتلة إلى مرتبة المبشرين .

لقد ولد لديهم الشعور بالذنب رغبة متطرفة فى التفوق . . يقول أبو الفرج عن أمية وقومه . .

- اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل ثقيف . . وأشعر أهل ثقيف أمية بن أبى الصلت . .

ويسبب وطأة هذا الشعور ولد الانبياء المتوهمون مثل أمية . وخرج القادة القساة المتعطشون للدم مثل الحجاج بن يوسف الثقفى . .

بدأ الأمر مثلما تبدأ الأحلام . كان نائماً وانشق السقف عن طائرين . وقف أحدهما صدره فشقه . أخرج قلبه فشقه . قال الطائر الأعلى : أوعى ؟ . قال الطائر : وعى . . قال : أقبل ؟ . قال : أبى ، واسرعا بالتحليق مبتعدين . وجلس أمية يمسخ صدره . قالت انتته . .

- يا أبى . . هل تجد شيئاً . . ؟ .
قال . . لا . . ولكنى أجد حراً فى صدرى .

وفى السماء هوى شهاب قرمذى أمام عينيه فاعتقد أنه النداء الذى ينتظره . وثغت شاة صغيرة فعرف لغتها وعرف أنها تشم رائحة الذئب . وتنبأ غراب أسحم بموته . سافر مع القوافل شهوراً وسنيناً باع الكثير وريح الكثير . . لكن النبوة كانت حلم الخلاص . . إنتشر شعره الجدل الملىء بالالفاظ الغريبة والصور الأشد غرابة . . لكن معانيه كانت تدور عن الآخرة والبعث . . وتساءل عندما تشاقلت الأيام . . متى نجيء الساعة . ويهبط الوحى ؟ . .

حدثوه عن راهب يعرف علوم الأولين ويعرف ميفات نبي الزمان الآتى . وفى إحدى رحلاته ترك القافلة وظل يحبب بناقته عبر فيافي موحشة حتى رأى الصومعة الوحيدة والراهب الوحيد . هبط إليه . كأنما كان الراهب ينتظر قدومه . . قال له :

- يا أمية ان لك تابعاً لا تراه يسعى خلفك . .
قال أمية بفرح حقيقى :

- نعم . . أحس بذلك منذ كنت صغيراً وصوته يلاحقنى .
سأله الراهب : من أين يأتىك ؟ . قال أمية : من أذن اليسرى . . سأله : بأى الثياب يأمرك . .
قال : بالسواد .
سأله : ما مركزك وسط قومك ؟ قال : أنا سيدهم وأكثرهم مالاً . .
قال الراهب بأسف . .

- لقد كدت أن تكون النبى المنتظر . لكن الآخر . يأتىه تابعه من أذنه اليمنى ويأمره بلبس البياض . وهو أفقر قومه وأقلهم مالاً ، لكنه أشرفهم نسباً . . أما تابعتك فهو من الجن ولا شك . .

ظل أمية يحدق فيه . لا يستطيع متابعة الكلمات . ينتظر أن يغير الراهب أقواله . .
يعدّها . . همهم . . ليس أنا . . هتف في حيرة . . واحد آخر غيرى أشد فقراً وأرفع
نسباً . . وظلت ابتسامة الراهب ثابتة . . أى أمل أضاع وأى حلم حطم . . ركب ناقته
وواصل سيره للشام . باع واشترى . كسب وخسر . حدث نفسه بإطمئنان : لا يوجد من
هو أحق منى بالرسالة . . تطلع للساء البعيدة : هناك إله واحد . . إله إبراهيم
واسماعيل . . الأصنام التى يحملها أصحابه ويتباركون بها باطلة . . الخمر التى يقتلون بها
الليالى فاسدة . . وبقي هو . . نقياً كما الثلج في جبال الشام . . صريحاً كشمس
الصحراء . عميقاً بعيد الغور كالبحر الممتد . وتساءل عن حرقة : كيف يكون النبى
فقيراً ؟ . .

وفى طريق العودة إنفصل عن القافلة . وسعى براجلته مرة أخرى عبر الفيافي إلى نفس
المكان . الراهب الوحيد والصومعة الوحيدة والابتسامة الثابتة . . تراجل عن ناقته
وسأل . .

- متى يظهر آخر الأنبياء ؟ . .
قال الراهب على الفور :

- يا أمية لقد كانت الرجعة . . وقد بعث نبى العرب وكل الساء تسألون بنجوم
دعوته .

وازداد ذهولاً أمية . . ضاع عمر الانتظار الطويل وظل طوال مدة السفر وهو يرتعد
ويحس الخديعة . . حتى الشهب التى تهوى ليست أكثر من أكاذيب . . وبعث فيه الحداة
الطويل الممتد شعوراً بالخيرة فبكى . . وعندما يبكى الرجال في الصحراء فهذا ليس من
الأمر الهينة .

عندما وصل إلى بيته لزمته الحمى واستبد به الهذيان . لكن الأخبار لاحقته داخل
الفراش كدقات الطبول المنذرة . كلها تتحدث عن النبى الجديد والدعوة الجديدة .
تتحدث عن فزع السادة وعن فرح الفقراء والعييد . هذه أيام الريح المواتية والحياة
المتدفقة . . عبر الحصار والاضطهاد وفى وجه كل العادات المتوارثة والعبادات والطقوس
والأوضاع الاجتماعية والمصالح والأوامر القبلية وفوق العصبية وقوانين الدم وشرائع
الصحراء كانت الدعوة تولد ، كان الفقراء مجمعون عليها مثل الجوهرة ومثل جمر النار .

لم يطق رقدته . . تسلل من بيته حتى عرف المكان الذى يجتمع فيه أتباع محمد النبى
إختبأ خلف أحد الحواجز وأخذ يتطلع إليهم . . جماعة من الفقراء والعييد ومعذبى الأرض
يجلسون تحت شمس الصحراء القاسية يتدارسون ، وجوههم نحيلة مذبوغة ، وأجسادهم
دأبت على العمل اليومى . والنبى الجديد جالس فى وسطهم وعيونهم مشدودة إليه . .

عندما يتكلم تندفق فيهم الحياة وتنقلب موازين الكون البالغ القدم . أدرك أمية أن الهواتف خادعة ، وأن لبس السواد ومسح الزيت لا يهب خلاصاً . إن هذا الرجل الفقير الجالس وسط دائرة الفقراء وحده يملك القدرة على التغير لأنه يعرف ماذا يريد أن يغير .

تطلع أمية إلى نفسه . كان سيداً وكانوا بؤساء . . كان يحمل جرح اللعنة الذى لا يندمل . . وكانوا يحملون خلاص العالم كله . .

وبدلاً من أن يستعيد توازنه النفسى . أخذ قلبه ينبض بغيظ متأجج . . لقد خدعنى وأخذ رسالتى . سلب النبوة منى . . ومضى فى طريقه . يثر الرثاء أكثر مما يثر السخرية . يحس بالعالم وهو يتغير حوله دون أن يملك القدرة على المشاركة . . وتساءل فى حيرة .

- هل يعتنق الاسلام . . هل يرضى أن يكون تابعاً بعد أن وهب عمره كله ليكون نبياً . .

وزادت وطأة الحمى فأخذ ينادى الطيور التى خدعته . ويلعن الراهب الذى سرق منا البشارة . ومشى يتخبط بين الخيام . يلقي آخر تعاليمه ويدعى أن الوحى قد أخطأ طريقه فى المهبوط . . مجرد خطأ صغير . . لكنه قاتل . . لكن الأوضاع سوف تتحسن . . ها هى تعاليمه . . وهذه هى نبوته .

قالوا له . . أسلم . لعل فى الاسلام خلاصك .
رد غاضباً :

- اعلم أنه قد دنا أجل . . وهذه المرضة منيتى . . ولكن الشك يداخلى فى محمد . رأى المسلمين يعذبون . رآهم يهاجرون بعيداً عن أراضيهم وديارهم لكن الرسالة تطوى الصحراء كالسيل . . وبقي وحيداً . نبياً بلا ظل .

يقولون : إنه بينما كان يشرب من أحد الكؤوس جاء غراب اسحم ووقف على حافة النافذة . تطلعاً لبعضهما - أمية والغراب - ملياً . ثم قال أمية . .

- سوف تقع من فوق حافة النافذة . . وتموت .

رد عليه الغراب :

- وأنت تشرب من هذه الكأس رشقه واحدة . . وتموت . .

ووقع الغراب من على حافة النافذة فمات . . ورشف أمية آخر شرابه ومضى
مضى المتوهم والمتنظر الأعظم . .



الحطيئة

إنسان بلا ظل

ذهب الحطيئة إلى أمه يسألها عن أبيه الحقيقي .
كان وجهها الذى كان جميلاً قد تغضن . قالت أنها لا تدرى . أوقد الحطيئة ناراً ووضع فوقها قدراً ممتلئاً بالماء . وعندما ارتفع السخار حمل أمه وأقسم أن يلقيها فى القدر إن لم تخبره بالحقيقة . إرتعدت الأم وقالت : إنهم كثيرون . قال محقاً . كم ؟ قالت : لا أذكر لكنهم كانوا من بنى ذهل وبنى عبس . لكى لا أذكر عددهم . تركها وجلس مقهوراً . لم تعرف الأم أين أخطأت بالضبط ، فقالت تهون عليه . لم أضاجع إلا أشرف الناس أنت بصورة أو بأخرى شريف النسب

هكذا يمضى ذلك الرجل المفرد قبيحاً مثل ناقة حرون . بالغ القصر مثل نسات صحراوى . مغمور النسب . لا ظل من شرف يحمى به . ولا سند يمنع اهدار دمه .
حتى أن «أبا الفرج» يقول :

- كان الحطيئة جشعاً . مؤولاً . ملحفاً . دنىء النفس . كثير الشر قليل الخير بخيلاً . قبيح المنظر . رث الهيئة ، مغمور النسب ، فاسد الدين ، وما شاء أن تقول فى شاعر من عيب إلا وجدته وقلها تجد ذلك فى شعره .

كان وحيداً فى مواجهة مجتمع كامل . فى مواجهة تقاليد وقوانين ضاربة الجذور . يعيش هو على حوافه على أطراف المضارب وعلى عطايا كرام الناس . . أو الذين يخافون لسانه . . لا يعشق . لا يتشعب . لا يحلم إلا بموطىء قدمية . . لم يملك شيئاً إلا لسانه . . يهجو أخوته المزعومين من بنى ذهل الذين حرموه من ميراث مزعوم . ويهجو أمه التى تزوجت ابن زنا يدعى كليبا ، ويهجو سادات القبائل الذين أمسكوا أيديهم عنه . ثم يقلب الهجاء مدحاً

فى نفس واحد حين يأخذ . . وعندما ضاقت الدنيا به ذات مرة ولم يجد أحداً يهجوّه . نظر فى الماء فرأى وجهه القبيح ولم يتمالك فهجا نفسه . .

أرى لى وجهاً شوه الله خلقه
لقبيح من وجه وقبح حامله . .

وعندما جاء الاسلام أسرع بالدخول إليه . . يؤرقه حلم المساواة الشاملة . لعله يلدوب بين جموعه . . لكن تفردّه الوحشى ما لبث أن طغى عليه فارتد فى ولاية أب بكر . . كانت رغبته فى الانتساب حارة ، وقاليته شاردة . يقول القصيدة فتشرد فى كل الاركان . كان إذا غضب على بنى عيس هجاهم وقال أنا من بنى ذهل فإذا غضب من بنى ذهل هجاهم وقال أنا من بنى عيس . . ولأن الشعر كان الزاد اليومى فقد توقاه الجميع . وحاولوا توقى لسانه الذى لا ينفخ إلا شراً .

جاء الحطيئة يوماً إلى المدينة وكانت سنة مجذبة تغمر الصحراء بريح الجوع . رأى الجميع قامته القصيرة وهو يسير أمام ناقته يتفرس فى البيوت والمضارب حتى جلس على باب المسجد . فزع أشراف المدينة . مشى بعضهم إلى بعض . . قالوا . .

- هذا الرجل شاعر ، والشاعر يظن فيحقق ، وهو يأتى الرجل ويسأله فإن أعطاه جهد نفسه مدحه ، وإن حرّمه هجاه . .

واجمعوا أنفسهم أن يجعلوا له شيئاً معداً يجمعونه بينهم . فكان أهل البيت من قریش والأنصار يجمعون له العشرة والعشرين والثلاثين ديناراً حتى جمعوا له اربعمائة دينار . . وظنوا أن هذا كافياً . . واعطوها له . . لكنه ما لبث أن هجاهم وأسرع بالانصراف .

كان يمقت نفسه . يمقت أمه التى جاءت به سفاحاً . ويمقت كل القبائل التى تعتز بأنسابها وتظل تسلسل حلقاتها حتى تصل إلى «اسماعيل» ويمقت الذين يعطونه العطايا خوفاً منه . . ويمقت المديح الذى يقوله لمن ليس أهلاً له . .

عاش يهوب الجزيرة كلها مثل وحش الفلاة . . والقبائل تردد شعره وتدارى خوفها والشعر الذى لا عيب فيه - كما يقول النقاد الاقدمون - ينتشر ، حتى أن أحد الأعراب يروى أنه كان ذات ليلة يسالمر عبر الصحراء فنزل فى ضيافة قوم هيتهم غريبة . قدموا له طعاماً لم يجد أسوأ ولا أثقل منه على معدته . . وقال شيخهم لأحد الشبان .
- سامر ضيفنا . .

فوقف الشاب وأخذ ينشد أشعار «الحطيئة» كلها . كلها فرغ من قصيدة تلاها بأخرى .

ودهش الأعرابي لهذه الذاكرة الحديدية . . وسأله عن ذلك فقال الشيخ برصانة . .

- نحن من الجن . . وهذا الفقى أخو الخطيئة فى عالم الجن .

وصدق الجميع الحكاية بالطبع . وصدقها أبو الفرج نفسه ، وجاء بقائمة طويلة من الاسانيد التى تثبت صدقها .

مرة وحيدة تعرض فيها «الخطيئة» لمأزق حرج بسبب طول لسانه . وكانت هذه المرة مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . كان مثل الكثير من الحكماء لا يكن احتراماً لهذا النوع من الشعراء ، وهو يسمع أعراض المسلمين وهى تسب كل يوم ويشهر بها . . ولعل أنباء ارتداد الخطيئة قد تناهت إليه وتندره عندما ولى «أبو بكر» فقال بيتين شهيرين يعلن فيها تنصله .

أطمعنا رسول الله إذ كان بيننا . .
فيا أهل حسب الله ما لأبي بكر
أبورثها بكر إذ مات بمعه . .
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وكان الخطيئة قد هجا أحد ولادة المسلمين ويدعى «الزيرقان بن بدر» هجاء فاحشاً . وسب امرأته وأهله . . جاء الوالى إلى عمر بن الخطاب يشكو ، وروى الشعر . إستشار عمر من حوله فأقروا شكوى «الزيرقان» . وكانت حجة مناسبة للقبض على الخطيئة . فقبض عليه ووضع فى بئر عميق ووضع عليه غطاء ثقبلاً وأقسم أن يريح المسلمين من شر لسانه . .

وظل الخطيئة حبس البئر . يقول الأشعار ، ويتوسل أن يفرج عمر عنه . وللمرة الأولى عرف اللسان العصى طعم التوسل . جاء عمرو بن العاص يتوسل للخليفة . . فقال :

- ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكى على تركه الخطيئة . .
أمر الخليفة فأخرجوا الخطيئة من البئر ، ووقف أمامه وأمام الجميع مقيداً منكس الرأس . قال عمر :

- على بالكرسى . .

جاءوا بكرسى فجلس عليه فى مواجهة الخطيئة وأشار إليه باحتقار :

- اشيروا على فى الشاعر . فإنه يقول الهجو . وينسب بالخرم . ويمدح الناس ويلتهمهم بغير ما فيهم . ما أراى إلا قاطعاً لسانه .

وأمر من حوله : على بالطست . . جاؤا به ووضعوه بينها قال :
- على بالسكين . لا بل على بالموسى فهى أسرع . .
أمسك الحرس برأس الخطيئة . ضغطوا بأصبعهم على وجتيه حتى انفتح فمه رغماً عنه
وسال لعابه وتبدل اللسان الذى قال عُشرات الأبيات مدحاً وهجاء وتشقياً . لكن عبد
الرحمن بن عوف وقف بين الموسى واللسان المتدلى وهتف :

- يا عمر . . سوف تكون سنة تتداول من بعدك .
وتوقف عمر . خفت صوت الحاكم القوى . والموقف الليل الذى عاشه الشاعر
أقسى من أن يحتمل . . ولو أن عمر فعلها . لكانت الستتنا كلها مقطوعة لأوى
الأسباب ! . .

قال عمر مهدداً :
- إياك وهجاء الناس . .
قال الخطيئة وقد اقترب من النجاة :

- إذا يموت عيالى جوعاً . هذا مكسبى . ومنه معاشى .
- فأياك والمقلد من القول . .
قال : وما المقلد ؟ . .

- ان تخاير بين الناس فتقول فلان خير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان . .
قال الخطيئة وقد بدأ يستعيد وقاحته :

- فأنت والله اهجى منى .
قال عمر مغتاضاً :

- والله لولا أن تكون سنة لقطعت لسانك ولكن اذهب . . فأنت له . خذه
يا زبرقان .

ووضعوا العمامة حول رقبته وسحبوه منها . وظلت الوفود الحاضرة تتبادل السخرية
به . حتى تركوه أخيراً فى الصحراء . المكان الوحيد الذى كان يشعر فيه بالأمان .

ورغم أن عمر بن الخطاب قد استرضاه بعد ذلك . وأراد أن يؤكد عليه الحجة فاشتري
منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم . إلا أن هذا الحادث ترك فى نفسه أثراً
عميقاً . وزادت درجة توحشه . وازدادت درجة تباعده عن الاسلام . . لعله وجد السبب
الذى ينشده . . كأن يأخذ زوجته وابنته ويطوف أحياء العرب ، ويجلس فى أطرافها ،

ويطلب ألا يكلمه أحد . ولا يزوره أحد . ولا يتشعب أحد بيناته . . وكلما ذكر عمر ارتعدت مفاصله حتى بعد أن مات الخليفة . ازدادت أيضاً درجة بخله وأصبح يفزع من استقبال الضيوف ، وأخذ يتندر على سداجة «حاتم الطائي» الذي قاده الكرم اللاحق إلى الافلاس حتى أوشك أن يذبح ابنه ذات ليلة . . ورأى جثة أمه وهي ميتة . متبسة الأعضاء . تساءل : كيف يمكن أن تضاجع هذه المرأة أشراف القبائل . وكيف يمكن أن يكون هو سليلهم . . كانوا يقابلونه فيسألونه :

- يا حطيثة . . من أشعر الناس ؟
فيخرج لسانه كأنه لسان الحية . . ويقول :

- هذا إذا طمع .
ثم يهتف :

- إن اعوى في أثر القوافي عواء الفصيل الصادي . .
ويقول النقاد القدامى كعادتهم عندما يطلقون الأحكام القاطعة . . «لم تقل العرب بيتاً
أصدق من قول الحطيثة» :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه . .
لا يذهب العرف بين الله والناس . .
ويروون أن أحد أحبار اليهودية كان يستمع للشعر فلما ذكر أمامه هذا البيت هتف
مدهوشاً . .

- والذي نفسى . . بيده . . إن هذا البيت لمكتوب في التوراة .
وعندما جاءت النهاية كان قد أصبح شيخاً عظيماً . لم يبق فيه نشاط إلا لسانه . .
اجتمع قومه حوله . . قالوا :

- يا أبا مليكة (ومليكة هو اسم ابنته) . . أوص .
قال : ويل للشعر من رواية السوء .

قالوا : أوص رحلك الله يا حطيثة . .

- ابلخوا غطفان أن الشماخ شاعرهم هو أشعر العرب إذ يقول . .
إذا أنبض الرامون عنها ترثمت . .
ترنم ثكل أوجعتها الجنائر . .
قالوا : ويحك . أهذه وصية . أوص بما ينفعك .

- ابلغوا أهل ضباب أنه شاعر حيث يقول . .
لكل جديد لله غير أنفى .
رأيت جديد الموت غير للديد . .
قالوا : أوص ويحك بما ينفعك .
- ابلغوا أهل المرىء القيس أنه اشعر العرب . . حيث يقول .
فيالك من ليل كأن نجومه .
بكل مغار الفتل شدت بيدبل .
قالوا . . اتق الله . ودع عنك هذا . . هذا لا يغنى عنك شيئاً . . لكنه أخذ يتمتم بصوته الاحبش . .
- الشعر صعب وطويل سلمه .
إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه . .
قالوا يا أبا مليكة . . ألك حاجة ؟
- لا والله . . ولكن اجزع على المديح الجيد بمدح به من ليس له أهلاً .
قالوا : فمن أشعر الناس ؟ . .
أشار إلى فمه وأخرج لسانه وقال :
- هذا إذا طمع فى شيء . أو إذا استعبر باكياً . .
قالوا : قل لا إله إلا الله . .
فأشاح بوجهه . .
قالوا : ما تقول فى عبيدك ؟ . .
- هم عبيد . . أثنان . ما عاقب الليل النهار .
قالوا . . فأوص للفقراء بشيء .
- أوصيهم بالألحاح فى السؤال ، فإنها تجارة لا تبور .
قالوا . . فما تقول فى مالك ؟ .
قال . . للأنثى من ولدى مثل حظ الذكر .
قالوا . . ليس هكذا قضى الله جل وعز هن .
- لكن هكذا قضيت . .
قالوا : فما توصى لليتامى .

- كلوا أموالهم .. وانكحوا أمهاتهم ..
قالوا : فهل شيء تعهد فيه غير ذلك .
قال ..

- نعم . تحملونني على أتان . وتتركونني راكبها حتى أموت ، فإن الكريم لا يموت
على فراشه . والأتان مركب لم يمت عليه كريم قط .

كانت النهاية مضحكة بعض الشيء . حملوه على حمار وجعلوا يطوفون بين مضارب
الحى . يتبعه سرب من الأطفال المتصايحين والشيخ الذين يؤكدون أنها علامة الساعة .

واختبأت النسوة الحوامل حتى لا تنطبع صورته البشعة في أذهانهن .. وظل هو يعرف
بكل الأشعار التي قالها والتي حفظها حتى مات .



الرحيل إلى أرض تميم

ناديت عليك يا تميم في الآبار القديمة . فلا صدى . الربيع خال . والأحياء دراسة .
والصحراء صامتة . وكراهيقي لكم تملأ قلبي . إنني ثائه يا بنى يربوع . ضائع يا بنى دارم .
غريب يا حنظلة . فقدت هويقي عند أول بشر . ولم يزدن السفر إلا عطشا خرجت معكم في
الغارات . قتلت ولم أسر . فقسمت الاسهم وقت الغنائم وضاع نصيبي ذهب إلى
«الوقيط» فوجدت فرسان بكر ينسلبون جثث قتلاكم . وفي «جدود» لم أجد إلا الطيور
السوداء وقد أنخمها اللحم الميت . وفي «أباد» كانت كل الينابيع ملوثة . . وفي «قشاوة» .
«والوقى» . . «والشباك» . .

إني أكرهكم . خولتم كل الربوع إلى مواقع . وعيون الماء إلى غايء وهمسات العشق
إلى صبيحات انذار . فماذا يبقى في الرمل بعد عشرات السنين . وهل جاء ذلك اللفظ
الاسود اللزج إلا من عظام موتاكم ونخاع اعدائكم . . فلماذا لا تظهرون وتحدرون
نحوى كالسيل . تأخذون بمشورة أكبركم وتأتمرون بأمر أصغركم . تحاصرونني
وتجلبدونني . وتطلبون فديتي من حشاش الأرض . .

تميم من مضر . ومضر من نزار . ونزار من عدنان . تناسل الآباء . وتصارع الأبناء .
وتفرقت القبائل مع التضاريس . كانت تميم ثلث العرب . وجهها شطر الصحراء وظهرها
للخليج . أمامها قبائل ربيعة . . بكر وتغلب وشيبان . . وخلفها بضع من فقراء
الصيادين . .

كل صعاليك العرب قابلون . وسالوني في دهشة . ولماذا تميم وأنت تكرههم ؟
قلت . . لأنهم يتحركون خارج مثالية التاريخ . يحملون أخطاءهم الإنسانية ويرحلون .
يتصبرون انتصارات خاطفة . ويهزمون هزائم مرة . وقال لي الشيوخ العجائز . إذا اردت

تميمًا فتوجه إلى مغارات الملح . قلت في دهشة . . مغارات الملح ؟ . . في وسط الصحراء . . ؟ . . قالوا وهم يعثون في لحاهم . . مع تميم عليك أن تتوقع أى شيء . .

كنت أعرف ذلك . مع تميم عليك أن تتوقع أى شيء . عندما شعروا بالضعف وقرروا أن يدخلوا الاسلام . وتوجهوا إلى يثرب فقال كبيرهم : إن النبي يحرم الغزو : فماذا لو غزونا الأخيرة في الطريق ثم نعلن ثوبتنا . . وفي الطريق إلى يثرب غزوا إحدى القبائل . وقسموا الغنائم وجلسوا بين يدي الرسول . . سعداء . . شبعى . . وأعلنوا إسلامهم وهم يتنهدون في راحة . .

مع تميم عليك أن تتوقع كل شيء . . حين انقسم المسلمون وبدأوا عصر الشتات مبكرًا . تقابل جمع من الخوارج مع جنود الخليفة الأموي . وظلوا يتقاتلون النهار بأكمله . وأطبق عليهم ظلام الموت والسيوف مازالت تصطك . وقالت فئة منهم : ويلكم أما تملون القتال . قالوا : كلا حتى تملوا أنتم . وسألوهم : من أين أنتم . قالوا : من تميم . وتواصل القتال . .

مع تميم عليك أن تتوقع كل شيء . . يقاتلون في غير زمن القتال . ويهجمون لمجرد نزوة سانحة . ويهزمون قبائل مجتمعة . . ولكنهم ينهزمون شر هزيمة أمام بطن واحدة من البطون وهم الوحيدون منذ أن توالى الرسل والأنبياء الذين أخرجوا نبياً أنشئ . عندما جاءت سجاح بنت الحارث تهتف بهم . إنما أنا امرأة من بني يربوع . . وإن كان ملك فالملك ملككم . وكان كل واحد من تميم يعتقد أنه ملك في المنفى . وتبعوا سجاحاً دون وعى . كان النبي الحقيقي قد مات . وأخرجت كل قبيلة نبيها الخاص . ولكن النبي - المرأة خذلتهم عند أول منعطف . تقابلت مع مسيلمة الكذاب وقال لها . . « أتزوجك فأكل بقومي وقومك العرب . . » فتزوجته لأسباب بعيدة عن النبوة . وكان صداقها أن رفع صلاة العشاء وصلاة الفجر عن كاهل قومها . . وجاءت جيوش ابن الوليد واجتاحت كل شيء . . ومع تميم تتوقع كل شيء . .

الرحيل إلى مغارات الملح . .

بدأت رحلتى إلى مغارات الملح . لعل أحداً يدلنى إليهم . أشتعلم الدم في عروقي وأنا أواصل الليل بالنهار . كنت لا أتلفت خلفى حتى تتم سفرى . في الصحراء لا يلتفت إلا العاشق حتى يعود . كنت أفعل كل ما يفعله التائه . أقلب ثيابى وأصيح في اذن ناقتى . وأصفقه . واهتف . . . النجاة . . النجاة . الساعة . . الساعة . لعل أنجو من مغارات الصحراء . أعوذ بكل أصحاب الوديان . وكل ساكنى الهضاب . وأشعل ناراً لأترك ذكرى . .

وفي النهاية وصلت إلى مغارات الملح . تركت ناقتى وقناعى وسيفى الصدىء في

الخارج . ودخلت . . لم أتل سلاما . ولم أتل تعويذه . وحاصرتنى أعمدة الملح . كنت محملاً بصهد الصحراء . وبيعض من شمسها . . والمغارات مليئة برطوبة الزمن المتحجر هتفت يا تميم ثلاث مرات . فى الأولى جاوبنى الصدى كالبكاء وفى الثانية عوت كل حيوانات البرية . وفى الثالثة ظهر الفرزدق ؛ قبيح الوجه كما هو ، شاحباً كما لم يكن من قبل ، عباءته الدقيقة مغطاه بالملح والتراب . . قال فى هدوء كأنما كان يتوقع مجيئى .

- أنا دليلك إلى تميم . قبيلتى ومنفاى .
سرت وراءه صامتاً . آخذنى فجأة إلى عالمه الملحي . كأن مغارة الملح كانت موجودة فى داخل . كل شىء يصبح هشاً حين تلمسه . أشار الفرزدق بيده . جسد امرأة ممدد أمامنا . ذراعاه متقاطعان فوق صدرها والملح يحيط بها من كل جانب كأنه كس رمادى رقيق وقال فى صوت منهدج :

- هذه هى «النوار» زوجتى وابنة عمى المسكينة . تزوجتها رغماً عنها وليلة عرسنا هربت وأخذت أطاردها من قبيلة إلى قبيلة . . كل واحد جرؤت على إيوائها هجوته أشنع الهجاء . حاربت العرب كلهم بلسانى فلم نجد ملجأ إلا بيتى ولكن الموت أجارها . لم يرهبه هجائى . . ولم يستهوه مديحى . .

سرت خلفه صامتاً . لم يكن يبدو نادماً . كان تميمياً قحاً ، وغدا حتى النخاع . . أشار إلى رجل آخر نائم فى غلالة الملح الرمادية وقال فى همس خائف . .

- وهذا قطرى بن الفجاءة . من الأفضل ألا نتكلم عليه وإلا هدم الخليفة المغارات فوق رؤوسنا . .

بدأت أشك فى نواياه . لماذا كان هو التميمى الوحيد الذى بقى حياً وكيف قاوم الملح والرطوبة . أشار إلى رجل آخر مفتوح العينين ينظر إلينا فى حنق . . قال متوجعاً .

- وهذا جزير . عدوى وتوأم روحى . كنا نلتقى خلصة بعيداً عن الجميع نشرب سوياً ونتناشد الأشعار . فإذا افترقنا تهاجينا وتناقضنا كما يهوى العامة والسلطان .

لم يخدعنى صوته المتهدج . كنت أحس بتميم وهى تتنفس . تحتج على هذا التقدم الرسمى الباهت . تملأ المغارات بضجيجها وعنفها وخطائها البشرية . وتصنع من كل هذا شمساً صغيرة باهته . جاء عمرو بن يربوع . حكى لى قصة زواجه بإنثى الغول . كان سعيداً معها . وكانت هى لا تخشى شيئاً إلا برق السماء . ولكنها ذات ليلة فاجأها البرق فصرخت ، وفرت هاربة فى عرض الصحراء ولم يرها بعد ذلك . كان يتحدث عن جمالها الوحشى . وعشقها الملء بالشراسة . وجاء بشارة العنبرى الأعور حين حذر قومه من هجوم قبائل ربيعة فلم يصدقوه وخرقوا عينه الأخرى . ونهته متمم بن نويرة يبكي أخاه

مالكا . إن الشجاء يبعث الشحا . والعالم كله مغارة ملح واسعة . . كان مالك سيدا سمحا كريماً . وفي زمن الردة وقع أسيراً في يد خالد بن الوليد . وحدث الخطأ المأساوي وقتل مالك . وزادت فداحة الخطأ عندما تزوج ابن الوليد من زوجة المقتول حتى قبل أن تكمل عدتها .

كانت تميم تهض حيولهم تصهل . . يستعدون لبعث جديد ولغزوة جديدة . وصدى الطبول يتردد عبر المغارات الموحشة تختلط بأصوات الملح وهم ينفضونه من على ثيابهم . . وجاء إلى خيبر بن عباد . . امتشق حسامه وهتف في حدة .

- هل تذهب معنا إلى «المشقر»

ولم أجب . ولكن أصواتهم إرتفعت تهدر . انتقلوا من الصمت إلى الغضب في سرعة تميمية هائلة . . استفزتهم صرخة الحرب وهتموا جميعاً هيا إلى «المشقر» سوف نبدأ من هناك . . .

الرحيل إلى زمن «المشقر» .

على شاطئ الخليج ينتصب حصن «المشقر» . بلا شموخ ولا وقار . حصن بدائي من ترسبات البحر . والمحار الفارغ . والطحالب الصلبة والصخور الجيرية . بابيه الخشبي عليه سلسلة حديدية صدئة . والحصن كله مترب . فيه عقونة دائمة لنبعث من سردابه الممتد الذي لا يخلو من القتلى أبداً . وكان «المكعب» عامل كسرى على البحرين والشاطئ الشرقي للخليج قد آل على نفسه ألا يدع من تميم عيناً تطرف وجلس ينتظر مقدمهم من عرض الصحراء .

وكان «هوزة» عامل كسرى على اليمامة ينتظر قدوم القافلة السنوية التي يرسلها كسرى انوشروان إلى اليمن تحمل الأسلحة والأوامر الجديدة وحكام المقاطعات وكل ما يهم الحماية الفارسية التي تحكم جبال اليمن الوعرة . وخط سير القافلة السنوية لا يتغير . تخرج من المدائن في حراسة الاساورة حتى الحيرة . ويرسلها الملك النعمان بن المنذر في حراسة جنوده حتى تصل إلى اليمامة . فيحرسها هوزة وجنوده حتى تخرج إلى أرض تميم التي تتولى حراستها حتى حدود اليمن . ولأن تميمياً لا تدين بالولاء إلا لتميم فهي ولا بد أن تقبض ثمن هذه الحراسة .

ولكن هوزة لم ينس أبداً أن تميمياً قتلت أباه . وأنه عاجز عن أن يدرك ثاره . . وعندما وصلت القافلة تحمل الطعام والمال ثمناً لخفارة تميم ، قال للأكاسرة . .

- انظروا الثمن الذي تدفعونه لتميم فاعطونيهِ وأنا اكفيكم أمرهم وأسير بها معكم حتى تبلغوا ما منكم . .

ووافقه الأكاسرة . وجمع هوزة فرسانه ورفع الاعلام الفارسية . وسار حتى آخر أودية

اليمامة . ثم توغلوا في أرض تميم . ولكن الأنباء سبقتهم . حملتها ريح الصحراء إلى تميم
الترقية . أن يمنعوا من خفارة القافلة حتى اليمن فهذه أهانة . وإن تمتع عنهم الأموال التي
أرسلها كسرى فذاك شيء لا يرد إلا الدم .

وهجمت تميم في غضبتها العارمة . ضربت الأكاسرة . وقتلت الحرس . وسلبت العير
وأخذت هوزة أسيراً . وكان قائد تميم أكثم بن صيفى الأسدي بسنواته التسعين . ووجهه
المتغضرف المليء بالجروح جالساً في وسط المضارب يتطلع إلى هوزة . .

- أخذت أجر خفارتنا . وسلبت تميميا حقها . . وسوف تكون حياتك هي الثمن . .
ارتعد هوزة وشبح أبيه المهدر الثار أمام عينيه . قال

- فإن شئت افديت نفسي وعوضت خسارتكم
قال أكثم . . ليس أقل من ثلاثمائة بعير .

سار هوزة وسط فرسان تميم إلى هجر ذليلا . حوله بصع من الأكاسرة المهزومين
السرقي الثياب . وأخذت تميم كل ما في مراعيه من ابل . كانت ثلاثمائة يقصون ثلاثة .
ثم انطلق هوزة إلى المدائن مع الباقي من نجوا . راح كسرى يتميز غضباً وهو يتأمل
وجوههم المهرومة . قال لهوزة . . كم ولد لك ؟ قال : عشرة . . قال كسرى : فأبهم أحب
إليك ؟ . . قال : غائبهم حتى يقدم . وصغيرهم حتى يكبر . ومريضهم حتى يبرأ . قال
كسرى في سخرية .

- الذي أخرج عنك هذا العقل أعجزك حتى طلبت مني الوسيلة . . هؤلاء الذين قتلوا
أكاسرتي وأخذوا مالي هل بينك وبينهم صلح ؟
قال هوزة . .

- بيني وبينهم حساء الموت . هم قتلوا أبي . واقتادوني ذليلاً إلى بلدى .
- كيف لي بهم . .
- ان ارضهم لا تطيقها أكاسرتك وهم يمتنعون بها . ولكن احجب عيني الميرة فإذا
فعلت ذلك بهم سنة ، أرسلت معي جنداً من أكاسرتك فاقم لهم السوق . . فإذا أتوها
أصابتهم خيلك . .

. . كانت السنة مجدية . والمراعي مقفرة . والماشية هزيلة . والغارات لا تؤثّر أكلها .
وادركت تميم خطأها عندما منع كسرى الميرة عنها . لم يعد هناك أمل في أية مساعدة أو طعام
إلا أن تكون ذاكرة كسرى ضعيفة فينسى ويغفر ويرسل الميرة . . لكن الذي جاء هو هوزة
ومعه ألف من الأكاسرة . ذهبوا إلى «المشقر» ونودى في الأسواق والبطون والمضارب .

— إن كسرى قد بلغه الذى اصابكم فى هذه السنة وقد أمر لكم بميرة فتعالوا وامتاروا .

وصدقت تميم لأنها كانت تريد أن تصدق . وأنساها الجذب الحذر . هرعوا جوعى إلى «المشقر» ووقفوا أمام بابه المغلق . وجاءت أوامر الحرس ألا يدخلون الافرادى واحداً خلف الآخر . وفتح الباب فتحة ضيقة فدخل أولهم . ثم فتح من جديد ودخل الثانى . وفى الجو رائحة غريبة . خليط من سخونة الخليج وقيظ الصحراء . ودخل ثالث . لم يبق إلا الاحساس بالجوع . والخوف من فصل مجذب آخر . ودخل رابع . وخامس . وسادس . ولم يعد هناك من يحصى . والابل تثغو فى ضعف . . ما أغرب ذلك الشعب الذى يجعلهم يدخلون ولا يخرجون . . وآخر . . وآخر . . كان خبيرى بن عبادة يتأمل ما بقى حوله من جوعى تميم . . يدخلون ولا يخرجون . تأمل الشيوخ والأطفال . . يدخلون ولا يخرجون صرخ . .

— ويلكم . . أين عقولكم . . فوالله ما بعد النهب إلا القتل . .
جرى ناحية الباب . وإمتدت يد أحد الحراس يحاول أن يمنعه . ولكنه هوى بالسيف فقطع يد الحارس وقطع السلسلة التى على الباب . فإذا تميم رؤوساً مبتورة . ودماً على الأرض . وذبيحة مخدوعة . وإذا هوذه قد أدرك ثأره غالباً . . وصرخ خبيرى :
يا لتميم . . الفرار . . الفرار . .

— إلى أين . . ؟ . .
من الجحيم إلى الجحيم . . من المشقر الملىء بالجنث إلى المضارب المليئة بالارامل والثكالى . . إلى الصحراء وقبائلها المعادية . إلى أين . . ؟ . .

الرحيل إلى زمن «الكلاب» .
فى أول ليلة من ليالى الحزن جلسوا وسط المضارب الخالية . . بلا فرسان ولا ازواج ولا أخوة . وجلس حكام تميم السبعة واكثم بن صيفى وسطهم محطماً . . معنى الظاهر . . قال :

— أوقع بنا كسرى وأوهن قوانا . وإن الناس قد بلغهم ما لقينا وأخاف أن يطعموا فينا . وأنى قد قاربت المائة . وقلبى بضعة من جسدى نحل كما نحل جسدى . وبعد اليوم لن نقدر على الغزو . ولن يخرج للرعى إلا الفتيان . فليعرض كل واحد رايه فإنى متى اسمع الحزم أعرفه .

كانوا بقايا حطام . . يهلدون بلا جدوى . . واكثم صامت . حتى قال النعمان بن جساس . .

— لننظر إلى أى ماء نجتمع حوله . لا يعلم الناس أين هو حتى نفوى ونشتد ونضمم كل جروحنا . .

ووافق اكثم . رحيل شامل لكل ما بقى . لا يبقى إلا الطفل الخالى . إلى ماء يقال له «الكلاب» يحميه جبل عال . ويفصلهم عن بقية القبائل المعادية مغارة موحشة . حطوا رحالهم والتفوا حول بعضهم وتناشوا كل الخلافات القديمة والتفاخر الأحمق بالانساب وكان فى «الكلاب» نوع من العزاء لكل الأرامل والثكالى . . وهذا الزمان قليلاً وهدأت حدة القيظ . .

ومر بهم مسافر من ملحج . . اثارته رؤية الفتيات اللاتي يقمن بالرعى والابل التي بدأت تسترد قواها . وانطلق من فوره إلى قبيلته وهتف بهم . .

- هل لكم فى جارية عذراء ومهرة شوهاء وبكرة خمرء . تلکم تميم . . ضعفاء مطروحين على ماء «الكلاب» . .

كانت القبائل التي قد أنهكها البحث عن تميم قد وجدوهم أخيراً . ضعفاء كما لم يكونوا من قبل . وسارت الرسل من ملحج إلى قضاعه إلى بقية القبائل المتحالفة . صاح كاهنهم . لا تغزوا . . فلم يستمع إليه أحد . لا أحد يبالي بالنبوءات عندما تتعارض مع المصالح . . وهذه تميم . . مهيضة . . مكلمة . .

خرج اربعة من قادة القبائل اليمنية . كل قائد معه ألفان من الفرسان . ثمانية آلاف مجتمعة . ومعهم عبد يغوث . شاعر بنى الحارث ومارسهم . كأنه جيش وحده . وساروا جميعاً ييغون البقية الباقية من تميم . . وبدأت طلائع الجيش . فزعت تميم . لم تر من قبل تجمعاً بهذه الضخامة . كان اكثم ابن صيفى يحتضر . وتلفتت تميم فلم تجد غيره . . هرعوا إليه . .

- حقق لنا هذا الأمر فلنا قد رضيناك رئيساً . .
قال اكثم وهو يلتقط أنفاسه فى صعوبة :

- لا حاجة لى فى الرئاسة فإن الموت فى انتظارى . ولكن أشير عليكم . . لتنزل حنظلة بالدهناء . وسعد ورباب بالكلاب . . فإى الطريقين أخذ القوم كفى احدهما صاحبه . .
كانت هذه هى وصاياه الأخيرة . .

- اقلوا الخلاف على امرائكم . واعلموا أن كثرة الصياح من الغشل . يا قوم تثبتوا فإن احزم الفريقين الركين . وأتزرروا للحرب . وإدعوا الليل فإنه أخفى للويل . وإن عز أخوك فهن . البسوا جلود النمر والنبات أفضل من القوة . واهنا الظفر كثرة الأسرى . وخير الغنيمة المال . ولا ترهبوا الموت عند الحرب . فإن الموت من ورائكم . وحب الحياة لدى الحرب زلل . . ومن خير امرائكم النعمان ابن جساس .

وتقدم النعمان ليمسك يد اكثم ولكنها سقطت فى يده . باردة ميتة . لم يكن هناك وقت

للولاء . وملحج وقضاه واحلافها قد حاصروا الجبل . إستولوا على الابل والماشية وأسروا
الفتيات . وبدأت المعركة محسومة مقدماً . ونزلت حنظلة إلى الدهناء . وتوجهت سعد
ناحية الماء . وقال ضمرة بن لبيد لقومه بنى ملحج . .

- أنظروا وانتم تستاقون الابل . فإن أنت الخيل عصبا عصباً وثبتت الأولى للأخرى
حتى تلحق بها فإن أمر القوم هين . وإن لحق بكم القوم فلم ينظروا إليكم يريدون الابل ولا
ينتظر بعضهم بعضاً فإن أمر القوم شديد . .

وانحدرت ثميم . واكتسبت من إندفاعها سرعة السهم وحدته . . اخترقوا ملحجاً
وصفوفها حتى وصلوا إلى الابل ، وكل واحد يحارب كأنها معركته وحده في مواجهة كل
القبائل . وصرخ النعمان بن جساس .

- يا لثميم لا تقتلوا إلا فارساً فإن الرجالة لكم . .

ولكنه قتل في نهاية اليوم . وإنسحبت ثميم وباتوا طوال الليل يحرسون بعضهم بعضاً
وظنت مذحج أن الصباح الجديد سوف يحمل الهزيمة لثميم وفوجئت ثميم بنفسها وهي
تنتصر . حتى عبد يغوث سقط أسيراً في يد فقي صغير من بنى عميرة . ما لبث أن اقتاده
مسروراً إلى أمه . فرأت الأسير عظيماً جميلاً . فسألته : من أنت ؟ قال عبد يغوث في
خجل . أنا سيد القوم . وضحكت الأم وهي تقول : قبحك من سيد قوم حتى أسرك هذا
الاهوج . وتواصل القتال . كان ثمياً يتضاعف عددها . كان كل حواملها يلدن ويدفعن
بأطفالهن إلى المعركة . . فيكبرون وينضجون ويتشجون بدم القتلى . وصرح عبد يغوث .
يا بنى ثميم . اقتلوا قتلة كريمة . . اسقوني خمراً ودعوني انح على نفسي . وضعوا أمامه دنان
الخمير . . وقطعوا عرق الاكلحل . . وتركوه ينزف ويموت ويرثى نفسه . .

الا لا تلومان كفى اللوم ما بيا
فما لكما في اللوم خير والاليا

. . كانت ثميم تنتصر . انتصاراً رائعاً وغريباً . والملح يدوب في مغارات الملح وعبد
يغوث يموت . وفلول ملحج تنسحب . وأنا اعشق ثمياً . قنعت من رحلتي بالعشق بعد
الكراهية . لا أبالي ان هزمتهم بطون عامر . أو شردت خيامهم حرب الردة . . لا أبالي
باخطائهم وضعفهم الانسان وكراهية المؤرخين لهم . الطبرى والاصفهانى وابن الاثير
والمسعودى . . فأنا اعشقهم . اعشق أخطاءهم الرائعة . وكثرة الثوار والمتمردين منهم
وثورتهم على اكفان الملح وكراسي الحكم واستفزاز الرواة ومنتحل الأشعار . اعشقهم رغم
حصار التاريخ الرسمي . ولا أتوقف عن السفر إلى أرض ثميم .

نائلة : إنهم يقتلون الإمام

قال لما أبوها قبل لحظة الرحيل :

- تكحل وتطيبى بالماء .. كان زيتك هى الليل .. وكان عطرك هو المطر .

صرخ حادى القافلة بالعبر أن تنهض وبالحيل أن تصهل . وبالرماح أن تشرتب .
ضم حوضن الصحراء «نائلة» فأدركت كم هى غريبة . تهتز صعوداً مع حركة الناقة كأنها
الصخر يتنفس . كان المطر يقطر دما . والمكاحل نصال سكاكين . والقافلة ترنحل من
الشمال للجنوب . تطلعت خلفها فلم تجد إلا أرضاً قاحلة . تنهدت .

- ما أبعد الشقة بين الثلج والرماد ...

القمر رغيف يابس . الاحلام شذرات من المخاوف . الأيام والشهور الصحراوية
متشابهة مضيئة . للماء ملوحة الرمل . وللريح نذير الموت . فقدت أغاني الرعاة . حتى
الكوفة أصبحت حلماً شاحباً من أحلام الطفولة . وعندما أشرقت الشمس هتف الغلمان
والجوارى

- بشراك . بشراك . سوف تكونين زوجة الخليفة .

مدينة الرسول المنورة على حافة الأفق . قمم من النخل الأخضر كلمة عذبة لا يتكرر
قولها . فكرت نائلة . هذا هو موطنى الجديد : ريح رخية . وعقود تنفرط من الطيور
البهضاء كأنها ليست فى الصحراء . وكان هذا السلام السماوى لم يقدر إلا لهذه البقعة
الصغيرة وسط الجبال المتجهمة . . خيم الصمت على كل من فى القافلة . . تناهت مهممات
الناس والاسواق مثل أدعية متصلة . كان للبلدة تفردا وقوة حضورها ؛ لا يشبه سكنها
سكون . ولا ريحها ريح . كأنها يقظه مفاجئة بعد سبات الصحراء الطويل . قالوا لها :

- حمدا لله على سلامتك . إستعدى حتى تزنى للخليفة ..
.. لكن أحداً لم يجرؤ على إخبار الخليفة أن عروسه قد وصلت .. كان عثمان بن عفان حزينا كما لم يكن من قبل . يحدق في البئر العميق الضحل المياة . تضطرم في أعماقه حركات الغواصين كشهقات مخنوقة . تأمل عثمان الأثر الباقي من الخاتم . حز باهت في أصبعه الأوسط . سوف يختفى بعد مدة . كما اختفى الخاتم . ارتفع رأس أحد الغواصين من فوق حافة البئر الصخرية . حلق فيه بلهفة . لكنه قال مثلما قالوا :

- لا أمل ...

همهم بقية الصحابة في خيبة . وزعق عثمان :

- واصلوا البحث ، لا يجب أن يضيع هذا الخاتم

ولم يجد الغواص بدأ من المبوط . والصحابة بدأ من الانتظار .. وسار موكب نائلة وسط الشوارع شبه الخالية . يرافقها طائر الحزن حتى بيت الخليفة . ولم يكن في استقبالها إلا بعض العجائز .. سألت عما حدث .. قالوا في وجوم :

- سقط خاتم رسول الله في بئر أريس .

كانت ما تزال غريبة . لكن الحزن هزها . كان الخاتم هو إشارة الحكم . يوقع به على كل مكاتبات الدولة . ورثه أبو بكر عن الرسول . وأخذله عمر عن أبي بكر . ولبسه عثمان وبايعته جموع المسلمين . لكن بئر أريس الضحل ابتلعه وأخفاه للأبد ، مقدمة بسيطة لكل الأحداث المأساوية .. وبدأ يوم زفافها الأول بارداً وكثيباً ...

وفي المساء التالى جاء الخليفة . لم تكن رائته ، ولم يكن قد رآها أبداً . وتم زواجهما ببساطة أسرة . كتب عثمان إلى والى الكوفة سعيد بن العاص خطاباً يقول فيه :

- بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد . فقد بلغنى أنك تزوجت امرأة . فاكذب إلى بنسبها وجمالها ..

ورد سعيد يصف المرأة التى تزوجها . بيضاء .. مديدة القامة . حسنة اللسان . معروفة النسب .. وكتب عثمان إليه . إن كان لها أخت فزوجنيها . وكانت الأخت هى نائلة بنت الفرافصة خطبها سعيد وحملتها القافلة . وجلست أمامه مبهورة . ترقبه حاسر الرأس . لامع الصلعة . لم تصدق أن يشع كل هذا الصفاء من إنسان واحد . كان وديعاً متعباً . أضنته أشواك الحكم . ومتاعب الدولة التى تتسع مثل اختطوط وتلتهم كل أجزاء العالم القديم . أحست أنها لم تأت من الكوفة عبثاً . إنه فى حاجة إليها كما أنها فى حاجة إلى ظله . حاول أن يبتسم رغم كل ما يشعر به من مرارة .. قال :

- أما أن تقومى إلى .. أو أقوم إليك ...

قالت :

- والله ما تجشمت إليك من المسافة أبعد مما بينى وبينك . بل أقوم أنا إليك
جلست بجانبه . مسح رأسها ودعا لها بالبركة .
لكن أيام نائلة لم تكن سهلة

في الماضي كانت تعيش في بيتها الصغير بالكوفة . لا تهتم إلا لفئات الاحاديث ،
تخضع حياتها لناموس الحياة اليومية المتكرر . لكنها أصبحت الآن في قلب الدولة . تسمع
في غرفتها وشيش الأقطار البعيدة . وتدخل أخبار الحروب والهزائم والانتصارات مع ملح
طعامها . . .

كان الامام شيخاً عجوزاً . والدولة فتية تموج بالمحاربين الأشداء . وسط عالم متآكل .
يختلط الطموح فيه بنزعة الاستشهاد والقداسة الدينية بالعصبية . وعندما تفتقت بذور الفتنة
لونت النجوم البعيدة بلون الدم . كان ابن سرح والى مصر يواصل فتح الفريقية ومعاوية
يجهز الأساطيل لغزو قبرص . وسعيد بن العاص يجهز على ما بقى من دولة الفرس . وكان
عثمان ينسى أنه قد أصبح خليفة . يستيقظ داخله الرجل الموسر القديم الذى يهب أى
شئ وكل شئ عن طيب خاطر . وتحولت هذه الهبات إلى أخطاء قاتلة . كان بنو أمية
بشراهم المعهودة قد أحاطوا به كديدان العلق . يريدون مالاً وولاية وأرضاً . . كان
الاسلام قد أصبح ارثهم . . وهو يهب . يصل أرحامه كما يعتقد . لا يعلم أن الزمن قد
تغير وأن لكل شئ حساباً . . حتى سماحته وكرمه . .

توالى الاحداث الصغيرة وتراكمت . اختلف مع خازن بيت المال حول مبلغ كبير كان
يريد أن يهبه لمروان بن الحكم . قال للخازن غاضباً : أنت خازن عندنا . قال له الرجل
بهذوء : إنما أنا خازن المسلمين . وعلق المفاتيح على منبر الرسول واعتكف في بيته . وبدأت
المظالم ترد على الخليفة كل يوم . تشكو الولاة والعصبيات . وتعودت نائلة أكرام الخطابات
المكتوبة على أرفاق الجلد يظل الخليفة يقرأ فيها حتى الصباح ، ثم يكتب للولاة بمحذرهم
ويهددهم ويطلب منهم أن يعدلوا . لكنه ورغماً عنه كانت هناك طبقة جديدة تنمو وتشتد
وتمل شروطها . كلما مات شهيد في غزوة قبضوا هم الثمن دنائير . منذ أن استن قانوناً يبيع
لمن يملك أرضاً في الأقاليم المفتوحة أن يستبدلها بأرض في الحجاز برز كبار الملاك كالغربان .
يجمعون الأرض للأرض . ويشترون العبد للعبد واحتل ميزان العدالة الدقيق . . ألفت
نائلة مذعورة على صوت أبى ذر الغفارى وهو في طريقه للمنفى . وحيداً كما قدر له . يعيش
وحيداً . ويموت وحيداً . ويبعث يوم القيامة وحيداً .

وعندما أصبر عثمان على نفيه لم يقبله أى من الولاة . تحول الصحابى القديم إلى لعنة
يخشىها الجميع . ولذا اعتكف في قرية صغيرة حتى مات منسياً ودفن في قبر مهجور . وقال
عثمان لنائلة حائراً :

- لماذا يفعلون ذلك !

لقد وسع للناس في أرزاقهم وضيق في رزقه . أقام المآذب للجوعى . دفع دييات القتل . وسعى جاهداً في جمع نسخ القرآن ليصنع نسخة واحدة يتفق عليها كل المسلمين . لكن بنى أمية ظلوا دائماً نقطة ضعفه . لم يهذب الاسلام شيئاً من شراياتهم للحكم . ومن الكوفة بلدها البعيد جاءت أنباء أخرى .. اختلف الوالى سعيد بن العاص وزوج أختها مع بعض وجهاء الكوفة حول فضل قریش على غيرها من القبائل . لكنهم ردوه عن ذلك بشدة . قالوا ليس لمسلم فضل على آخر . وتطور الأمر حتى اشتبكوا مع صاحب الشرطة وبعض الخدم . وبعث سعيد إلى الامام يطلب منه أن يسمح بنفيهم من الكوفة . وكانت هى المرة الأولى التى ينفى فيها مسلم عن أرض الاسلام . نفاهم إلى دمشق حيث سجنهم معاوية وعاملهم أسوأ معاملة . ثم ردهم للكوفة . ثم أعيد نفيهم للجزيرة . وتواصلت حلقة الاهانات . وعندما عادوا إلى وطنهم كانت جروحهم قد أصبحت جروحاً في جسد الدولة . قال لها معاوية معاتباً :

- أرايت ما فعل أهل الكوفة ... !

قالت مهونة :

- أنا أعلم الناس بهم .. لا تأخذهم بالشدة وأنت على العفو أقدر ...
جاءت أختها هند مع زوجها لزيارة المدينة . جلس سعيد مع الامام يقدم له آخر تقارير الفتنة والحرب . وجلست الأختان معاً تستعيدان ذكريات الطفولة في طرقات الكوفة . سألتها ...

- ماذا يحدث هناك ... !

قالت الأخت في خوف :

- كان الموتى يستيقظون وكل الأحفاد القديمة تزدهر ...
وقال عثمان لسعيد :

- عد إلى الكوفة وخذهم بالهواذة .. ما جدوى زيادة المنفيين والقتلى !

وبعد أيام رحلا . لكنهما لم يستطيعا العودة للكوفة . كانت سيوف المنفيين في انتظارهم . قالوا له . لقد عزلناك واخترنا والياً غيرك .. وعاد سعيد مقهوراً . وخضع عثمان لما طلبوا وولى أبا موسى الأشعري . لكنهم صنعوا سابقة خطيرة . أصبح من المخيف تصور الأيام المقبلة . عندما تأخذ كل ولاية خليفة المسلمين قسراً وتفرض عليه رأيها .. لقد تهددت القدسية الدينية التى كانت تحيط بالخلافة وأخذ الصراع طابعه السياسى والاجتماعى واضحاً .

وامتد جبل الفتنة إلى مصر . وقال عثمان فى أسى :

حتى ابن أبي بكر يقف ضدى

رأت نائلة الشيخ وقد تضاعفت آثار السنين على وجهه . تحول الصفاء إلى نجاheid هائرة
والسلام الذى كان يكسبه من المدينة ، إلى هذيان ورؤى مؤرقة . أصبح يعتزل الناس
ويترك الصلاة ليقوم بها على بن أبي طالب . وترتفع درجة حرارته ويهدى . ونائلة ساهرة
تضع خرقاً مبللة فوق جبينه . . يرفع أصبعه نحوها ويتف متأسياً :

- ليتنى ما فقدت الخاتم . . كأنه سلبنى شرعيتى .

كان محمد بن أبي بكر قد إنحج إلى مصر غاضباً . . كان يطمع فى إحدى الولايات لكن
الامام الشيخ لم يستجب له . . وما ضاعف غضبه أن رأى بنى أمية ومن هم أقل منه ومن
أبيه سبقاً للإسلام يظفرون بأرفع المناصب . وعثمان يضمن عليه . وهكذا أخذ يؤلب
المصريين ضد الوالى والخليفة وكل بنى أمية . وضج ابن سرح بالشكوى . لكن ماذا يفعل
عثمان مع ابن أبي بكر الخليفة الأول وشقيق عائشة زوجة الرسول . . قال له على بن أبي
طالب :

- إعتزل . . .

قال فى حسم :

- ما كنت لأخلع قميصاً ألبسنيه الله . . .

وبدأت حركة محمومة من المجادلات . جاء الولاة من كل الأقطار وتناقشوا . وجاءت
وفود المسلمين تعرض مطالبها . واختلف الصحابة كما لم يختلفوا من قبل . . كل إنسان له
مطالب وكل المطالب متعارضة . وعرض معاوية على الخليفة أن يصحبه إلى دمشق حيث
يبقى فى حماية جنده . . لكنه رفض . .

- ما كنت لأستبدل دار الهجرة بدار أخرى . . .

وأطلق معاوية عدة تهديدات جوفاء لكل من يتعرض للحياة الخليفة ثم وعده أن يرسل له
النجدة والمداد عند تعرضه للخطر . . لكنه كان أذكى من أن يفعل ذلك فى الوقت
المناسب . .

وكالعادة وافق الخليفة على شروط الثائرين . ومر العام ولم يتغير شيء . واستشرى بنو
أمية . وضم معاوية بقية ولايات الشام . إنتشر المحرضون فى طول الدولة وعرضها .
الصحابة القدامى مثل ياسر بن عمار وأبناء الصحابة مثل محمد بن أبي بكر . والموالى
والداخلين حديثاً فى الاسلام مثل اليهودى إبن سبأ وحتى عبد الرحمن بن عوف وكان على
فراش الموت قال لعل :

- إحمل سيفك وأحمل سيفى وتعال نجاهده . .

ثم عاود الثائرون زحفهم على المدينة . من مصر والكوفة والبصرة واليمن . كل من

يحمل شكوى أو مظلمة أو حقدا قديما جاءوا هذه المرة لا ليتناقشوا . ولكن ليستولوا على المدينة عنوة . تبدد السلام السماوى الذى شعرت به نائلة فى يومها الأول . فرت الطيور وهى تطلق صيحات الفزع . وخرج أهل المدينة المهاجرين والانصار . ليقفوا أمامهم . لن تسقط مدينة الرسول تحت السيوف أبداً . رغم معارضة البعض منهم لعثمان . وتعاطف البعض مع الثائرين . إلا أنهم ظلوا واقفين أمامهم حتى اضطروهم للتراجع . . أو تظاهروا بذلك .

لكن أهل المدينة ما لبثوا أن استيقظوا والتكبيرات تملأ الشوارع . . فوجثوا بالشوارع وسطهم . إحتلوا مدينتهم دون أى مقاومة . وهتف المنادى :

- من لزم بيته فهو آمن . . .

وبدأت أيام الحصار الخمسون حول بيت امام المسلمين وخليفتهم عثمان بن عفان . . .

كان الحصار هو اليقظة اليومية على صبور الأحجار ترتطم بالنوافذ والأبواب . . وكان الحصار هو وجوه الغوغاء وهى ترمى الخليفة بأفدع الكلمات وتدوس بيئته تحت النعال . وكان الحصار هو الخطر كل لحظة من سهم طائش أو عدو مترصد . . وكان الحصار هو إحساس الغربة العميق والخوف الغريزى حتى من عيون الأصدقاء . . وكان عثمان هادئاً . . هدوء من أعد نفسه لهذا المصير . ظلت نائلة تتوسل إليه . . الأمر مازال فى يدك . أنت الامام . إبعث للأمصار حتى تأق بالنجدات . وفى فناء الدار توفز بنو أمية وأيديهم على مقابض السيوف . قالوا : نخرج إليهم . قال عثمان عاتباً : كيف يسيل دم الأخوة على أرض النبوة . . سوف أخرج إليهم توسلوا إليه ألا يخرج قالت نائلة :

يا سيدى أنت عجوز وهم قطع أعماء الغضب . وكانت دمدمات المحاضرين مثل حيوان شرس . زحف عبر جوع الصحارى . لكن عثمان خرج . وقف هادئاً أمام البيت كأنه إزاء يوم عادى من أيام الحكم . صمتوا ، هبطت أيديهم بالسيوف . سار إلى المسجد فساروا خلفه . إعتلى المنبر . أحس بزفرائهم تبدد كل ما فى المكان قدسية . هتف بهم . . .

- امحوا الخطأ بالصواب وعودوا إلى عقولكم . إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . .

إنساب صوته مؤثراً . يهدد ويلين . يحاول أن يوقظ فيهم عهد الولاء الذى نسيوها لكن الصباح الجليل كان قد تحول إلى شيخ . والشيخ إلى حاكم . والحاكم قد أخطأ . نهض أحدهم وزعق :

- يا عثمان إنزل لنحملك على الابل ونسيرك إلى جبل الدخان كما سهرت خيار الناس . .

ادرك عثمان أنه قد فشل . هتف بهتق :

- قبحك الله

امتلاً المسجد بالتهديد والتوعد . والامام صامد حتى في وجوه الاعتراضات غير اللائقة . قال . . أنا خليفة الله . ورفيق الرسول وزوج ابنتيه . لكن شيئاً لم يشفع له . نهض جهجاه بن سعيد الغفاري ونزع العصا التي كانت في يده . كانت عصا الرسول . أخذها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان . لم يبال . كسرها على ركبتيه . حاول البعض الدفاع عن الخليفة . لكن الثوار أمسكوا الاحجار وأخذوا يتقاذفون . شهد المسجد معركة غريبة أهلك فيها كل شيء . هوى حجر ضخم على رأس عثمان . غمر الدم وجهه وسقط مغشياً عليه من فوق المنبر .

شاهدته نائلة من الثالثة معمولاً على أيدي الرجال . صرخت : لقد قتلوه في المسجد . لكنه كان مازال يتنفس . مسحت الدم من على وجهه . رأتهم يتقاطرون خلفه . ويعاودون محاصرة المنزل . . صرخت فيهم :

- يا قتلة لو كان رسول الله حياً لقتلتموه . . .

هرع على بن أبي طالب . أخذ يعنف المحاصرين دون جدوى . كلف الحسن والحسين أن يقفوا داخل البيت للمشاركة في حمايته . تطوع أيضاً عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وقفوا يحمسون جسد الامام المثخن بالجراح . أصبح الجرح كبيراً في جسد الدولة ولأنها كانت فتنة كان التزيف غزيراً .

أفاق في المساء . بدأ يتمالك قواه . توسلت نائلة . .
- نهرب يا سيدى . لقد تركك أهل المدينة فريسة سهلة لهم .

ابتسم وربت على رأسها :

- إن لم يكن هناك مفر من الموت فما أحقه بجوار رسول الله .

ثم سرت شائعة بين الحاضرين أن الامام يرأسل الأقطار حتى يطلب النجدة . . ازدادت قبضة الحصار . منعوا الخليفة من الدخول والخروج . كلفوا من يؤدى الصلاة بدلاً منه . وكانت المدينة تسبح في جو غريب من اللامبالاة . الصحابة القدامى لزموا بيوتهم ولم يبدوا أى رأى . الانصار كل من مر منهم بالمتزل أدار وجهه للناحية الأخرى . كأنه لا يرى . حتى عندما حان موسم الحج . وتقاطر الحجيج . طافوا البيت وزاروا المسجد وتطلعوا لما يحدث في بلاهة شديدة أشبه بالتواطؤ . . لم يخرج الخليفة للحج كالعادة المتبعة ، كلف ابن عباس وحمله رسالة يقص فيها ما حدث ويتهدده . . لكنهم سمعوا الرسالة وهم يعضغون التمر . وأكملوا المناسك وانصرفوا كأن لم يسمعوا شيئاً .

ثم منعوا عنه الماء والطعام . وظل والى مكة أقرب الولاة إلى المدينة يستمع إلى هذه التفاصيل اليومية ويبدى دهشته من تقلب الدرر . وابن سرح والى مصر الذى خرج معظم الثائرين من عنده لم يكلف خاطره بالاستفسار عن غايتهم . . ومعاوية هادئاً، ينتظر الفرصة أن تواتيه حتى يبكى ويثار فينال ثمن البكاء والثار . . كان هناك تواطؤ جماعى لأغتيال الامام المعجوز . .

وعندما اشتد به العطش . توكأ على كتف نائلة وصعد إلى سطح المنزل . شاهد الوجوه الغاضبة تترصد أنفاسه . قال فى أسى :

- لقد اشتريت بئر رومة من مالى وجعلته سقاية للمسلمين وها أنا أحرم من مياهه واشتريت أرضاً ضممتها لمسجد الرسول حين ضاق بالمصلين وأنا أول مسلم يمنع من الصلاة فيه . . .

كان يرى نفسه . شعرت نائلة بالحزن يعتصر قلبها . هذه الجنة التى بشر بها . . كم عليه أن يتحمل فى الطريق إليها من العذابات الأرضية . عطشاً وجوعاً وقهرأ . حاولت أم حبيبه زوجة الرسول أن تحمل لهم بعضاً من الطعام . لكن الثوار ضربوا بغلتها وأوشكوا أن يسقطوها على الأرض . جاء على غاضباً صرخ فيهم :

- إن الروم يأسرون فيطعمون ويسقون .

وراحت صرخاته هباء . تحولت نزوات الحقد إلى اصرار وحشى للتدمير . وظلت الأحجار والسهام تهمل عليهم كأنها حقيقة أزلية . وجاء صباح اليوم الخميس . شاحباً . بلا شمس . وهو حدث نادر فى الصحراء . حتى أن لون الرمل كان رمادياً . واستيقظ عثمان وقد نذر أن يصوم يومه . ابتسم فى وجه نائلة وقال فى وداعه

- اننى مقتول اليوم

قالت بفزع : بل يقتل عدوك يا أمير المؤمنين .

- جاء رسول الله وأبو بكر إلى فى المنام . قال لى . . افطر معنا اليوم يا عثمان . . فى الأرض صومى وفى الجنة سيكون افطارى إن شاء الله

تعالت ضجة فى الخارج . استأذن أحد المدافعين فى الدخول قال بفرح :

- يا مولاي . الامدادات على مشارف المدينة .

لكن عثمان كان يشعر بالمرارة العميقة :

- قضى الأمر . هل تذكروا أخيراً أن لهم اماماً مهذور الدم . . إزدادت حركة الثوار العصبية . نفثوا عن حنقهم بالأحجار والسهام ومحاولات تسلق

جدران البيت . كانت الأنباء قد وصلتهم أيضاً ویدت رغبتهم المحمومة في الاجهاز على
الفریسة . قالت نائلة :

- ابعت إلى ابن أبی طالب لعله يتفاهم معهم . .

لكنهم كانوا معزولين . المدينة والأمصار وكل من في العالم ليس له وجود . والدم يخلق
جوعاً لا يشبعه إلا نهش اللحم الحی . صرخت وهی تشاهد أجسادهم تتلوی صاعدة على
جدار البيت . أسرع ابن الزبير وأخذ يقطع الحبال . إندفعت موجة محمومة لترتطم
بالباب . أنحنوا على جسد عبد الحكم بن مروان ویدا على وشك الموت ، وكانت الصحراء
والمدن والأقطار المفتوحة والولايات والقصور هادئة ساكنة . . . قال عثمان بمرارة النبوة
الآتية :

- لئن قتلونی لم یصلوا بعدی جميعاً أبداً . . ولم یقاتلوا عدواً جميعاً أبداً . . .
وظلت حركات المهاجمين كاللوح المتلاطم . تود لو تقتلع البيت من أساسه . تساءلت
نائلة . . هل نستطيع الصمود حتى تأتی النجدات . فوجئت بالدخان يتسلل ويملا الفناء .
صرخت :

- إنهم يحرقوننا . .

أشعل المهاجمون النار في كل الأبواب الخشبية . أتت عليها بسرعة عنيفة . أصبحت
كل النوافذ عارية . تلاحم الجميع في قتال وحشی زاد من ضراوته أن الدخان كان يخفي كل
شيء وعثمان يصرخ أن يكفوا . فتح المصحف وأخذ يقرأ لعل هناك منفذاً . رقية تبعد نذر
الكارثة . جلست نائلة عند قدميه وهی تبکی . ثم حدثت المفاجأة من الخلف . فتح عمرو
بن حزم باب خوده كانت تصل بينه وبين بيت عثمان وتدفق الناكرون . دأبتهم الأقدام مثل
ديبب القدر وصراخ الظفر الوحشی . نثرت نائلة شعرها فزعاً . صرخ فيها عثمان :

- خذی حمارك . فلعمري ما دخولهم على أعظم حرمة من شعرك . .
كانت السيوف مشرعة فوق رؤوسهم . قال أحدهم :

- يا عدو الله

رد عثمان بهدوء . أنا عبد الله وخليفته . .

هوى السيف . رفعت نائلة يدها تنقيه . بتر السيف أصابعها في سرعة خاطفة .
إنفضت من الألم . . تناثر شريان الدم على وجه الخليفة ولحيته . قبل أن يتحرك هوى سيف
آخر في منتصف رأس الخليفة ، شق مقدمة الأنف . . همهم بكلمات متعثرة لعلها كلمات
الاستشهاد ، انكفأ فوق المصحف المفتوح أمامه . دمدوا في نشوة . .
- سوف نقطع رأسه ونرفعها على أسنة السيوف . .

لكن نائلة رغم التزيف والالم كونت بجسدها حاجزا فوق وجهه المشجوج ورقبته المهتدة بالقطع . حاولوا ازاحتها . أخذوا يضربونها بالنعال . مزقوا ثيابها حتى نعرى ظهرها . . وفي الخارج عربدت الوجوه الشرسة . .

- قتل عثمان . . . قتل ابن عفان . .
توقفوا مبهورين : شاهدوا الدم والحريق والقتل . . ذنبهم وعارهم . . تبدد الدخان فكشف عن كل شيء . الرمل الرمادي المشيع بالدم . ونائلة تقف بثوبها الممزق وضفائرها المحلولة أسيرة رعب لا نهائي ، وعندما صرخت تعثر البعض وهم يفرون وأجهش البعض الآخر في البكاء ، وكانت الجثة مسجاة أمامهم . . دم حرام وجريمة لا تحل لأحد
كتبت نائلة إلى معاوية . . « وإن أمير المؤمنين بغى عليه وقتلوه غيلة . . » .

دثروا جثته في ثيابه القديمة . وخلعت قميصه الملوث بالدم وكتبت . . « فوطئنا وطئا شديداً . وعرينا من ثيابنا وحرمة أمير المؤمنين أعظم . فقتلوه في بيته وعلى فراشه » وسافر القميص إلى الشام وحين صعد معاوية إلى المنبر وفرد القميص أمام المصلين تناثرت منه أصابع نائلة المقطوعة وكتبت . . « ورحم الله عثمان ولعن من قتله وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والدلة . . » .

وكان دم الخليفة مهدرا . لا يحق لأحد أن يستحله . . لكن النبوءة تحققت منذ أن قرأ معاوية خطاب نائلة من فوق المنبر . منذ سارت الجيوش وتقاتل الأخوة . . وسال الدم بلا قضية وبلا ثمن . وامتزجت كل مشاعر الحب المضطرم بالكراهية الطاغية . . منذ هذا اليوم البعيد الموغل في القدم ونحن لم نقاتل عدوا جميعاً أبداً .



عمر بن أبي ربيعة محاولة . . لتشخيص حالة

هذا هو الشاعر . فتي قریش المخزومی . أشعرها وأشدّها فسقا . ثمانون عاما قضاهـا
علـ ظهر الصحراء . فتكـ منها أربعین ونسكـ منها أربعین . تقلبـ مثل رمیة من رمیات
الزهر . تختلطـ علیـه وفي داخله وجوه الخیر والشر . إرتفعـ فی السـماء فكان شهاباً . وهوی
حجراً أصمّاً ذهب بددا فی الصحراء . لم یختلفـ حول شاعر کما اختلفـ من حوله . أنکروه
وإستعاذوا من فسوقه وحفظوا شعره وتمثلوا به . وهو ساکن . لا تثيره الحروب والفتن . لا
تجره دوامة الصراعات السیاسیة . لا یستشار إلا عندما یلمح امرأة جمیلة . أو یسمع
أوصافها . أو یذكر اسمها فقط أمامه . إن حواسه کلها تستفز . وقریحتـه تمور کالبحر
الصاحب .

مات عمر بن الخطاب فی لیلة میلاده . وإغـتیل عثمان وهوی العاشرة . وقتل علی وهو
فی الثامنة عشر . وهدمت الکعبة علی رأس ابن الزبیر . وسار الحسین إلى قبره فی کربلاء .

قال الأقدمون . . « كانت العرب تقر لقریش بالتقدم فی کل شیء إلا فی الشعر . حتی
کان عمر بن أبی ربیعة فأقرته لها ولم تنازعها فی شیء » . لكن هاشم بن عروة یحذر کل
الآباء . . « لا ترووا فتیاتکم شعر ابن أبی ربیعة لا یتورطن تورطاً » . وقال حماد الراویة عن
شعره . . « إنه الفستق المقشر » . . وأقسم أبو القوم الأنصاری أنه « ما عصی الله بشیء کما
عصی بشعر ابن أبی ربیعة » . « وأفاض مصعب بن الزبیر فی الحدیث عنه کأنه جماع أشعار

العرب » سهل وقول . قاسی الهوی فاربی . وأعلن الحب وأسر . ویطن به وأظهر . وقنع
من الرجاء بالوفاء . وأعلی قائله . واستبکی عاذله . وأحسن التمتع . وأنطلق
القلب . . ولا یکف مصعب عن اضافة النعوت . ولا یکف الآخرون عن نقله ومدحه
وتبقى روح ابن أبی ربیعة قلقة لا تجد من ینصفها دون مبالغة . .

المحدثون أيضاً أشد حيرة . طه حسين لا يراه منفصلاً عن عصره . ثمرة نبذة لمجتمع لم تكتمل أركانه اختلطت فيه البداوة بالبدخ . واستغلت فيه المقدسات الدينية من أجل جمع الأموال . جاءت الثروة والرفاهية والجوارى وأقامت ضياعها على الرمل فسلبت الصحراء شدتها وشغفها . وولد الفرسان الناعمون . ركبوا البغال بدلاً من الجياد . وتقاذفوا بالورد لا بالسهام . .

وحاول «العقاد» أن ينفذ خلف جلدته . تعامل معه بترفع شديد كأنما يأنف من الكتابة عنه . يرجع كل ما يحيط بحياته من ملاسبات إلى طبيعته . حقاً إنه يغازل الحسان . ويطلق شاربته ولحيته كما يفعل رجال عصره . لكن كل مغامراته تعويض في الوهم . وكل أشعاره أكاذيب جدلة الكلمات . إنه فقط «يصف ويقف . يحوم ولا يرد» .

سأله سليمان بن عبد الملك :

- يا هذا . . ما يمنعك من مدحنا . . ؟ . .

قال عمر في إيجاز . . إلى لا أمدح الرجال . . إنما أمدح النساء . .

إن العالم بغير نساء ليس هو العالم . بدونهن تصبح الصحراء مصيدة . والقصائد غير مجدية . هذا هو الشعر وفق حاجته الشخصية . ووفق قناعاته أيضاً . إن مشكلته بسيطة لكن جزءاً هاماً منها أن الآخرين لا يفهمونه . إنه ليس طموحاً . فلا حاجة له بهذا الطموح . وإذا كانت حياة أى إنسان تدور بين محوريين : الحبز والحب فإن الحبز لم يؤرقه طوال حياته . كان من بنى مخزوم أغنى بطون قريش . وأبوه أغنى بنى مخزوم . تسميه قريش «العدل» لأنهم كانوا يتعاونون معاً ليكسوا الكعبة في عام . ويكسوها وحده في العام التالي . كأنه يعدلهم جميعاً . قوافله لا تكف عن السعي بين الشمال والجنوب . كلما نفق بغير أو لفت حاد انصب العرق الأنسانى في جيبه قطعاً ذهبية . هذا غير جيش ضخم من الأحباش يقومون على حراسة هذه الثروة . .

لم تكن حالته فردية . لكنه كان الملخص لكل تناقضات عصره الاجتماعية . منذ أن تولى عثمان بن عفان الخلافة وقد تنفست الأرستقراطية القريشية الصعداء . ذهب عمر بشدته وشغفه . كان يعرف أن الفتنة حين تولد سوف تولد من قريش . يساعدها إحساسها بالاعتداد والتفوق على كل ما عداها من قبائل العرب . من قبل الاسلام وهم رابضون حول الكعبة . وقد استثمروا هذا الموقع تجارياً حتى جاء الاسلام فأضافت القدسية الدينية ونسبهم للرسول قوة إضافية . يقول طه حسين ببلاغة . . «إن النبى قد وعد «قريشاً» حين دعاها إلى الدين الجديد ملك الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ؛ ففكروا جميعاً في ملك الدنيا وفكر بعضهم في ثواب الآخرة . .» من أجل ذلك شدد عليهم عمر ومنع الصحابة من مغادرة مكة لأى سبب خوفاً من أن ينتشروا في الأقطار المفتوحة . لكن عثمان جاء وأطلق كل شيء من عقاله وأعطى لقريش فوق ما كانت تحلم به . سن قانوناً جديداً يتيح لمن يملك

أموالا وأرضا في الامصار المفتوحة أن ينقلها أو يتبدلها بأرض وأموال في الحجاز . وهكذا تدفقت ثروة العالم القديم لتلك المنطقة الضيقة المحصورة بين الجبال القفر . وأقيمت الضياع ولم تقم الحضارة . جاءت النعمة والثروة ولم تأت قيمة العمل . . جاء الخمول . . وتبعه السأم . .

وأشتعلت الفتنة . قتل عثمان وعلى والحسين وابن الزبير وعددا لا يحصى من الصحابة والخوارج والشيعية والأمويين والعلويين وأصبحت أطلال الشعراء مواقع للحرب . وينابيع المحبين ملوثة بالدم . أنتقل مركز الخلافة والحكم إلى الشام . أنتزعت السلطة من أرضهم أنتزاعاً . وأستفاد الأمويون من أخطاء عثمان . وأغلقوا باب الحكم في وجه قريش . زادوا في أعطيتهم من المال والعبيد والضياع وكل وسائل الاغراء الا التفكير في السياسة أو التحدث فيها . قلموا أظافرهم بما يكفي حتى لا يعاودوا إنشاءها في جسد الدولة . هكذا ظهر جيل ابن أبي ربيعة . معنياً من كل الروابط . كل الأهداف النبيلة قد تلوثت بالدم . وبالعمر فاعفى نفسه من كل الاهداف المحددة التي يرسمها العدد الاكبر من الناس ، ومن اعتبارات الحياة والاحتشام . إنه أكثر خفة من أفراد جيله . أقدر على السرعة والحركة والاقدام . لا يكبله الوزاع الاخلاقي الذي يرهب غيره . . لقد أفزعت مغامراته كثيراً من معاصريه . . يحكى أبو سمره . .

« إني لا طوف بالكعبة فإذا بشيخ في الطواف فقيل لي هذا ابن أبي ربيعة . فقبضت على يده . قلت له . يا ابن أبي ربيعة . قال : قل ما تشاء . . قلت . . أكل ما قلته في شرك فعلته ؟ . قال : اليك عني . . قلت : أسألك بالله . قال . نعم . كل ما قلته فعلته . واستغفر الله . . »

والدولة تتسع . يرفع الشهداء راياتهم المخضبة فوق الروابي البعيدة . وشعراء الغزل يتفانون في الوجد والبكاء على أعتاب المحبوبة . كان عمر يمر بالخوارج في ثيابهم الداكنة وهم مشغولون بتغير العالم وانتظار المهدي المنتظر . وهو موزع النفس لان زينب قد أخلفت وعدها . كان يرى أن الخوارج عبيد طموحاتهم الشخصية ورغبتهم أن يعلو حقهم وباطلهم فوق كل حق وباطل . كان هو عبد لا مبالاة . لا يبالي بالمكسب والخسارة . عبد . للمصادفة . المصادفة التي تعامله بغاية القسوة والخشونة في بعض الاحيان ولكنها في الغالب تحنو عليه وتقف في صفه . .

كان عمر جالسا في فناء مضر به وحوله غلماناه . أقبلت عليه جارية جميلة عليها آثار النعمة . سألت وحيته ثم قالت :

- حياك الله . . هل لك في محادثة أحسن الناس وجها وأتمهم خلقا وأكملهم أدبا وأشرفهم حسبا . .

وافق على الفور . . اضافت المرأة :

- ولى شرط . تمكنى من عينيك أعصبتها وأقودك ثم أفعل بك ذلك حين تعود . .
وافق أيضا . عصبت عينيه مقاوته . لم يعرف إن كان قد سار كثيرا أم قليلا . لكن رائحة
العطر والبخور ملأت أنفه . رفعت العصابة . رأى أمامه امرأة لم ير مثل جمالها . نظر إليها
مبهورا وقابلت نظرتة بازاددراء : قالت :

- أنت الفاضح للحرائر . . ؟ . .
قال عمر : وماذا جعلنى الله فداك . .
- ألسن القائل . .
فلثمت فاما آخذها بقرونها
شرب الزيف ببرد ماء الحشرج
قال عمر . . أجل قلت ذلك . .
صرخت فيه :

- قم فأخرج عنى يا فاسق . .
فوجيء عمر بعبيد لم يدر من أين جاءوا . أنهلوا عليه ضربا بالعصى . تركته الفتاة
دون أن تبالي بصرخاته . جاءت المرأة وعصبت عينيه وقادته إلى مضربه .
فى اليوم التالى جاءت نفس المرأة . . كان كل جزء من جسمه يتألم . . قالت :

- هل لك فى العود . . ؟ . .
وافقها على الفور . اختلطت عليه لذه الظفر بالانثى بالالم الذى يتكبدته فى سبيل
ذلك . الانثى البعيدة تظل دائما مشتتاه . عصبت المرأة عينيه حتى أنهى موضع الليلة
السابقة . هاجته رائحة العطر والبخور . رفعت العصابة فرأها أشد جمالا وبهاء .
قالت :

- ايه يا فاضح الحرائر . . ؟ . .
قال عمر : بماذا جعلنى الله فداك . . ؟
- ألسن القائل . .
وناهدة الثديين قلت لها : إتكى .
على الرمل من جبانته لم توسد .
وصرخت صرختها المعهودة : قم فأخرج عنى يا فاسق . .

وجاء العبيد . وتركت العصي اثارها الحمراء فوق جسده . كانت الضربات تبعث
داخله نشوة سادية . كأنها بديل عن الرغبة المستحيلة التحقيق . لكنه استطاع أن يغمس

كفه في اناء صغير فيه طيب . وعندما عصبت المرأة عينيه أخذ يتسند حتى طبع كفه الملوث بالطيب على باب الخيمة .

وعندما عاد جمع غلماناه بسرعة . قال لهم :
- أيكم يدلنى على باب خيمة عليه أثر طيب كأنه كف ، فهو حروله خمسمائة درهم .
انتشر غلماناه . لم يلبثوا أن عثروا على الخيمة . سار معهم فلما الكف ما زالت طرية . . وإذا الخيمة لفاطمة بنت عبد الملك ابن مروان . .
، وجاء الصباح . رحل الراكب . لكنه إمتطى جواده وتبعهم . فزعت فاطمة . أرسلت إليه الجارية . . قالت . .

- ويحك ما شأنك وماذا تريد . . ؟ انصرف ولا تهدر دمك . .
لم يخف من التهديد . . قال . .
- لست بمنصرف حتى تبعث لى قميصها . .

ولم تهد المرأة بدا من العودة وإحضار القميص الذى طلبه . نفس الرائحة التى كان يشمها كلما توجه معصوب العينين إلى خيمتها . وزاد هذا من حدة شغفه . حتى الرغبات «الفتشية» لم تتركه . لا يعرف العار ولا الخجل ولا الخزى . إنه صريح فى مواجهة نفسه والآخرين . يقف على الشعرة الفاصلة بين الوله والشذوذ . يتحمل الضرب والاهانة ويقنع من الغنيمة بأقل الأنصبة . لعل هذا كان هو الأسلوب الوحيد المتاح أمامه . إن احساسه الشديد بالخواء والسأم يدفعه للحديث أو للحركة لأن إحتكاكه بالكائنات الحية هو الوسيلة الوحيدة لأبقاء حيويته . . إن السأم وسط الصحراء هو الجحيم .

أما المرأة فهى الجزء الآخر . مناضا ومكملا له . هى الأكثر احساسا به . لأن الرجال لا يفهمونه . يشعرون بالاشمئزاز من تصرفاته . يقيمونه وفقاً لكل القيم التى يؤمنون بها والتى يعتقدون بالطبع أنها أفضل ما فى الوجود . إنه يختلف عن بقية الرجال . لا يعنيه فى هذا العالم الواسع المليء بالمشاغل إلا المرأة . لا يشبه الرجال المنغمسين فى هموم الحياة اليومية : ولعل هذا هو الرجل الأمثل لكل منشغل بها ودائها . . باحثاً عنها إلى آخر العمر . .

إنه يختلف عن الفرزدق . كلاهما مولع بالنساء . لكن مدخل كل منهما للمرأة مختلف . . الفرزدق مخادع . عندما شب اكتشف أنه فقير . ضيع جده وأبوه ثروتهما فى كرم أحق . وتعود هو أن يلجأ للخديعة ليأخذ ما يريد . كان يرى أن النساء مخلوقات أقل منه . لذا فإنه يخدعهن بلا هوادة . حتى النوار ابنه عمه . والجواري اللاتي وعدهن بالزواج . والقبالة التى خدعها على طريق مكة . مع كل واحدة لبس ثوباً مختلفاً . وحين يأخذ ما يريد

يمضى دون أن يلتفت . كل امرأة عرفت شعرت بمرارة الخديعة . شعرت بالخوف منه والحدق عليه . لكن إحساس المرأة تجاه عمر يختلف . إنها تعرف منذ البداية أنه يستحيل أن يكون زوجاً أو عشيراً وفيماً . إنه عابر سبيل . رفيق لا يخطب عراطفها ولا يطلب عشقاً وسهاداً . يعطى نفسه حتى آخر قطرة من دمه وينفق كيسه لأخر دينار ويعطى . حريص على أن تكون القسمة عادلة بينه وبين المرأة التي يعشقها . إن أعظم مصدر لسعادته حين يراهن سعيادات . ناسيات في نشوة سرورهن هموم الحياة الرتيبة خارج الصحراء .

ثم كان أن قابل «الثريا» . امرأة مختلفة . جلدة لا تخمد . وحشية الجمال ، نموذج للجمال الصحراوي . يجرى في عروقها دم نزق مجنون توارثته من جدتها عبلة بنت عبيد التي أرسلها زوجها إلى سوق عكاظ لتبيع أواشي السمن ، ومعها ابن أخيه ، فباعته السمن والناقطين ورهنت ابن الأخ وصرفت المال على هواها . . وهربت . . تدفق هذا الدم في عروق «الثريا» فنزعت الأحجة والقت بكل النواهي وتعرضت للرجال بجمالها . لا يقدر أحد أن يتجاهلها . ولا يستطيع أحد أن يمتلكها . وعندما تقابلت هي وعمر أدرك كل منها أنه قد قابل صنوه . ورغم كل التقلبات ظل الرباط بينهما قائماً . كانت تعرف أنه لا يصلح زوجاً . وكان يعرف أنها لا تصلح زوجة . إن كمية النزوات بداخل كل منها لا تستقيم معها أى حياة زوجية . .

كان سائرا فقابل بعض الرعاة قادمين من ناحية الطائف . سألهم عن الأخبار . قالوا انهم سمعوا بوفاة امرأة اسمها نجم من الساء . جن . حث جواده للطائف من أحسن الطرق وأقصرها . وصل لاهثاً فوجدها سليمة تقول ضاحكة . .

- أنا أمرتهم بذلك لاختبر مالى عندك . .
كانت تعرف كيف تسوسه . كان معها يفتقد حذقه المعهود . يرسل إليها الرسل فتردهم بتعال . .

- إن ابن ربيعة فارغ ونحن في شغل . .
كانت تعطيه أحاسيس متناقضة . روضت كل عراطفه الجائعة . أعطته فقط الأحساس بأنها امرأة فيها كل النساء . حنونة مثل ربيع الصبا . عنيفة مثل ربيع السموم . لا يعرف الحد الفاصل بين رضاها وغضبها . يذكر عمر حين أتاها ومعها صديق له . ولما كشفت الستر وأرادت الخروج إليه رأت صاحبه فرجعت . قال عمر ببلاهة . .

- هذا صديقي . لا احتشمه ولا أخفى عنه شيئاً .
واستلقى وهو يضحك . خرجت الثريا وضربته بظاهر كفها . كانت تلبس خواتم في أصابعها العشرة . صرخ والدم يتزف من فمه . تكسرت أسنانه الأمامية . ورغم أنه سافر إلى البصرة لمداواتها بالذهب فقد اسودت . وظل اللون في فمه كالذكرى المؤلة . لقد تركت

«الثريا» في نفسه كثيراً من الجروح . وحين فكرت بطريقة عملية لمختارت الوقت والزوج . فقبلت أن ترحل مع زوجها إلى مصر بعيداً عن موطن الذكريات والفضائح القديمة . وعرف عمر بموعد رحيلها . سافر حتى لحقها في منتصف الطريق . جلس يعاتبها ويبكى . لكنها قالت في بساطة عملية . .

- ما جدوى العتاب وهذا وقت الرحيل . .

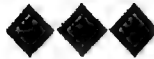
هكذا خرجت «الثريا» مثلما دخلت حياته بإرادتها . حينما شاءت . وظل عمر أسير الصحراء الواسعة . أسير الرمل والهضاب والصبار . مرت سنوات طويلة . وذاب الشباب من بين أصابعه . . أصبح شيخاً . لكنه لم يكف عن السعى . لعل هناك مغامرة لم يصيبها بعد . .

رأى امرأة جميلة . سعى خلفها يلح كالذباب . . لم تجبه . ظل يتبعها ويصف ثيابها . .
الرياح تسحب أذيالاً وترفعها .

يا لهتفى كنت مما تسحب الريح . .
وظل يهتف بالآيات . قالوا لها أذكره لزوجك . قالت كلا . لا أشكوه إلا الله . ثم هتفت . .

- اللهم إن كان نوه باسمي ظالماً . . فاجعله طعاماً للريح . .

وضرب الدهر ضربته كما يقول أبو الفرج . . كان يعدو فوق جواده فهبت ريح قوية . نفس الريح التي كانت تقوده في شبابه . لكنها دفعته . سقط من فوق الجواد . القته على شجرة من أشجار «العضاة» اليابسة . أشواكها حادة ومسنونة . انغrust في جسده . قيدته إلى أرض الصحراء . ذهب جسده بدداً في الرمل الشاسع . لم تبق الريح لجسده من أثر . .



قيس بن الملوح والموت في الحب

قبل أن يبدأ أبو الفرج رحلته . سأل نفسه :
- هل كان لقيس بن الملوح وجوداً حقيقياً ؟ ..
تلفتت ظبية الوادي فرأته في أيامه الأخيرة . في لحظاته الأخيرة . يسمى فوق الرمل لا
يستر جسده غير خرق باليه . زائغ العينين يداوم البحث عن شيء لا وجود له . . يسأل من
يقابله . .

- أين أنا من ديار بني عامر . . ؟ ..
ويأتيه الجواب هائلاً . . أنت على حدود العراق . . اتبع هذا النجم وسر للجنوب . .
ويمضي . فوق الرمل الخادع . تحت الشمس المعادية . تنفتح جراح قلبه كأخاديد
الصخور . ويمتد الصبار حتى عظامه . يصل إلى أول الأحياء فيسأل من يقابله :

- أين أنا من ديار بني عامر . . ؟ ..
يأتيه الجواب مستغرباً . . أنت في اليمن . . اتبع هذا النجم وأمض للشمال . .
تشابهت الصحراء علينا . والليل والنهار . والموت والحياة . تشابهت الشمس
ووجهها . كلاهما قاس ويعيد المنال . طاب مساؤك أيتها النجوم يا مضللتى . يا جبل
التوباد يا ذاكرتى الصخرية . يا كل الطلول والمراعى والعيون . طاب مساؤك أيتها الجراح
التي استعذب نزيها . ويا أيها الجنون ، يا بلسمى الشافي حين عز الدواء وحان الموت . .
وطاب صباحك . . يا ليلي . .

بعد سير طويل عاد أبو الفرج خائب المسعى . . هتف يائساً :
- سألت بني عامر بطناً . . بطناً عن مجنون بني عامر ، فما وجدت أحداً يعرفه .
كل من سألهم ضللوه . أنكروا أشعاره وكذبوا أخباره . اتصلوا من كل ما يربطهم

به . وسار أبو الفرج لثا أنفاسه التي أضناها القنوط . ودبيب أقدام روحه التائهة . خلف العيون اللا مبالية . ذهب إلى رواية القبيلة . في ذاكرته كل الشعر والانساب . . سأل . .

- أتعرف المجنون . . أتروى شيئاً من شعره . .
قال الرجل باشمئزاز واضح :

- أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى شعر المجانين . .

وعاد أبو الفرج . حمل أوراقه الممزقة فواجهته الخيام . وجدوات النار الخابية . .
رماد . . رماد . . كل أحاديث الحب وأشعار الصبايات . ذهب إلى شيخ القبيلة ،
استحلفه بمكانته أن يقص عليه أخبار مجنون بنى عامر الذى قتله العشق . وهتف الرجل في
سخرية حقيقية . .

- هيهات . بنو عامر أغلظ اكباداً من هذا . إنما يكون هذا في القبائل الضعاف
قلوبها . . السخيفة عقولها . الصلعة رؤوسها . .

ورفض أبو الفرج أن يتناول القهوة . واحتج بأن التمر يهيج معدته . وخرج يائساً . .
وأصطحبه رجل عجوز كان يعرف كل أسرار القبائل ويحيد التحدث في شئون الدولة . .
قال له بجديّة :

- إن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بى أمية كان يهوى ابنة عم له . وكان
يكبره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون . وإخترق الأشعار التي يروها الناس
ونسبها للمجنون أيضاً . .

والتبس الأمر في ذهن أبي الفرج . أكان يسعى خلف وهم اذن . . ؟ . . أساء كاذبة
وأشعار منحولة . لم يكن هناك قيس . لم تكن هناك ليل . أو يعجز البشر عن صنع هذا
العشق الغريب المدمر فيتحلون له الوقائع . حتى الأعراب الأخير الذى قابله وسأله . . رد
عليه باهتمام بالغ : عن أيهم تسأل . . ؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون . . فعن أيهم
تسألنى ؟ . . وشعر أبو الفرج ببادة الأمل . . فسأل بلهفة : عن ذلك الذى كان يشب
بلىلى . . هز الأعراب كتفه : كلهم كان يشب بلىلى . وانطلق يقص الأخبار ويروى
القصائد . وتداخل كل شيء فلم يستطيع أبو الفرج التدوين . . وفى النهاية إكتشف أن
الرجل كان يكذب أيضاً . . ألقى الريشة والورق وصرخ في حقن :

- يا قيس . . هل أنت موجود . . ؟ . .

وحملت الريح صدى النداء . عبر فيافي الصحراء . والربوع المهجورة . كان قيس
وحيداً وسط سرب من الظباء . يقص عليهم قصته ويروى أشعاره . والظباء تهز قرونها

الصغيرة . لا تفهمه لكنها لا تنفر منه . يؤكد لها أن ليلي تشبهها تمام الشبه . فلبية حزينة ألقى الصائدون لها الشباك . خيروها في العار مع الحب . . أو الحياة بقلب ميت . وهل تملك الأطباء الاختبار وهي تتخبط في الشرك . . كان جسده العاري قد تلون بلون الصخر الداكن . واستطال شعره حتى غمر وجهه . لم يبق غير عينيّن تتألقان بفيض غريب من الوهج حين يهفو ذكر ليلي . كم هي نائية . . لكنها آخر ما يربطه مع العالم من خيوط . . يعدوم مع الأطباء . ينام في أوكارها . ويشرب من مناهلها . ويختبئ خوفاً من الصيادين . .

في اللقاء الأخير تسلمت أمه دون أن تخبره وذهبت إليها . . وقالت وهي تبكي :
- إن قيساً ذهب حبك بعقله . . ترك النوم والطعام . . فلو جئته هنيئة من الزمن . .
ربما ثاب إليه بعض من عقله . .
تغير وجه ليلي . كانت أوامر المنم مشددة . . والسيوف مشرعة . . لكنها قالت :

- أما نهاراً فلا . . لأنني لا آمن من قومي على نفسي . . ولكن . . قد أقدر على ذلك ليلاً . .

وحل الظلام فسارت إليه . إرتجفت الأيدي وهي تتلامس . وامتلأ الليل بحفيف الأنفاس الغامضة . . قال مبهوراً : إنني لأخشى أن أموت فجأة . . وفي النفس حاجات إليك . . كما هي . . وإنني لينسيني لقاءك كلما لقيتك يوماً . . أن ابثك ما بيا . . كان جائعاً للمسة حنون . وتكورت النجوم على سفح «التوباد» واختلطت مع الحصى وبقايا الأغنام . حيث كانا صغيرين يرعيان معاً . والساء تصب زرقتها الصافية داخل قلبيهما . كانت أمامه . ترفع طرف الخيمة وتدخل قلبه مثل أمنية مستحيلة . بكت أمه في خيالها دون صوت . . لم تشأ أن تخبره بما فعلت خوفاً من أن يتبدد الموعد وتزداد مرارة الحرمان . نظر لليلي . . ابتعد يتأملها . تأوهت النار وتطايير شررها . أسئلة حائرة . ظل يتمتم بحروف أسمها كأنما يردده للمرة الأولى . يخطها بيد رقيقة على قلبه . مثلما ينقر عصفور صغير . . تعلقت ليل وهي ذات ذؤابة . . صغيرين نرعى البهم . . يا ليت أننا إلى اليوم لم تكبر . . ولم تكبر البهم . .

وضعت يدها على فمه . . قالت :
- هذه ليلتنا الأخيرة . . وهذا آخر عهدي بك . .
تطلع إليها غير فاهم . . واصلت القول برفق :

- وافق أبي على رحيل مع ورد . وفي الغد سوف يحملني إلى ثقيف . .

ظل يتطلع إلى شفيتها وهي تتحرك . . كأن الكلمات تقولها شفاه أخرى . ما جدوى الحياة . . إذن . . أن تضىء النجوم وتدفع الشمس داخله بالقيظ والمرارة . . هي له . . رغم معاداة الأهل . . ورغم دمه المهدر . . هي له . . منذ تلك اللحظة التي رآها فيها

جالسة وسط نسوة من قومها . . نزل على مضاربهن وجلس يتحدث ويروى الشعر . . كان هذا شيئاً عادياً . لكن فتى آخر يدعى «منازل» جاء . . تركته النسوة وانصرفن إلى الواقد الجديد . . ولم يبن معه إلا هي . . تتسرب كلماته . تعطيه أهمية مضاعفة . قرأ في عينيها أنها تريده وتوقف الزمن . واستيقظت القبرات من نومها . . كلما هبت الحزامى رددت إسمها . . وكلما سرى أقحوان الرمل التقيا معاً . . فما جدوى أن تحمل إلى ثقيف ولا يحملان معاً إلى قبر واحد . . واصلت التوسل إليه :

- لا تذهب إلى قومي . لا تسأل أحدا عني . لقد أهدر السلطان دمك إذا اقتربت من ديارنا .
صرخ فيها . . الموت أروح لي . فليتهم قتلوني . .

كانت هي التي تقتله . تعطيه الجنون مخدراً قبل أن تجهز عليه . قد ترحل . . وتتعزى . . وقد تنسى أيضاً . . قد تكتشف أن زوجها ليس بالسوء الذي تصورته . وأن الحب لا يحتاج لكل هذا القدر من المראה . لعلها لم تكن تريد انقاذ حياته بقدر ما تريد ألا تزيد من احساسها بالذنب . كان هو يحترق . يترك يده وسط اللهب دون أن يحس بلسعتها . يختلط الحب بالاعتذار . والوداع بالخوف . . قالت . . سوف أمضى . . غارت النجوم وتولى الليل . لكنها لم تفعل . هبط القمر . والقي التوباد بظله الكثيف عليها . ومهدت النيران . حاول احتضانها . لكن لحظة الوداع الأخيرة كانت مليئة بالخوف والارتباك . .

الظباء ترحل وتعود . لكن ليل رحلت دون عودة . ذهب إلى حيها فلم يجد أحدا . دخل منزلها الخاوي . رأى مكان نومها . . وبقية أثارها . . جزء من الحياة لم يميت بعد . ألصق صدره بالتراب وأخذ يمرغ وجهه ويبكى . أصبح وحيداً في الخلاء الواسع . في داخله إفتقاد مريس . لم يجدعه أحد . وحدد أبوها موقفه منه بصراحة . . اعترض مستنكراً :

- أفضح نفسي وعشيرتي وآت بما لم يأت أحد من العرب وأسم ابنتي بميسم الفضيحة والعار .

تمتم قيس . ليتني خرست ولم أقل الشعر . ليت النخل يكف عن الارتحال . وأن تتبدد زرقه السياء وتحل بدلاً منها صفرة قائمة . ندم قائم . ما أوحش الخلاء . وتعاويد أمه . وسخط أبيه . واستهزاء قومه . وفقدان ليلي . .

حين أراد التعزى خرج مع بعض من فتيان قومه . مروا في طريقهم بجبل النعمان قالوا : يعابشره . . قد كانت ليل تنزل بهما . . توقف ملهوفاً . . فأى الريح يأتى من ناحيتهما . . قالوا : الصبا . . قال : فوالله أريم على هذا الوضع حتى تهب الصبا . مضوا

وتركوه مشرباً حسة أيام كاملة . وهبت الريح فإذا جسد ليل يتضوع عطرا . وهتف
قيس :

فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت
على نفس محزون تحملت همومه . .
فليوقفوا هبوب الريح اذن . .
التفتت حوله نسوة الحى . . هتمن به :

- ما الذى فعلته بنفسك من هوى ليلى . . إما هى امرأة من النساء إصرف هواك
إلى إحداها فנסاعدك ونجزيك بهواك . ونرجع إليك ما ذهب من عقلك وجسمك . .
اجتمع أهل الحى إلى أبيه . . قالوا له :

- احجج به إلى مكة . ادع الله له . مره أن يتعلق باستار الكعبة فيسأل الله أن يعافيه
من حبه ويبغض ليل إليه . .
والح عليه أبوه . توسل إليه واستحلفه باسمها حتى سار معه إلى مكة ثم عاود
التوسل :

- يا بنى . تعلق بأستار الكعبة سل الله أن يعافيك من حبها . .
تعلق قيس بأستار الكعبة وهتف بكل ما فى قلبه من وجد . .

- اللهم زدنى لليلى حباً . . وبها كلفاً . . لا تنسى ذكرها أبداً . .

شعر أبوه باليأس . إقتاده إلى «منى» ليقتضيا الليل مع بقية الحجيج . وحين هجع كل
شئ . وخفت الابتهالات . دوى صوت من أسفل الجبل . ينادى اسمها . لم يسمعه
سواه . لم يرتعد له سواه . صوت جياش باللهفة الجائعة . . استيقظ صارخاً : لبيك
يا ليلى . . واستيقظ بقية الحجيج . . لبيك اللهم لبيك . . لكنه هرول وسط الصخور :
لبيك يا ليلى . . تعثر فى الأجساد النائمة . والصوت يجذبه . يسوى به . حاولوا منعه
وامسأكه . واصل الصراخ والصدى يبدو الصرخات ويرجع النداء . . أفلت منهم ومضى
بعيداً . . حيث ينتظره الموت فى مكان مجهول .

انهك أبو الفرج من التعب . أوراقه مرققة لا تحمل إلا أخبارا مبتورة وأحاديث كاذبة .
ذهب إلى علامة بغداد «الجاحظ» . . كان منكباً يؤلف كتابه الضخم عن «الحيوان» . هتف
به :

- أتوسل إليك يا سيدى الجاحظ : حدثنى عن ب ن بنى عامر . أهو موجود . أم
مختلق

إبتسم الجاحظ ابتسامة زادت من دمامة وجهه قال :

- تعبر ذلك الانسان الذى أصبح حيوانا . .

ودمددم أبو الفرج في غيظ . . ليكن ما يكون . إنسان . حيوان . نبات . . هل كان له رجود . . ؟ . . وأجاب الجاحظ في غموض :

- كان موجودا . ولم يكن موجوداً . .

وأوشك أبو الدح أن يبكى .

يعشق أولاً يعشق . تلك المسألة . لقد كان سيد قومه . وسيط النسب . معروفا بثقته الشديدة بنفسه . كان مهيباً لأن يصنع الكثير . أن يغدو أعظم وأرق ما شاهدته العرب من شعراء . لكنه فجر في الحب كل طاقته . سخر له الكلمات والقصائد والحظات العمر . تمزقت ثقته بنفسه مثل ثوب قديم فصار عاشقاً ضعيفاً عارياً .

لم يسخط أبداً على ليلي . رغم كل التقلبات . في أول العشق اكتشف أن له منافسا يدعى « معاد » هتف معزياً نفسه : كلاتنا يا معاذ يحب ليلي .

وعندما وعدته قبل أن يمين أن تزوره وظلت تماطله . واجراءات زواجها من « ورد » تتم كالقدر المحتوم . ذهب إلى ديارها وجلس مع نسوة يحدثهن عنها ويبكى وهي تسمعه . أطعته وعصيت الناس كلهم في أمره وهواه وهو يعصيني . . لم تف بوعدها رغم ذلك . وعندما اشتهر أمره بها . وتناقل الناس أشعاره فيها . وذهب يخطبها . بذل خمسين ناقة حمراء . . ولم يبذل لها « ورد » سوى عشر نوق فقط . . قال أهلها . . نحن نغيروها بينكما فمن إختارته تزوجته . . ودخلوا إليها وأيديهم على مقابض السيوف . صاحوا بها . والله لئن لم تختارى ورداً لنمثلن بك . واختارت ورداً . تركت لقيس الخلاء والجنون . وقف يرقب رحيلها إلى ثقيف عاجزاً عن السخط . عاجزاً شعور بالحنق يخفف من مدى مرارته . . كان حبه نوعاً من القضاء والقدر لا مرد له . . ثابت لا يتزعزع . لا يملك إلا أن يهتف . لقد ثبتت في القلب منك مودة . . كما ثبتت في الراحيتين الأصابع . تحول العشق إلى تسليم لا إرادى عاجز . . واستبدل الحرمان في الحياة بنوال كامل في العالم الآخر حين يحشران سوياً في يوم القيامة . .

لم يكن لليل العامرية شكل محدد . حين سألوه عنها وصفها بكل ما هو جميل وصعب

تكاد يدي ، تندى إذا ما لمستها . .

وينبت في أطرافها الورق النضر . .

إنها القمر حين الظلام والمطر وقت العطش والنجم في ليلته وهي كل شيء إلا
أن تكون امرأة .

من لحم ودم . . عندما يمر برجلين قد اصطادا ظبية وربطاهما بحبل نظر إليها وهي
تركض مقيدة . . كانت تشبه ليلى . لحظة ودعته . أن وضعت أناملها على حبيبه وابتسمت
دامعة . قال للرجلين :

- خلياها وخذا مكانها واحدة من أبلى . .
ورضى الرجلان بالصفقة . . وتركوا الظبية تفر منها ومنه . . همهم . . ياشبه ليلى لا
تراعى . لكن ليلى بعيدة . . تفر مثل ظبية . .

وعندما تعذر منالها أصبحت بالنسبة إليه شيئاً مثالياً لا يمسه . . ولا يتصور أن يمسه أحد
غيره . . اكتسبت من بعدها لا واقعية غير محددة . . ويلغ الأمر غايته من الألم حين قابل
ورداً ذات مرة . سألها مباشرة .

- بربك هل ضمنت إليك ليلى . .
قبيل الصبح . . أو قبلت فاهما
وأجابته «ورد» ببساطة : اللهم إذ حلفتني لنعم .

وقبض قيس بكلتا يديه على قبضتين من الخمر . . ما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه
وسقط مع الخمر لحم راحتيه . . ولم يفعل ورد أكثر من أنه هز كتفيه . . ومضى . .

وظل أبو الفرج سائراً . أوقفوه أمام باب «التكية» . . قالوا له : إن «نظامى» شاعر
فارس الكبير فى الخلوة ولا يقدر أحد على ازعاجه . سألهم عن ميعاد انتهاء الخلوة فابتسموا
فى رثاء . .

- وهل يتبدد الرجد . . وينسل المحب من محبوبه . .
لم يفهم شيئاً . ألقى جالساً جنب السور وامتلأ الجو بتمتمات الدراويش وهى تصوغ
أدعية التمثل بلهجة غريبة وعامضة . مر به موكب للصوفية ، لابسى الحرق محنّى
الطهر . . هتف فى حيرة . .

- يا نظامى أجب مسألتي . . وخفف من حيرتي . .
راى نظامى أمامه . خارجاً من التكية فى ثوبه الأبيض . وشعر رأسه الاشيب منسدلاً
على كتفيه . يتطلع إليه فى تساؤل . قال أبو الفرج بسرعة .

- جئت أسالك عن قيس بن الملوّح الذى أحب ليلى العامرية . . هل كان
موجوداً ؟ .
ابتسم نظامى . تخلل لحيتيه بأصبعه . . ثم قال مؤكداً . .

- أجل قيس كان موجوداً . . لكن ليلى لم تكن موجودة بطبيعة الحال .

والقى أبو الفرج الورق والاقلام . . أخذ يضرب الأرض بقدميه مثل طفل غاضب . .

- يا لها من مسألة . . يا لها من حيرة . .

لم تكن ليلى امرأة . كانت رمزاً لكل الصبوات ما من شاعر عشق إلا وهتف باسمها . من من أحد حلم بامرأة إلا وكانت هى . لكن «قيساً» هو الذى أكمل الرحلة للنهاية . وختم بموته دائرة العشق . هناك فى بلاد بعيدة اسمها اليونان . . امرأة اسمها «هيلانه» . . اشعلت الحب والحرب . . وكل شرار الشهوة والموت . . هذه المرأة تشبه ليلى عند العرب . ولو أنها لم توجد لابتدعوها .

لم يصب قيس بالجنون . إنما طغى شعوره على سلطان عقله . فاضت عاطفته من القلب فملكته حياته لقد دخل أول درجات الوجد . وارتقى بالتأمل الجسماني المحدد . لم يقف عند صفات ليلى المادية . خلقت العين كمرأة . فيها آلامنا . وفيها جمالنا . وفيها قبورنا . . والعين ترى ما تريد أن تراه . والروح تهفو للارتقاء . . لم تكن ليلى جسداً يحتضنه قيس ، بل كانت مداراً يدور حوله كالنجم الثاقب .

ولم يفهم أبو الفرج أى كلمة . لم يحس بالحيرة وهو يتتبع أخبارا كما أحسها الآن . . ودلو يلقى بالأمر كله وينسأه . لكنه نظر فى حيرة إلى نظامى . أكبر شعراء فارس واحد اقطاب الصوفية . وهو يجزم أن ليلى عاشت عذراء . لم يمسه بشر . لا قيس ولا زوجها . . وظلت حتى ماتت عذراء . وفكر أبو الفرج : هذا مستحيل . هذا غير بشرى . إن الأخبار التى جمعها تؤكد أن الأمور لم تكن كما يعتقد نظامى أبداً . .

ماذا يعنى هذا ؟ غير أن نظامى قد أطل مقامه داخل «التكية» فأنساه ذلك كثيراً من الطباع البشرية . .
أقبل على أبي الفرج اعرابى من بنى عامر وهمس فى اذنه :

- اليوم يشيع جسد قيس . .
نتمم مدهوشاً . . أوقد عشروا على جثته . . ؟ . . وهرع إلى مضارب القبيلة . . رأى أباه يبكى ويشير إلى الجسد :

- والله ما كانت تطمع فى مثله . .

حين لحقه الخبل . هام فى الفياقى وجداً عليها . حبسوه وقيدوه . فأخذ يعض لسانه حتى خشى الجميع أن يقطعه . خلوا سبيله . وهكذا انطلق . اختلطت آثار أقدامه بحوافر الوحوش والظباء . وتعددت أمه أن تخرج كل يوم فتضع طعاماً على حافة التل . لعله يأتى ويأكل . . وفى أيام لم يمسه الطعام تقريباً . فى أيام أخرى كان يؤكل عن آخره . لم تكن

تدرى . أهو الذى يأكله حقاً أم أنهم رفاقه من الوحوش . لكن ذلك كان يعطيها بعضاً من العزاء . . لأنه مازال حياً . . يربطه بأمه شيء ما . .

ثم سرت خمسة أيام والطعام بحاله لم يمس . لا تقربه يد : ولا تقترب منه أى آثار . وكلما أبدلته عادت وأخذته كما هو . وفى صباح اليوم السادس . قالت لأبيه قلبى يحدثنى أنه مات . . همهم الأب . . وكيف يموت وقد كان ميتاً ؟ ألحت الأم عليه . أذهب وابحث عنه . . إئتنى به أو بجثته . وخرج الأب . قرأ الجميع ما على وجهه فساروا خلفه صامتين . تتبعوا أثره . . حاولوا تمييزه عن آثار بقية الحيوانات . تلالاً صعودها وودياناً هبوطها . حتى وصلوا إلى وادى الحجارة المسنونة . حاصرتهم الطيور السوداء وهى تتدافع بعرض الفضاء . تصرخ بصوت حاد متواصل كنعيب النسوة . نظروا أسفل الوادى فراوا جثته . . قطعنها الأحجار مزقاً . . وهشمت الرأس الذى لم يكف لحظة عن الهديان بالحب . . وأوقفت القلب المضنى أخيراً . .

ضمو جسدته فى عباءة وعادوا به . استيقظوا كلهم . أفاقوا على موته القاسى . لم تبق امرأة . لم يبق رجل . . إلا خرج وتذكر ويكى . وقف أبو الفرج ذاهلاً وسط مظاهر الحزن الفاجع . هدم الرجال خيام كل القبيلة فأصبحت فى العراء . . ووقفت النسوة حاسرات الرؤوس . . وجاء بنو عامر . جثا أبو ليل أمام الجثمان الممزق وهتف فى حرقه . .

- ما علمت أن الأمر يبلغ هذا . . لكننى كنت امرأ عريباً أخاف العار . . زوجتها وخرجت من يدى . .

نهض . . نظر إلى صفوف الباكين . . توسل إلى ابن قيس . .

- لو علمت أن أمره يمرى هكذا ما أخرجتها من يدى .

ورأى أبو الفرج الجسد المكفن بالثوب الممزق وهو ينزلق بطيئاً فى الهوة الرملية الفاغرة وتمتم محزوماً . .

- كان موجوداً اذن . .

وتعالت الصرخات . أخذت النسوة يرثينه بكل أشعار الحب العذبة . . واقتربت الظباء النافرة . . وقفت على أنقاض الخيام تتأمل رفيقها الوحيد وهو يغيب فى جوف القبر . . مكان راحته الوحيد الممكن . . ثم ولت هاربة . .



ديك الجن الشراك منصوبة للشعراء

يا طلعة طلع الحمام عليها . الشمس بذهب بدداً . تنحدر خلف نهر «بردى» الصبحل
ورسول السلطان يطوف بالمدينة .

- الأمان . . الأمان يا ديك الجن . .

في يده راية بيضاء . وغرة الجواد بيضاء . لكنها شمس تموت ويأتى الصباح بشمس
أخرى مخادغة . هذا المخبأ رطب . قه وأسود . والوحدة بالغة المرارة . يا ديك الجن ذهبت
الصبوات العذاب واحترقت الشهب . . يا طلعة طلع الحمام عليها . وجنى لها ثمر الردى
بيديها . . تدق الطبول فوق أبراج دمشق .

- الأمان . . الأمان يا ديك الجن . .

لا البيوت الشهباء . ولا الحدائق الوفيرة الخضرة . ولا السلطان الذى يتراعى ملكه
من البحر حتى الصحراء يعطوننى الأمان . إنكسر المثلث وضاع طعم الأمان . . ما جدوى
الهرب اذن والتخفى . . نوافير الحرس تدوى .

- الأمان . . الأمان يا ديك الجن . .

خرج ديك الجن من مخبئه . إزداد عمره وتضاعف . إمتدت الغضون من أعلى الوجه
حتى اللحية الكثية . سيفه فى الغمد لم يزل ملوثاً بالدم ، وطوال شهور الحرب لم يجرؤ على
غسله . آخر ما تعلق به من آثارهما . هى وهو . . رفيقته فى البيت ، رفيقه فى الصيد . .
زوجته وغلامه . إنكسر المثلث . رويت من دمها الثرى ولطالما روى شفق من شفيتها .
وقف ديك الجن أمام حاكم دمشق . أمرهم أن يجلوا عنه وثاق السيف . قال . .

- عفا السلطان عنك . . لكنه حرم عليك حمل السيف مدى الحياة .

أخرجوه من غمده والقوه في أحد الأركان . . رأى الدم الخاف على نصبله وفد أصبح
«إكناً» رأى صوراً غريبة تذييل في حمص . وأمطاراً صافية تتحول إلى سيول . ورآها تبسم
من خلف الحمار . هتف أحبك . قالت . لا تنس نفسك أنت مسلم وأنا نصرانية . كان
اسمها «ورد» وكانت سماء حمص لا زوردية ناعمة وكانت السحب قريبة المنازل
فلماذا أنا وحدي أحبيت ثم قتلت . . ؟ . .
الحاكم يتكلم . .

- كان السلطان قد أقام الحد عليك . لكن أحمد بن علي الهاشمي تشجع لك .
وأشار للحراس أمراً . إطلقوه .
فأطلقوه . ومضى . .

وهاد الطريق المهجورة تعرف عبد السلام بن رغان الشهير بديك الحنـ معروف أن
سكان العوالم الخفية يصبون الشعر في فمه فيتحدث عموا ساعدب الكلمات رحل
الجنيات إليه من وادي عبقر إلى الشام . مثلها رجل حده الأول من قبيلة تميم مع الفوحات
الاسلامية الأولى واستوطن حمصاً وابناؤه من بعده يعرف أن ديك الجن متشيعاً . شديد
العصبية على العرب . يقول قولة جده . .

- ما للعرب علينا فضل . جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم وأسلمنا كما أسلموا . ولم نجد
أن الله فضلهم علينا إذ جمعنا في الدين .

تعرف الوهاد مراثيه الطويلة . عندما يتذكر الحسين ودم كربلاء . وعندما يستدير قمر
عاشوراء وتبدأ طفوس الندم ومواكب التفكير . . من أجل الشهداء الذين اغتيلوا بلا ثمن
يقول عبد السلام أشعاره فتغدو مراثي عامة يحفظها الرجال وتنوح بها النساء . . لكن الوهاد
لم تعرف أن الرائي لم يعد يرثى إلا نفسه . . وأن حمل الندم قد ناء به . .

توقف أمام خيمة يحلس عليها رجل عجوز سألته : أهذا الطريق إلى
حمص . . ؟ . . تأمله الرجل ملياً . قال . أنت ديك الجن . إنما تعرف حمص بك . وأي
الطرق سرت إليها تحمل حمصاً حيث تحمل . إبتلع مرارته وسار . يا شيخ الطرق متشابهة .
والأقاويل متشابهة . ما قاله ابن عمه أبو الطيب هو نفس ما قاله رفاق السحر وخلان
الليالي . . إبتعد عنها . . إنها لعوب . . إن فيها نهايتك . كان الغلام يقف بين يديه .
يرتحلان تحت الشمس . يصبح به : شد قوسك يا مولاي حتى لا يذهب الصيد بعيداً . .
وطار الصقر ثم حط على جيفه . . قال لها : ارفعي نقابك . . رفضت في المرة الأولى . الح
عليها فرفعته . رأى وشم الصليب . قالت . أما قلت لك . . الآن تمضي مبتعداً . الآن
تموت إحدى قصص الحب في ليل حمص . . لكنه كان يحبها . أدرك هذا وهو يهتف
متوسلاً .

- لو أنك تحبينى لترك ديك وتزوجتينى ..

إبتسمت وأسدلت النقاب . صاح الغلام «بكرة» يا مولاي لو أننا سرنا ثلاثة أيام وثلاث ليالى فسوف نصل إلى وادى الظباء . وكان ديك الجن يحب غلامه . يربط بينهما عشق الصحراء الواسعة وإنطلاقة الجياد فى هدأة الصباح والليل الدامس . خيمة صغيرة ونار موقدة وسهم لا يخيب . وظبى طازج لا يكاد يلفظ الروح حتى يتحول إلى شواء . وعند الينابيع الباردة البرودة - فى الفجر - يخلعان ثيابهما ويغوصان سوياً . رجلان حقيقيان . لا مولى وغلامه ..

قابلا عرافا تائها . قال ساخرا : إنه يتنبأ للاحجار عما سيكون المستقبل . سأله ديك الجن عن طالعه . قال العراف . مثلاً يتلوث سهمك بدم الظباء ، يتلوث سيفك بدم الأدميين .. سأله الغلام عن طالعه .. قال العراف : الموت معلق على كتفك . الموت ظلك . ولم يدفع له أجراً . ولم يبال هو بأن يأخذ أجراً .. يا طلعة طلع الحمام عليها .. أعلنت ورد إسلامها . كانت تعلم شدة حبه . إن صياد القوافى والقلوب قد إستكان عند حافة نبعها . قال أبو الطيب ابن عمه فى حق ..

- هذا دأب عبد السلام .. يصاحب الفسقة ... ويتزوج النصارى ثم الزواج وامتلأت أروصفه حمص بالنجوم الملونة . ورفع ديك الجن نقاب عروسه فتوهجت الشموع وذابت الثلوج فوق الجبال البعيدة .. يا ورد صفا الزمان .

كان ديك الجن يتساءل .. أهذا هو الطريق إلى حمص حقاً .. ؟ .. هذه القرى ما كانت مهجورة هكذا . ولا الأرض مغطاة بالرمل والنباتات مريضة والشمس معادية .. كيف اختل ميزان زماننا ومالت كفتنا للنقصان .. ؟ .. صرخ الغلام . إقتل فرستك يا مولاي . كانت الفريسة ظلياً صغيراً وقع فى الشرك وجثم الصقر عليه . يتطلع نحوهما - السيد والغلام - بعينيه المستديرتين اللامعتين .. يسألها عن السبب .. لماذا يكون القتل دائماً نهاية اللعبة . هتف الغلام .. لا تردد يا مولاي حتى لا يفلت الصيد . والعينان تدوران فى معجريهما . تومض ومضات التساؤل الحارة والأمل الواهى فى النجاة .. أكان هذا البريق فى عين ورد .. نفس الدهشة ونفس السؤال :

لماذا يكون القتل دائماً نهاية اللعبة .. ؟ ..

أبو الطيب يسعى فى المدينة خلفه . يهبط كالبومة على مجلس الخلان فيذهب نشوة الخمر ويعنفه دائماً يعنفه . يا عبد السلام لا تفعل كذا وكذا . إترك أصحابك ومتعتك .. كف عن قرص الشعر .. طلق المرأة النضرائية . أفعل كذا . وكذا .. كانا أولاد عم . شاهدت حوارى حمص المتربة طفولتهما ورضعاً سوياً من شمس الطرقات . لكن الجنيات

هن السبب . لما رحلت من وادى عيقر اعطين عبد السلام كل شيء وتركنا أبا الطيب أسير الظل والحرف الباهت . كانت المدينة تروى أشعار عبد السلام في لهوه ومرائيه وهو منزو بعيداً عاجزاً عن إيصال حاجته الملحة . وحتى الجوارى أيضاً - عليهن اللعنة - عندما كن يحملن رسائل سيداتهن لعبد السلام لم تبالى احداهن بالقاء نظرة واحدة على أبي الطيب . لكنه ظل يطارده . . يفرض حوله حصاراً ووصايا مخنقة . . وعندما تزوج عبد السلام ملاً المدينة بالاشاعات . . الزواج كان ورطة . . هل رأى أحدكن ورداً . . كل الذين حضروا الزواج شاهدوا ارتفاع بطنها الغريب . . و . . وفي عرض الطريق وعلى الملاء قابله ديك الجن وصفعه على وجهه . . .

هذه أول مشارف حمص . البيوت البيضاء تبرز مثل جبال الثلج . الشوارع المرصوفة بالاحجار مغطاه بالورق الأصفر . كهول ونسوة يلبسن السواد مقعيات جنب الجدران . والجوارى ينقل الخطى منهكاً ، وقع سنابكه لا يكاد يسمع . . يا طلمعة طلع الحمام عليها . . كانا - هو والغلام - يدقان احجار الطريق بالسنايك فتستيقظ المدينة كلها . أمس واليوم وغداً . نهار واحد متصل . . مثلث هو الضلع الرئيسى فيه . . ورد الضلع الثانى ويكر الضلع الثالث . كان هو يتواصل مع الضلعين الآخرين فهل تواصل الضلعان بعيداً عنه عند القمة . . ؟ . . أليست هذه طبيعة الأمور . . مادام هناك عبد السلام - ورد ، وهناك عبد السلام - بكر فلماذا لا يكون هناك ورد - بكر ؟ أتراه كان يدرك هذا من البداية ويتغاضى . لقد سارت حياته رحية هكذا وسط نظام محكم الاتصال . وعندما تدخل الوشاة ونار السيف تفككت أضلاع المثلث وأصبح الضلع الثالث وحيداً . مجرد خط باهت في الفضاء لا يصل ولا يتصل . . لو أنه عرف دون تدخل أبي الطيب والآخرين . . هل كان الأمر يصل إلى نفس النتيجة . . ؟ .

كان قد أصابه عسر وطالت به الأيام الضنك فقرّر الرحيل . « سليمة » إحدى البلاد التى يحكمها صديقه الأمير أحمد الهاشمى وابتعد عن البيت . . أكانت هذه مرتبها الأولى أم مرتبها الأخيرة . . ؟ . . قالوا أنها تهمس له إذ تريد . . وإنه يأتيها من حلف الحديقة . . والجوارى يتحدثون عن فحولته . . قال الجميع . . إنهم شاهدوها . . واستعاد في ذهنه عشرات الكلمات والاشارات والحوادث والنظرات الخفية والأشياء التى بدت لحظتها غامضة فسل السيف وسال الدم وبدأ أبو الطيب أقرب إليه منها . يشد على عضديه ويهمس له بكلمات عسلىة مسمومة .

هذه حمص أخيراً . . طيور مذسوحة وأبواب مغلقة . يا طلمعة طلع الحمام عليها . قد بات سيفى في مجال وشاحها . ومدامعى تجرى على خديها فوق نعلها وما وطىء الحصى . شيء أعز على من نعلها . ما كان قتلها لأنى لم أكد أبكى إذا سقط الذباب عليها . لكن ضمنت على العيون بحسنها . وأنفت من نظر الحسود إليها . . هذه حمص أخيراً . . منفى جديد . . والأصدقاء القدامى كم أصبحوا غرباء . .

دخل حديقة داره، لا أشجار تطل . مجرد فروع يابسة . كأنها اذرع فزعة . الدار قفر لا يسكنها سوى العناكب والنباتات تمد أشواكها . . قديماً كانت الأحجار تعرف سيدها ، لكن الفراغ يجهل الجميع ، لكنه وجد شخصاً ؛ كله كتلة سوداء مكومة جنب الحائط ؛ فاطمة مريته وخادمته منذ أن شب ووعى . تتأمله يهدوء مثلما تتطلع أم إلى ابنها وقد عاد لتوه من اللعب في الخارج . قالت : هل عدت يا سيدى . . . قال بمرارة .

- أين كنت عندما خاناني سوريا . .

لطمت المرأة وجهها . قالت : سبق السيف العزل يا سيدى . . لكننى لم أغادر فراشها في أى ليلة من ليالى غيابك . هتف مبهوراً . . كان يعرف صدقها . وأوصلت المرأة القول : ليتك سألت قبل أن تهوى بسيفك . أننى لم أفارقها لحظة ولم يقربها بكر لحظة . . قال هل كنت أنا على خطأ ؟ . . عاودت النواح . . لو سألت قبل أن تأتى غاضباً وقبل أن تفر نادماً . . تركها . هروا عبر البهو الخالى والحديقة المهجورة والشوارع الموحشة . . البيوت ثكلى والأصدقاء يرتدون الأقنعة . . أكانت مؤامرة . . ؟ . . تضاعف إحساسه بالخديعة . . كلهم كانوا يعرفون إلا هو . . لكنهم ابرياء من الدم إلا هو . . ومثل المرة الأولى أقسم الجميع أن أبا الطيب هو الذى فعل هذا . . كل الأمر من تديره . . صرخ وسط الشوارع . .

- هل كانا بريئين . . ؟ . .

كانت تنثر الزهر حول فراشه وكلما ضم جسدها تضوع برائحة الطيب . . كان بكر يدعك جسده بكريات الثلج فتبعث داخله رعدة من النشاط . . صرخ وسط البيوت . . هل كانا بريئين ؟ . . هرع إلى دار أبى الطيب وجده قد لاذ بالفرار والأثاث يتسم ابتسامة صفراء . . لم ينس أننى صفعته وسط الناس . . أننى قلت أشعاراً أهجوه فيها . . كانت تقبل أطراف أنامله وتقول .

- دين المرء حيث يجب . .

صرخ : لن يفلت من يدى . قال الحاكم : يجب أن توقف حمام الدم الذى تغرق فيه . . هتف : لقد خدعوني . حمص كلها تأمرت ضدى . صعد فوق أعلى مكان ورأى المدينة مثل قوارير فارغة قبيحة . لقد حولوني إلى قاتل ياحمص يا شراك الصياد . ما جدوى المرائى يرددونها المخادعون . جاء أبناء العمومة من «مزينة» وجاء الآباء من تميم وهبت ريح الموت من الجبال . ونبت الحب من ظهر المقابر . وماتت العرلان في المناقي البعيدة . وتبدد الزبد على حوافى الجزر الغرقى وأصبح الشاعر وحيداً . . لا يعرف ماذا يفعل ولا إلى أين يذهب . . يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيدها . . رويت من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتى من شفتيها . .

كثير عزة نصيب الشعراء من العالم

كان «كثير» ينتظر قدوم الحوت . وكان الحوت يتثائب في جوف المحيط . وكان المحيط متخماً بالمحار الفارغ . . فكيف انشق الموج عن قريش . وامتلات الخيام بالطحالب وسار الحوت فوق الرمال . . وكيف جاء الموت بكل هذه الأحلام العذبة . . ؟ . .

يا عزة . . ملأ الشوق عروقي بالملح . . ودفن الرمال واحات قلبي . . وعز الطبيب والدواء . . وأنت تربلقي وموق
كان أبو الفرج الاصفهاني متنكراً في هيئة «نطاسي» مغربي . يرتدى ملفحة سوداء وعلى رأسه قلنسوة طويلة مدببة . . واقفاً يتخلل أصابعه بلحيته . كأنما يفكر بعمق ثم هتف :
- لا فائدة ، لا بد من إعادة كيه بالنار . .

وجسد «كثير» ملقى على الفراش . فرع يابس جاف . لا أثر للحياة فيه إلا هذه الأنفاس التي ينتزعها . والنيران تركت بقعاً ملتهبة في بطنه . وظهره . وجنبه . ودرغم تعدد مرات الكى إلا أنه لم يفق من غيبوبته المتصلة . يفيق ، يسعل بعنف ويبصق ذمماً . . ثم يعاود الغيبوبة . . .

كانت قريش كلها تنتظر موت كثير . . وكان «كثير» ينتظر قدوم الحوت . . .
منذ الصباح والأسواق تبيع كل شيء . كلما زاد عدد الأمصار المفتوحة تنوعت البضائع . . جاريات الروم البيضاء . جلد الصين المدبوغ . أصباغ فلسطين . العباءات المراكشية الموشاة . فخار مصر الملون . وكانوا . . يبيعون جسد «كثير» . . . في منتصف السوق كان رجل يهتف . . .

- من يريد أن يحفظ شعر «كثير» لقاء ثلاثين ديناراً .

ازدحمت النسوة حول الرجل . اختلط صوته المؤثر بتأوهات «كثير» . . كانت قصة الحب قد أصبحت مبتذلة تماماً من طول التكرار . . لكن النساء كن ييكن . كلما زاد أعراض عزة . وشموخ أنفها . . ازدادت حرارة التأثير . . وتمت النسوة لويكف «كثير» عن التأوه قليلاً حتى يحسن الاستماع . .

وأعلن آخر عن بيع رداء «كثير» . رداء ممزق قصير . قذر . إختطفه الرجل ذات مرة من فوق كتفيه ولم يشأ «كثير» أن يلتفت تيهاً وتكبيرا . وافتتح الرجل حول الرداء مزاداً صغيراً ما لبث أن رسى على أحد الخدم الذى اشتراه لحساب سيدته . . .

وكان هناك من يبيع صندله . ولفة عمامته . وقميصه . ورقا من الجلد فيه أبيات من قصيدته ومكحلة وقنينة . . ونجح أحد الحلاقين في بيع لحية صغيرة مدببة وصدق الشارى أنها لحية «كثير» بالفعل . . قلب مساعد النطاسى الكرات النحاسية فوق الحجر حتى اكتسبت لونه المتقد . . أسرع آخر في تعرية جسد «كثير» نهائياً . تلقف أبو الفرج الكرة النحاسية بواسطة الملقط في مهارة فائقة . . بحث عن بقعة من الجلد لم تحرقها النار بعد . ثم ألصق بها الكرة في حركة مباغتة . صرخ «كثير» . . أصدر اللحم المحترق صوتاً ورائحة ثقيلة . تقلصت ضلوع الصدر البارز . صرخ «كثير» من خلال الغيبوبة . . .

«يا عزة» . . .

الأم ماء نبع ينبثق من اغوار عميقة ؛ كأنها الصحراء غضبي . وكأنها عزة معرضة . كانت تجلس على الطرف الآخر من عين الماء . صبية صغيرة بهية الحسن . تمد يدها فتتهطل السماء بالمطر الغزير . ولا تجود هى بابتسامة . تهمس . . أنت أقصر عما ينبغي . . لو أحبيتك لعابرتنى بك صويحباتي . . وتمضى . تغرس في كبده سهاماً صغيرة ملونة . وتتركه يتلوى من النزيف .

«وان أك قصراً في الرجال فأننى . .

إذا حل أمر ساحق لطويل . . .»

وقال الطبيب مستغرباً . إنه يبتسم . كأنما يستعذب الكى . كانت عزة تضع أناملها على جبهته . تهمس مذهوشة . من الذى يصدق أننى سوف أحبك مثل حبك لى . . ؟ . . كانت فى الصحراء بئر بعيدة . إذا شرب منها عاشقان لا يفترقان . ذهباً يبعثان عنها وسط الشعاب فضلاً الطريق . وعندما وصلها كان وحيداً . وكانت عزة قد تزوجت من رجل آخر ؛ لا يقول شعراً . . ولا يحلم ببئر المحبة . . لكنه طويل عريض . . فحل . . مثل كل الرجال . . .

دق النطاسى أبو الفرج الأرض بقدميه مثل طفل غاضب . . صرخ :
- لا فائدة . كل مكان فى جسده أصبح محترقاً تماماً ولا يريد أن يكف عن السعال وبصق الدم . اللعنة على الشعراء . متعبون وهم أصحاء ومتعبون وهم مرضى . .

أحست قريش أنها سوف تفقده . ودخلت صرخته البيوت وهزت أوتاد الخيام . وجاء الموت ممطياً غيمة سوداء . خفت الضجة في الأسواق . شعر التجار بالخيال والصيايا بالحسرة . ولم يكن «كثير» إلا حالماً . لا يعتد بوجوده المادى . كان قصيراً دميماً . يقسم الذين يعرفونه أن طوله لا يزيد عن ثلاثة أشبار . وكانت عزة إذ تحس بحبه لها يمتزج ذلك بشعور حاد من الخجل . وكان «كثير» لا يكف عن السير وحيداً في الصحراء ، وذات مرة خرج عليه فارس مصنوع من النحاس . وقف في مواجهته . طويل . عريض المنكبين . لكن ملامحه النحاسية هي نفس ملامح «كثير» . . . قال له . . .

- أنا قرينك من الجن . . جاء أوانك حتى تقول الشعر . .

وصهل الجواد فأحس بالسنايك تدق صدره . إختلطت دقاته الهائجة مع وجيب القلب وكان الرمل ساخناً والشمس قاسية . ومهض من إغواءه وتكلم فكان الشعر . وكان حلم الحياة المتجدد وامتد النحاس داخل عروقه . . واختلط الدم بالكلمة . . يارفيقى يا أخى الجن . . فى أى الكائنات . هب لى حب عزة دون خجل .

كان يرعى الغنم . مربسوة من بنى ضميره كن يتضاحكن ويشرن إلى قامته . لم تكن تتجاوز ظهور الخراف . . شعر بالحنق نحوهم . . كانت السخرية تفقده الثقة فى فارسه النحاس . . قال لمن . أين أجد الماء لأسقى غنمى . . ؟ . . أخرجن له فتاة صغيرة سارت أمامه حتى ترشده للبشر . سألتها . . ما أسمك ؟ قالت : عزة . ورمقته بنظرة خجل . فكر أنها خالية من السخرية وكان ماء البئر أزرق كوجه السماء . لم يعرف لون عينيها . كانت مجرد فتاة صغيرة . جعدة الجداول . فمها صغير ، حين تضمه تبدو مثل الأميرات . . قال لها . . هل أقول لك شعراً ؟ قالت : لا أحب الشعر . كانت مجرد فتاة صغيرة . . قال : ما اسم أبيك ؟ قالت : لا شأن لك . هذا هو الماء فأسق غنمك . وتركته يتطلع فى أمرها . ثم عادت تحمل بعض الدراهم ، قالت : تقول لك النسوة بع لنا كبشاً وسوف نرد لك بقية الثمن فى طريق عودتك . توثب من الفرح . انتقى أجمل كبش فى قطيعه وطلب منها أن تحتفظ بالدراهم . وإن تنتظر عودته . وأخذت عزة الدراهم . وسألت الكيش دون كلمة شكر واحدة . كانت مجرد فتاة صغيرة . ورحل للتلال . كانت النجوم فى متناول اليد . والسحب قطع من الزيد المتناثر . والشمس وجه عزة . وعاد بعد ثلاثة أيام . وجد النسوة بنى ضمرة كما تركهن . قلن : خذ دراهمك . . قال لستن غريماتى .

قلن : فمن أذن . . قال كأنه يحلم : عزة غريمتى ولست أقتضى حقى إلا منها
صباحك فى صوت عال . قلن : ويحك . عزة جارية صغيرة وليس فيها وفاء لحقك أحله إلى
أحدانا ونحن أقدر على الوفاء . لكنه كان يريد عزة . فقط عزة . مثل حاجته لشعاع من
قمر بعيد . . .
قضى كل ذى دين فوق غريمه . .
وحين عزة ممطول معنى غريمها . . .

ظل يروح ويهيء أمام خبائهن . وهن يتضاكن على فامته التى تطاول الأغنام . وهو يقول شعراً . والنحاس يتمدد داخل عروقه . كففن عن الضحك . أخذن ينصتن فى إنهار حقيقى . ذهبن إلى خباء عزة وأخرجنها . كانت مجرد فتاة صغيرة غضبي . تسبه وتسبهم . لا تريد أن تخرج ولا تحمل أدنى فهم لأشعاره . حتى أن نجومه المتوهجة أصبحت أحجاراً . ومضى الشاعر القصير البالغ الدمامة مفرداً . ولكن كان مقدراً لها أن تنمو وتكبر وتفهم الشعر . . وأن تحس بالفخر لأن كل هذه القصائد قيلت من أجلها . . ولأن الشاعر الذى تهوى الملوك مديحه يغر صريع لمسة واحدة من أناملها . وهكذا ينمو الحب . زهرة وحشية ومزيج من الخجل المؤلم والزهو الكاذب . .

توصل النطاس أبو الفرج إلى فكرة عبقرية . هتف بالمحيطين به . .
- سوف نقتطع قطعة من جسده . إن الألم الذى سيحدثه الجرح كفيل بإيقاظه من إغماؤه الطويلة . .

أحضر مساعده سكيناً صغيراً مدبباً . أمسكها أبو الفرج بنفس المهارة وطعنة صغيرة . فتح كثير عينيه . كانتا حراوين قانيتين . ضرب أبو الفرج الأرض بقدميه فى سرور : ألم أقل لكم . . أنا جالينوس العرب وبُعث الحركة فى أرجاء قريش وابتسمت الصبايا الصغيرات . وواصل التجار البيع والفصال فى ارتياح . وطلب «كثير» قطرة من الماء . لكن النطاس أخبره فى حزم أن جسده ملء بالحروق وأن الماء معناه الموت . قال «كثير» . . .

- سوف أرحل . سيأخذن الحوت الأسود فى جوفه لمدة أربعين يوماً . . ثم أعود .
أولد من جديد . . هكذا قدر لى . . كائننى أقرأ الآن لوحى المحفوظ .

واغمض عينيه . وعبثاً وخزه النطاس ليقظه . أخذ يهذى عن يونس بن متى والأمام المنتظر . . وعزة ؛ كانت جالسة فى خيمة بعيدة بينها صحراوات مقفرة . وجبال عجة متقطعة . كانت ترب اللبن فى زق من الجلد . وتفصل عنه السمن . وتغسل ملابس زوجها وتعال من اضطرابات الهضم التى تصاحب الحمل . يسألونها عن الأشعار التى قالها «كثير» فيها فتكتشف أنها نسيت معظمها . كان الحب إغماؤه قصيرة تبعثها يقظه قاسية . تدخل على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فيهتف مدهوشاً . أنت عزة كثير . ما الذى أعجبه منك ؟ . . ردت على الفور . أعجبه منى ما أعجب المسلمين حين صيرون خليفة . . وسكت الخليفة بعد أن أدرك سلاطة لسانها . وفى أحد مواسم الحج طلب منها زوجها أن تأتبه ببعض السمن . . طالت بين خيام الحجيج تسألهم . حتى دخلت إحدى الخيام فوجدت أمامها «كثيراً» . . لم تكن تدرى أنها خيمته . ولم تكن تدرى أنه مازال على قيد الحياة . كان جالساً يرى سهامه . وذهل حين رآها ترفع طرف الستر وتدخل . أخذ يبرى أصابعه بالسكين . والدم ينفجر شوقاً ورغبة عاجزة : جلست بجانبه تضمد جراحه . تقول له كلمة من كلمات العزاء . أى عزاء يقال للموت . ولم تنسى أن تأخذ زق

السمن الوحيد الذى كان يملكه . . وبعد أن تناول زوجها غذاء دسها . . اكتشف آثار الدم الموجود فوق الزق . وثار ثورة عارمة كما يليق بزواج شهم ، وكان الإنكار عملاً فقصت عليه ما حدث . وصمم الزوج أن تمضى معه إلى خيمة «كثير» ونسبه . وكانت تعاني من صداع مستمر . وتمقت المجادلة فنهضت معه . ذهبت إلى «كثير» ، لكزها زوجها فتقدمت خطوة وصبرخت في وجهه . . .

- يا ابن الأثمة . .

وانصرفت . ونفخ الزوج صدره ومضى مختلاً كالطاوس . . كان الأمر صيبانياً . ما جدوى طعنة اضافية والقلب تكاثرت عليه الطعان . . لم يبق إلا الحلم . . المهرب الأخير . . .

- « بعد اربعين يوماً من موت . . سأعود على فرس عتيق » .

كان الحلم هو التعويض عن كل الآلام . والجراح التي لا تكف عن النزيف . والسخریات اليومية . . كان يحلم بالبعث . بالرجعة في صورة أكثر بهاء وشباباً . يكون فيها فارعا عنيدا كفارس . قويا جوادا كسيد . مهيبا شديد الرهبة كملك . لن تكون عزة ذلك الحبيب الخجل البعيد المثال . سوف تفخر بين أصحابها . وسيقف الملوك كالشعراء الفقراء يتلقون عطاياء . . وسوف يصبح العالم أكثر جمالا وبهجة . لا يكون فيه شيء يبيع أو مثير للسخرية . .

دخول على عمته المعجوز فطرحت له وسادة يجلس عليها . . قال لها . .

- أنت لا تعرفينى . . ولا تكريمينى حق كرامتى . .

دهشت عمته . . أخذت تذكر اسمه . ونسبه . . لكنه قال في الجواز . .

- أنت لا تعرفينى . . أنا يونس بن متى . .

لم يكن بمنزلاً . ولكن لم يكن هناك بد من انتظار الحوت . حين يصل حب عزة لهذه الدرجة من القسوة والتباعد ، فلا بد أن يبتله الحوت ويلفظه من جديد . لعل هناك أملاً ما . وحين يعجز الأمويون عن إقامة العدل على الأرض . فإن الشيعة هي حلم الخلاص . ودم أولاد الأنبياء الذى سال فوق سهل كربلاء هو قربان العدل المفتقد . سوف يلتهم الحوت كل شيء . زوج عزة أولاً . وقصور الأمويين . والشعراء الذين يسخرون من قصر قامة . ويترك العالم خالياً ليبشر الأنبياء الصغار بدعواهم . . لعل عزة تحمل له ولوقليلاً من الحب . . تعطيه قبلة واحدة . . كانت عزة تستأذن في الدخول على زوجة الخليفة أم البنين . . سألها . . .

- يقول «كثير» فيك . . .

قضى كل ذى دين فوق غريمة

وعزة مطول معنى عريها . . .
ماذا يقصد بتلك المماثلة ؟ . . .
قالت عزة . كنت وعدته بقبلة . . .

قالت أم البنين . . إعطينها وعلى ائمةا يوم القيامة . .
كانت قبلة الموت أشد برودة واصل النطاسى المتشح بالسواد نخزه . لكن الجسد
كف عن الاستجابة . تكررت الجروح دون تقلص . أخذ حلمه وانطوى عليه . صعدت
امراً إلى سطح البيت وناحت بصوت عال :

- يا ولده . . مات «كثير» . . .

وتلون، الجسد بالزرقة . . بدا مليئاً بالثقوب والدم الجاف والدوائر المحترقة .
بكت البنات الصغيرات فى صوت خافت خوفاً من آبائهن . ارتعدت الأغنام .
واستيقظ الحوت مفزوعاً من أعماق المحيط . لكنه لم يكن يعرف الطريق للصحراء .
توقفت أصوات الفصاى . وخرجت قريش كلها من المضارب والبيوت . توجهت إلى
داره حيث يرقد الجسد المنهزء . هز الطبيب كتفه بلا مبالاة . كانت عزة بعيدة . كأنها
لم توجد أبداً . . كيف توجد وهى لم تعط سوى المزيد من الألم . وكأنها تضاعف عدد
الناس . واختلطت صيحات الاستغراب والتكبيرات . وللم الشيعة أطراف عبااءهم .
وأخذوا يدفعون الباكين :

- اذهبوا بعيدا يا أوصار أمية . . بالامس قتلتم الأنبياء . . واليوم تقتلون الشعراء .

وهنه شيخ عمجوز من الكيسانية

- سوف يعود . سستمع قريش وقع جواده . . سيعود مع الأمام المنتظر . .
وكانت النسوة المتشحات بالسواد يحشذن فى الطرق . رغم أنوف أهلهن . وإرادة
أزواجهن ويحتمعن فى رثاء متصل . يا ولده . . يا ولده

جاء أولاد حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . . يحملون رغم صغر سنهم سمات
آل البيت . حيث تختلط القداسة بالعدوية . جلسوا أمام بيته فى صمت . هل كانوا ينتظرون
نهضته ؟ . . أن يقف بين أيديهم ويلقى أشعاره فى رثاء كل صرعى العدل من آل البيت ،
ويضع بين أيديهم كل ما أعطاه له بنو أمية من عطايا . ويقبل أيديهم . لكن جسده مازال
ملقى . جمع النطاسى أدواته ومضى . جاء الغسالون . حملوا جسده بحذر شديد حتى لا
تهشم أعصابه . وعندما وضعوا الماء عليه ازدادت زرقة كانه قطعة من المحيط
البعيد . وتمتم الغسال مدهوشاً لم أر جسداً كهذه الزرقة . كأنه طفل سماوى . وواصلت
عرة رب اللبن . شاهده يتخثر ويتحول إلى قطع داكنة تذكرت بيتاً من الشعر قاله «كثير»
ذات مرة . . وقد زعمت أنى تغيرت بعدها . . ومن ذا الذى يا عز لا يتغير ؟ تساءلت . ما

الذى ذكرها . بهذا البيت الغريب ؟ لم تهتم وظلت ترب اللبن . ويبحث حفار القبور عن مكان لائق فلم يجد إلا تلا مفرداً عليه صبارة وحيدة . سأل زميله عن إنساع الحفرة . . قال له : أحفر ثلاثة أشبار فقط . . هذا كل نصيبه من الأرض . وامتلات كل الساحات بالناس . وقف الأمويون والشيعية والكيسانية والخواارج - كل من فرقتهم الحروب الأهلية والثارات القديمة - جنباً لجنب ، ولف الجسد في قمصانه القديمة . ثم في غطاء الفراش وكان أبو جعفر محمد بن علي بن أبي طالب في طرف المدينة يحاول اختراق جمع النسوة حتى يتصدر الجنازة . وأخرج الجسد أخيراً . وصرخت النسوة ينادين عزة . لعل الصوت يعبر الفيافي المقفرة . وأخذ أبو جعفر يدفع النسوة وهن يزاحمنه . ضريهن بكمه وصرخ .

- تنحين يا صاحبات يوسف . . .

وقفت امرأة في طريقه وقالت :

- صدقت يا ابن بنت رسول الله - وإنا لصوايحات يوسف . وقد كنا حيرا منكم

... له

نظر إليها في دهشة . . واصلت هي قولها :

- نحن دعونا للذات من المطعم والمشرب والتمتع والتنعم وأنتم معاشر الرجال القيموه في الحب ويعتموه بأبخس الأثمان وحبستموه في السجن . فأينا كان أحسن عليه . . .

وإبتلعها طوفان النسوة الأسود . تاهت في الزحام . لمس أبو جعفر النعش فأحس به حاراً كأنما يوشك أن يبعث . كان الرجال يحملونه للقبر . . والنسوة يحكين قصة حبه . عمره الحقيقي . . كان الرجال يسخرون من شكله . يخطفون عاءته ويؤلمون فيه أشعار الهجاء . ويسفهون كل أحلامه وكانت النساء يرددن اشعاره . ويبس قلبه نبضاته الأخيرة ويكون بملايسهن السوداء حوثاً هائلاً ينتشر على الرمل الأصفر يوشك أن يعيبه في جوفه ويخرجه بعد أربعين يوماً . شاباً . قوياً . لم تر قريش من هو أجمل منه . . .



وضاح اليمن الموقى يكتمون السر

غفى الوليد بن عبد الملك يوماً وهو جالس على العرش فحلّم بصحراء جافة قاحلة وأنه يقود قافلة عطشى . كلّموا وجدوا بئراً كان مسموماً . كانت الحيوانات تنفق والشمس لا ترحم . وأخيراً وصلوا إلى بئر عذب . أخذ الخليفة يلهث وهو يجذب الحبال الطويلة حتى صعد الدلو والماء يتألق فيه . لكنه ما أن مد فمه ليشرب حتى فوجىء برأس مقطوعة عملاً الدلو والماء يتألق فوقها . . لم يتعرف على الوجه . لكنه ظل يصرخ حتى استيقظ .

جمع الخليفة الفقهاء والحكماء وسألهم التفسير . عبثوا في لحاهم وبشروا الخليفة بكل أنواع الانتصارات على جميع الأعداء . لكنه عندما مضى إلى غرفته تذكر الوجه فجأة وتذكر أنه يعرفه . قال لنفسه . .

- إنه وضاح . .

لم يكف الأمويون أبداً عن الحلم بهذه الأحلام الدامية . . كلما ترامت الدولة وتوالى الخلفاء وازداد الاتباع والقصور . وربت جزية الأمصار المفتوحة . إزدادت التركة المثقلة مدم أولاد الأشراف والصحابة والمنشقين والشعراء . كان هذا مخاض الدولة . مخاض قسرى في أغلب الأحيان . ذلك الصنف من الرجال الذين بنوا الدولة كانوا بالغي القسوة وبالغي الحنكة أيضاً . أقاموا دولتهم في مواجهة تحديات الهيمنة الدينية والروح العشائرية لأنهم كانوا الأقدر على فهم ظروف العصر . وكانت وسيلتهم الأساسية هي نقل الصراع الداخلى الذى كان يستنفدهم دون طائل إلى صراع خارجى في مواجهة امراطوريات العالم القديم ، حتى أن دولتهم إمتدت من سهوب آسيا حتى شطآن أفريقيا وأطراف أوروبا . من أحل ذلك ضربوا بكل قسوة على أى انشقاق داخلى . .

كان مركز الثقل قد ارتفع مع المد الجغرافى من الجنوب إلى الشمال في دمشق . وظلت

الصحراء هي موطن الكاراة الأولى . تهب عليها ريح السياسة وتنحسر وتترك خلفها الكتيان ساكنة والمضارب منصوبة وكل شيء يبدو - للوهلة الأولى - على حاله . لازال الشعراء العذريون يلفظون أنفاسهم لقاء لحظة من العشق . والقبايل تتداول قصائد التشبيب وقصص الحب بنفس الاستمتاع . فإذا اجتمعت واحتاج الأمر لموقف رسمي تقاعس الجميع ووصفو الشعراء الغزليين بأقبح الصفات . . حتى أنه لم يوجد في الجزيرة من لم يحفظ شعر عمر بن أبي ربيعة ، ولم يمنع هذا قائل أن يقول :

- ما عصى الله قط قدر ما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة . .

وكان وضاح اليمن أحد هؤلاء الشعراء . .

شاعر غزل . إجتلمعت فيه كل صفات العصر المتطرفة . . شعر رقيق بالغ الرقة . وحسن فائق . ونهاية مأساوية . حتى أن طه حسين يشك في وجوده أصلاً . ويعتقد أن الحيال اليمني هو الذي ابتكره في مواجهة السيطرة الحجازية . .

كان مولداً . الأب عربي والأم فارسية من أتباع جيش الفرس الذي قدم لليمن لنصره سيف بن ذى يزن في صراعه مع الأحباش . وهو صغير ثار نزاع حول نسبة . . هل عربي أم فارسي ؟ وعندما ذهبوا إلى أحد القضاة العرب ، راعه جمال الصبي فهتف وهو يمسخ على شعره . .

- أنت وضاح اليمن . . ولست من أتباع ذى يزن . .

واشتهر بهذا الاسم . .

كان اشبه بـ «أرفيوس» عربي بالغ البراعة . يحل حيث لا مكان . يهتف بالأشعار فيهتز إيقاع الزمن . ويظل يجوب الجزيرة طويلاً وعرضاً مثل قطعة سحابة تحشى اللهبان . كانت الدولة تتسع والأماكن الحبيبة تفقد الفتها . يتكاثر عدد الأمراء وقواد الحرب وملوك الأرض . والسكاكين قد أعدت - كما هي العادة - لاغتيال الشعراء . ومثلما أحاط الشك بمولده . . أحاط الشك بموته . .

أصدر الخليفة أمراً أن يرتدى وضاح اليمن واثنان كانا معه من أجمل فتيان الجزيرة العربية أقنعة فوق وجوههم حتى لا يفتن نساء المسلمين في موسم الحج ويلذهب حجهم باطلاً . وعندما ارتدوا الأقنعة لم يكن ظاهراً إلا العيون التي تتألق مثل جمر النار . . ولم تحجب الفتنة . .

في بواكير الشباب . عندما كان الشعر طازجاً . أحب فتاة إسمها روضة . . إشتهرت باسم روضة الوضاح . فتاة يمنية حسناء . والحب ينصب الشراك عند عيون المياه العذبة في المضارب بعد أن ينام الأهل ذوو السيوف الحادة . لكنه مثل عادة كل الشعراء المتأججي

المشاعر أخذ يقول القصائد يشبب فيها . يصف اللقاءات المختلطة حتى طارت أنباء الغرام الجديد وعرفه الجميع . .

تقدم وضاح إلى أهل روضة يطلب يدها رسمياً . لكنهم كانوا يحفظون الشعر . وكانوا غصبي . واثارت تلك المخاوف التقليدية من أن يؤكدوا بقبول الخطبة صحة ما أشيع . نفس الموقف الذى وجد فيه الشاعر التعس قيس بن الملوخ نفسه . لا يستفيد العشاق أبداً من تجارب بعضهم البعض . لذلك تتكرر المأسى بنفس الصورة . . وهكذا . . رفض أهل روضة . . بل وأسرعوا بتزويجها لرجل آخر . .

كان رد فعل وضاح اليمن معاصراً فقد أغرق نفسه في الخمر . وفي مجموعة أخرى من النساء . . يتراوحن بين بنات الأسر الشريفة وبين الجوارى الخاديات . . وكان حب روضة هو حزن وحدته الليلي . وعندما أخذها الزوج الجديد ورحل . ظل هو يتابع القافلة حتى غابت وراء الكثبان وعاد وحيداً يقول أشعاراً في عشق الجوارى السود . .

لم تنته قصة الحب عند هذا الحد . ذات ليلة جاء رسول إلى وضاح وأخبره أن روضة تود أن تراه . لم يصدق أذنيه . وسار وراء الرسول ثلاثة أيام وثلاث ليال عبر فيافي موحشة لا تسكنها إلا الضباع . وطوال الطريق ظلت الغربان يعيونها الجائعة . تراقبها وتنتظر كان الرسول لا يتحدث كثيراً . وعبثاً حاول وضاح أن يعرف منه كيف جاءت روضة إلى هذا المكان الوعر وماذا حدث لزوجها . وأخيراً توقفاً عن الرحيل . . وهتف الرسول به :

- سوف تكون روضة في إنتطارك . .

كانت هناك خيام بائسة . . وأكواخ خشبية متكسرة . . وأوان للطعام . . ويقايا عظام . . ورائحة عطنة تغمر كل شيء . . وإستدار وضاح ففوجئ بالحقيقة المرعبة . . كان في وادى المجذومين . حيث تعزل كل القبائل المرضى الذين حلت عليهم اللعنة . . ينتظرون الموت البطيء . .

كانت روضة تقف أمامه . . تحت الشمس الساطعة . والجذام يأكل الملامح التي عشقها . البقع البنية السوداء لا ترحم . . تزحف وتنتشر . بدأ الشعر الفاحم يتحول إلى اللون الرمادى ثم يتساقط . والعضلات تتقلص . والريح إذ تلمسها تغدو مسمومة قالت باوضاح . . أنا أموت . وفي صمت وصع ما يحمله من مؤن بينه وبينها وأسرع بركوب جواده من وادى المجذومين . لاحقه صوته تنادية لكن الحب القديم كان قد تحول إلى كابوس . .

عاد للناس الأصحاء أكثر عزلة وخوفاً . الحلم أكله الجذام . وبصمة الأصابع السوداء فوق در شيء . . يرثى لها ويستحم في اليوم أكثر من مرة . . ويخاف من ملامسة الآخرين

حان موعد الحج . . وزوجة الخليفة أم البنين كانت تستعد للحج . والخليفة بعث يهدد كل الشعراء يحذرهم من أن يقولوا شعراً في أم البنين أو في من يصاحبها . .

كانت أم البنين في لحظة قبل الغروب . تقترب حثيثاً نحو الخريف النهائي . .

جاءت نوحج . وتعانق الصحراء . كانت تحذيرات الخليفة تلاحقها . وذهب وضاح لموسم الحج دون رغبة أو أمل . . لكن عينا أم البنين كانت تضيء . .

ما كان أبعد هواء الشام . وما أشد برودته . بعثت إليه ذات مساء فوافاهما في خيمتها وقال شعراً في عينيها . . وفي الأقمار التي تتألق على جبينها . ويبدو أنه نسي روضة التي كانت تلفظ أنفاسها في وادي المجذومين . . أما أم البنين فقد اختلطت عليها صورة الأبن وصورة العشيق وهي ترى وضاحاً . كان عمرها ضعف عمره . وكان جماله هو الزهور التي ذلت بين أيديها والولد التي فشلت أن تنجبه . . وظل الأمر مكتوماً بينها . .

إنتهى موسم الحج . وارتفعت الجمال الباردة بأحمالها . ومضى الركب نحو الشمال . وفي اليوم الثالث إنضم للقافلة فارس جديد . . وقف أمام هودج أم البنين وقال أشعاراً عن مرارة الفرقة . . وحفظ الجميع الشعر على الفور . .

وعندما وصلت القافلة لدمشق كان الخليفة مشغولاً بأنباء فتح جديد . أرسل عبداً لام البنين حتى يهنئها بالوصول ووعد أن يزورها في المساء ونسى الوعد . وعاش وضاح في دمشق . .

لكن الحماسة لم تفارق وضاح فأخذ يهرف بالأشعار . وأخذت الأشعار تنتشر . ولم تكن أذن الخليفة صماء لهذه الدرجة رغم أنه كان آخر من يعلم كما هي عادة معظم الأزواج .

طلب الخليفة أن يرى وضاح . سعى أحد الشعراء الذين كانت لهم صلة بالقصر . وأوصى وضاح أن يذهب للخليفة ويمدحه في أحد قصائده حتى يزيل الريبة من قلبه . . ذهب وضاح . وقف أمام الخليفة . وتلاقى الرجلان للمرة الأولى والأخيرة . . أدرك الخليفة أن كل ما سمعه كان حقاً . وعندما خرج وضاح من حضرته . صر من بين أسنانه . .

- سوف أقتله . .

لكن ابنه عبد العزيز بن الوليد . نهض واقفاً . .

- يا مولاي . . إن قتلتني فضحتنا . سوف يقول الناس أن الشائنة صحيحة . . وأنا قتلناه انتقاماً .
قال الخليفة بحنق متزايد : سوف أقطع لسانه . .

- سوف نجعله يذهب بعيداً عندئذ تموت الشائعة ..

هذا الخليفة بعض الشيء . لكن وضاح لم يهدأ . ظل يقول الشعر ويتخفى يلبس زى امرأة ويتسلل إلى القصر كلما حل الظلام وذات يوم وقع الذي لا مفر منه . جاء إلى القصر تاجر مجوهرات يهودى فاشتري الخليفة منه بعض الزمرد وأعطاها للغلام حتى يذهب به ويعطيه لأم البنين . حمل الغلام الجواهر ودخل الغرفة فجأة ، فقفز وضاح إلى أقرب صندوق واختبأ فيه .

وبأدب جم أعطى الغلام الجواهر . فتقبلته شاكراً بفضل الخليفة . لكن الغلام ظل واقفاً . فتطلعت إليه متسائلة ..

- الك حاجة . ؟ ..

قال الغلام بهدوء ..

- أريد واحدة من هذا الزمرد .

فهتفت زوجة الخليفة بغضب ..

- لا عليك اللعنة ..

خرج الغلام من عندها وذهب للخليفة وروى له كل شيء . وكان الخليفة أكثر حنكة وتفهماً للأمور : بدا فاتهم الغلام بالكذب وأمر به فذبح . وأمر الجند ففرضوا حصاراً حول القصر لا يدخل ولا يخرج أحد . ثم سار إلى غرفة زوجته . كانت جالسة أمام المرأة تتزين فى هدوء تطلع .. حتى وجد الصندوق الذى أعطاه الغلام أوصافه فجلس عليه . سادت فترة من الصمت الثقيل .. ثم قال الخليفة ..

- هل اعجبك الزمرد .. ؟ ..

قالت : ما تعطيه هو فضل منك يا مولاي ..

- ألا تعطينى شيئاً مقابلته .. ؟ ..

- كل شيء ملكك يا مولاي ..

صمت قليلاً . مسح أنفه . أشار للصندوق الذى يجلس عليه ..

- اريد هذا الصندوق ..

قالت بفزع . ولكن . ثم صمت . وبدأ وجهها بالغ الشحوب . قال الخليفة ..

- ولكن ماذا .. ؟ ..

- فيه ثياب وأشياء تحصى ..

- سوف أعوضك عنها . .
ولم يكن أمامها مهرب ، فاستسلمت : هولاك .

صفق الخليفة فجاء الخدم والأتباع . أمرهم فأزاحوا طرف السجادة . وأمرهم فحفروا
في الأرض حفرة واسعة . ونهض من فوق الصندوق . وأمرهم فحملوه . وضعوه في الحفرة
وأمالوا عليه التراب . . وسورا الأرض . . وأمرهم فارجعوا السجادة إلى مكانها . . وقف
فوق السجادة وقال ببطء . .

- يا هذا لو كنت كذبا فما دفنا سوى الخشب . ولو كنت صدقا فقد أرحتنا
واسترحنا . . ومضى . .

يقولون إنه لم يناقش زوجته في هذا الأمر أبدا . . وأنه لم يمس فراشها حتى مات . .
ويقولون أن أحدا لم ير وضاح اليمن منذ هذا اليوم . .
لقد علم الموت وضاحا أن يكتنم السر . .



قيس بن ذريح الطلاق . . أو الموت

كلفت خوص البحر والبحر زاحريقولون لبنى فتنة . كنت بخير قبلها فلا تندم عليها
وطلق . فطاوعت أعدائي . وعاصيت ناصحي وأقررت عين الشامت . كأنى أرى المحبين
كلهم عصارة ماء الخنظل . وهل الحب إلا زفرة بعد وفيض دموع تستهل إذا بدا . يالبنى
قلبي فى هواك سقيم . تتوق إليك النفس وأردما . أرواحنا فى الليل تلتقى ونعلم أنه بالنهار
نقيل ، إذا طلعت شمس الصباح فسلمى فأية تسليمى عليك طلوعها . تعلق روحى قبل
خلقنا . ومن بعد كنانطافا . وفى المهد . ومن يعلق حب لبنى فزاده . يم . أو يعيش كما
عاش سقيم . إلى الله أشكوما ألقى من الهوى . . وليل طويل الحزن غير قصير . إلى الله
أشكو فقد لبنى كما شكنا إلى الله فقد والدين يتيم . .

هذا قيس بن ذريح . وهذه نثار قصائده . طائر صحراوى يموت . . مملء القلب
بالحب والندامة . . رسالته الأخيرة إلى لبنى . . هذيان وبعض الأشعار . . كان العذاب
شاقا على قلبه . . هو الجانى . . وهى المجنى عليها
من منها أشد عذاباً . . ولبنى تسمع رسائله دون أن تصدق . . تقول بلا مبالاة . . ما أراه
إلا كاذباً فيما يدعى . . متعللاً كمادته . لكنه لم يكن كمادته . لم تعد تجديه التعللات . .
ماذا يفيد المسافر من حصى الطريق . . وكل ما ينتظره رساد بارد . . مقبرة للعصافير
المحتضرة . .

يبدأ الحب زهرة سرية . تتفتح فى بطن . وتلدوى سريعاً . ولا تبقى سوى
الذكريات . . كان قيس يتذكر لحظة التفتح الأولى . . وهو يسير عبر مضارب بني كعب
والخى خال من الرجال . . وعيون النساء ترصده من خلف خيامهن . كن جميعاً يعرفنه
ويكفى أن أباه ذريح أغنى أغنياء المدينة . . وقيس سيد حقيقى كما يجب أن يكون

السادة . . فارس . . شاعر . . وبنو كعب قبيلة فقيرة . . تقع بظاهر المدينة وتعيش على
فنائها . .

أحس بالعطش . وقف بالمصادفة أمام خيمة . مجرد خيمة صغيرة لا يميزها شيء عما
حولها . . وقف صامتاً . . كل ما فعله هو أنه رفع يده وأشار إلى فمه وانتظر . ثم سمع
صوتاً واهناً . . والتفت فراها واقفة . . ساحرة الوجه . مديدة القامة . . ولكن عينيها
كانتا زرقاوين . . قطعة من زرقه السماء . . بحر حقيقي عميق الغور فيه دعوة ملحة
للغرق . .

شرب قندح الماء الذى قدمته له وظل عطشان صادياً . حملت إليه كوباً آخر . . وأدرك
أنه لن يرتوى أبداً . . إبتسمت وقالت . .

- أنزل فتبرد عندنا قليلا . ؟ -

نزل إليها ، سأها عن اسمها . . قالت . . لبنى بنت الحباب . هتف مبهوراً . . لم أر
في الصحراء عيناً بهذه الزرقه . . حدثت فيه بلا خوف وبادلته الكلمات . . كانت الشمس
تواجه وجهها وتغير لون عينيها . . كل لحظة لون جديد . . ونظرة جديدة . . تضع أمامه
طبقات من النجوم الملونة . . وجاء المساء دون أن يشعرا . عاد الرجال إلى الحى . وإنسجبت
لبنى إلى خيمتها . وعاد الحباب الكعبى فرأى جواد السيد يرعى . . ووجد السيد نفسه
ذاهلاً . . وحين اكتشف أنه ابن ذريح شخصياً إزدادت درجة ترحيبه . زعق فى أهل بيته أن
ينحروا للضيف . وأفاق قيس ليكتشف أن الذى يحدثه هو اب . . وليس لبنى . . يتحدث
عن جذب البادية . وشح الأمويين . وحق الحسين الضائع . كان الحباب يعرف جيداً أن
قيساً والحسين بن على قد رضعا معاً من أم واحدة . .

عاد قيس إلى المدينة يهرف بالأشعار . يصف سماء الحب التى يخلق فيها . يجمع أشعة
الشمس الغاربة ويضعها فى قلبه ليظل مضيئاً طوال الليل . يتحدث عن عيون لبنى وسفرتة
الطويلة فيها . وانتشر الشعر كالعطر . . وظن أصحابه أن هذه صبوة جديدة من صبوات
الشاعر . . لكنه كان جاداً . . لا ينم . . ولا يسلو . . وسار إليها للمرة الثانية . وقف أمام
خيمتها فخرجت إليه مبتسمة . دعتة للنزول . . كانت قد سمعت كل ما قاله من شعر .
أبوها كان غاضباً وأمها عاضبة . لكنها كانت راضية . ترسم الكلمات فى قلبها أخاديد
رائعة من النشوة . سأها قيس . . أتقبلين الرواج منى ؟ . قالت ضاحكة . . أسرع قبل أن
يزداد انتشار الشعر ويزداد غضب أبى . .

عاد إلى أبيه . كان يحصى أرباح تجارته ويدون أرقامها . . كل الجيوش كانت
تتحارب . . بعضها يحارب الأعداء ومعظمها يحارب بعضه البعض . . وأيا كان الفريق
الفائز فإن «ذريحاً» يربح . والتاجر الناجح لا يفرو بين القتل والمقتولين . قال قيس . .

- إلى عاشق يا أبي ..
لم يكن الوقت مناسباً . رمى الأب أكيامس نقوده وقال بسخرية خفيفة :
- العشق مفسد للقلب .. ومبدد للريح .
وكان قيس جاداً فالح على أبيه .
- لقد عازمت على الزواج ..
- أخيراً ، طالما الححت عليك . إن المصالح متداخلة والزواج هو الذى يوفق بين هذه المصالح ..
قال قيس فى سرعة ..
- سوف أتزوج لبنى بنت الحباب بن كعب .
قلب ذريح شفثيه فى إزدراء واضح واثم ..
- يا بنى .. عليك بإحدى بنات عمك هى أحق بك .. وأكثر ثراء ..
- كان الأب يعتقد أنها نزوة .. نزوة لا تبيح له أن يهبط إلى مستوى بنى كعب .. وقيس يتحدث بلغة قلبه وهى لغة غامضة لا تحيد التعبير عن نفسها .. والأب يعرض أرقامه الصريحة ويرفض أى صفقة لا تعود عليه بكسب واضح .
- ذهب قيس إلى أمه .. وكان رفضها عنيفاً وأكثر أنانية .. كيف تقبل ، وما كعب إلا قبيلة تعيش على فضل السادة ؟ .. وتطاييرت أنباء الرفض . الأب سخر فى مجالس التجار .. وأبدت الأم امتعاضها فى مجالس النساء .. وكانت اهانة الحباب بالغة .. وكان رد فعله اعلانه أنه يرفض رفضاً قاطعاً زواج ابنته من قيس لعله يسترد شيئاً من كرامته ..
- وسار قيس إلى الحسين بن عل .. وحكى له ما حدث .. فنهض من فورده إلى بن كعب .. وفوجئ الحباب بوجوده أمام خيمته فنهض وهو يهتف ..
- يا ابن بنت رسول الله .. ما جاء بك ؟ .. ألا بعثت إلى فائيتك ..
جلس الحسين فى مقدمة الخيمة وهو يقول مبتسماً :
- إن الذى جئت فيه يوجب قصدك وقد جئتكم خاطباً إبتك لقيس بن ذريح .
وتردد الحباب .. كان الرفض أكثر من طاقته .. قال فى تردد ..
- يا ابن بنت رسول الله ما كنا لننصى لك أمرا ، وما بنا عن الفتى من رغبة ولكن أحب الأمرين أن يخطبها ذريح أبوه وأن يكون ذلك عن أمره فلنا نخاف إن لم يسع أبوه فى أن يكون عاراً وسبة علينا ..

كان محقا . ويتحدث من منطلق الدفاع عن نفسه . سار الحسين إلى مجلس ذريح .
كان وسط التجار يناقشهم أيهم أكثر مالا . . شيعه على أم الخوارج عليه . وهتف
بالحسين .

- ألا بعثت إلينا فأتيناك . . ؟
وبادره الحسين قبل أن تفتقر التحايا . .

- أقسمت عليك ألا خطبت لبنى على ابنك قيس ؟

صمت ذريح . تطلع إلى الحسين . إلى التجار . صفقة خاسرة ولكن كيف يمكن أن
يرفضها . واعترف بينه وبين نفسه أن قيساً قد أحس التدبير . وأصر الحسين أن يتم الأمر
في الحال . وساروا جمعاً كبيراً . . الحسين والأب وقيس في المقدمة وخلفهم بقية التحار
ووجهاء المدينة . وظلت الأم كثيفة في حباتها . نهض الحباب في وجل . أسرع يقترض
السجاجيد والحشايا والأرائك وحتى صحاف الطعام . تضايف الجيران حتى يبدو سيداً وسط
السادة . ولم يمنع كل هذا ذريحاً من أن يقلب شفتيه في ازدراء . وخرجت الكلمات بين
أسنانه :

- جئتكم خاطباً ابنتك لبنى . . . لابنى قيس .
وانبهر الحباب بالمفاجأة . . فقال ببلاهة . .

- قبلنا الخطبة . . وقبلنا الزواج . . وقبلنا كل شيء . .

تم الأمر في بساطة أشبه بالحلم . تزوجاً في خيمة صغيرة على حدود المدينة . على حافة
الألق . وجد قيس أخيراً مكاناً دافئاً بين ذراعى لبنى . تسطع عليهما شمس الصباح
المنخفضة . وترتعش على جسديهما تجمع حول جسده عباءة الذكريات . . كل ما قاله من
أشعار قبلها كان وهماً . . لكن الآن . . والعالم طوع يديه . حتى السحب تحي جبهتها
له . . إنه عاشق . . يدخل عيني لبنى فتغلقها عليه ويسبح . . وسط المحار . . وعشب
البحر . . والأسماك الفضية . . وظل أبوه غاضباً . وأمه متباعدة . لم يزوراها . ترسب
بينهما ثلج الجفوة . . ذهب إليهما أكثر من مرة يرجوهما . ويتودد إليهما . . لو يمنحانه فرصة
أخيرة يتعرفان فيها على لبنى . . . لعل شيئاً ما يذيب هذا الثلج . . لكنها رفضا كل محاولاته
للتقريب . .

ذهب إلى أخيه في الرضاع . . لعله يعاود التوسط . . لكن الحسين كان يستعد
للرحيل . . حان الوقت ليسترد ملكه المضيع بين أيدي الأمويين . . أهل العراق يتادونه .
والشيعه تستحنه . . كلهم يوجهونه للسير إلى بقعة صغيرة من هذا العالم اسمها كربلاء
سوف يتحدد فوق ترابها كل المصائر . . وهتف قيس . .
- سوف أسير معك .

سار معا في طرقات المدينة . . وسط أصوات التحريض والمبايعة . . وعاد قيس ليعد رمح وسيفه . . وإمتقع وجهه لبنى . . وحاول قيس أن يهون الأمر عليها . . كانت تعرف أن الحب لا يعيش وسط تحريضات القتال المتواصلة . . وفي الصباح اشتكى من بعض الصداع . . والحمى . . وألحت عليه لبنى أن يلزم الفراش لكنه أصر على الذهاب إلى أبويه ليخبرهما أنه قد قرر السير . . وتلقيا النبأ بذعر واضح . . همهمت الأم . . أما كان يكفى الزواج حتى تلقى بروحك إلى الحرب . . وهتف الأب وقد نحل عن جموده . . سوف أرفع للحسين كل ما يريد . . وضحك قيس وأبوه يرفض أن يفكر إلا في المال . . ألح عليهما أن يعودا . . أن يقبلا زوجته . . ألا يزيدا في هذه الجفوة المدمرة . . كان يترنح متعباً . . ولكن الأم قالت في حده . .

- لقد شغلتك عن برى ،

وانسحب قيس . إرتمى في أحضان لبنى وهو يهذى وفي المساء إحتقن وجهه وتفصد جبينه بالعرق . وأصبحت لبنى مجنونة . . تضع له أكياس الرمل المبلل . . وتغلى الأعشاب . . وتستدعى الطبيب . . وهو غائب عن وعيه . . يهرف بأشعار الحب . . ويناشد أباه وأمه . . وأصبح جسده رقيقاً كورقة شجرة ذائبة . . وجاء الحسين لزيارته . . وقال لجسده الفاقد الرعى . .

- كنت أرجو عونك . . ولكنى أسأل الله أن يعينك على شدة المرض . .

وسار الحسين إلى الشمال . . وهبط الرءاء السفح . . وإعتلى التل . . وتناثرت الجثث . . كان الجو حاراً خائفاً وكان على لبنى أن تذهب إلى بيت الأبوين . . رغم المقابلة السيئة التي تتوقعها . . لكن الأبوين هما اللذان حضرا . إقتحما خيمتها دون استئذان . لم يلتفتا إلى وجودها . اتجها إلى جسد ابنها المسجى . . لمسا جبينه المندى بالعرق . وبكت الأم بحرقة . والتصقت لبنى بالجدار وقد إلتأتها شعور غريب بالدنب . وأشار الأب من خلال الباب إلى العبيد الذين كانوا يتبعونه . . إقتحموا المكان . . فردوا الأغطية ولفوا جسد قيس . . حملوه . . أوشكت لبنى أن تصرخ . . لكن نظرات الأم القاسية أسكتتها . . حمل العبيد الجسد وساروا وسار الأبوان . . ولم تجد لبنى بداً من أن تسير خلفها . . كانت تحبه كثيراً . . وقد وهبها ذلك قدرة كبيرة على المقاومة . .

ساروا إلى البيت الكبير . . البيت الفخم الذى لم تجرؤ لبنى من قبل على دخوله . دخلته كاحدى الغربيات . . غير مدعوة . . ولولا أنشغالهم لوجدت من يمنعه . استدعى الأب كل نطاسى المدينة . انزوت هى بالقرب من سريره . . كانت هى بلسمه الأخير . . ظلت بجانبه . . قدرها أن تبقى في هذا المكان . . معشوقة ومرفوضة في الوقت ذاته وذات يوم دون أى قصد سمعتها يتحدثان عنها . . وعن قيس . . كانت الأم تقول في حدة . .

- لقد خشيت أن يموت قيس ولم يترك خلفاً . وقد حرم الولد من هذه المرأة وأنت دو مال وسوف يصير مالك إلى غير أهلِكَ . . وهذا والله لن يكون . .
وغاص قلب لبنى . . وهمهم الأب موافقاً ثم سأل . . :

- وماذا تريد . . ؟ . . .

- زوجه بغيرها لعل الله أن يرزقه ولداً . .

وأحست لبنى كأنها تختنق . تتلوى وسط طرقات البيت المتداخلة . . يمتلىء قلبها بالسواد . والجسد المريض صامتاً . . لا يملك لها حيلة ولا مساعدة . . هتفت بحرقة . .

- لا تتركنى . . لا أدري أهو ذنبك . . أم ذنبي . . ولكن لا تتركنى . .

ألقي عليها قيس نظرة مستغربة . لم يستطع التعرف عليها . . أهذه عين الحب التي رآها بها للمرة الأولى . .

نهض قيس من مرضه أخيراً . . نحيفاً . . رقيقاً . . كأنه يستعد لدخول العالم للمرة الأولى . . وجد نفسه في بيت أبيه فحسب أن الأمور قد عادت لطبيعتها . . وساعده هذا على سرعة الشفاء ولكنه كان واهماً . . كان كل شيء مؤجلاً فقط . . وكانت لبنى تعيش مأساتها الخاصة في داخلها . . كانت تترقب دورتها الشهرية في رعب بالغ الحدة . . إنها تحمل لها كل شهر نذير الفرقة والعجز عن المقاومة . . وهذه المرة فشل قيس في أن يعاود التحليق بها مرة أخرى .

وحدثت أول مواجهة صريحة بين الأب . . وبين قيس . . قال الأب :

- يا قيس لقد اعتللت هذه العلة فخفت عليك ولا ولد لي سواك . وهذه المرأة ليست بولود . . فتزوج إحدى بنات عمك لعل الله يهب لك ولداً تقر به عينك وأعينا . .
هتف قيس بلا تفكير ولا تردد .

- لست متزوجاً غيرها أبداً . .

قال الأب :

- فإن في مالى سعة . . فتسر عنها بالاماء والجوارى .

- ولا أسوءها والله بشيء أبداً . .

صرخ الأب في حده . .

- فاني أقسم عليك إلا طلقته .

- الموت والله أهون على من ذلك . ولكنى أخيرك خصلة من ثلاث خصال . .

- وما هي . . ؟ . .

- تتزوج أنت فلعل الله يرزقك ولداً غيرى ..
- ما فى فضل لذلك ...
- دعنى اذن أرحل عنك وأصنع ما كنت صانعاً لو مت فى علقى هذه ..

- لا والله .. ولا هدم ..
- فادع لبنى عندك وأرتحل .. لعل الحق بالحسين .. أو لعل أسلوها .
- وهتف الأب فى تصميم نهائى ..

- لا أرضى أو تطلقها .

صمم كل منها على موقفه .. ووصلت أصدااء حوارهما العنيف إلى الأم وإلى لبنى .
وسمعا سوياً الأب وهو يقسم بكل الايمانات المقدسة ألا يظله سقف بيت أبداً حتى يطلق
لبنى . وعلى الفور خرج الأب من البيت إلى العراء الواسع .. تحت السماء الصامته ..
والصحراء المترقبة .. وقف مثل صبارة عمجوز والريح تزوم وتملأ أرويته ..
وعاد قيس إلى لبنى .. كانت ترتعد .. والقطرات الحمراء تسلسل .. تلوث ثيابها
وروحها .. توصلت إليه ..

- لا تطع أباك .. فتهلك .. وتهلكى ..
- وقال قيس وهو يشاركها البكاء .

- ما كنت لأطيع فيك أحداً أبداً ..

كان الحسين بعيداً .. والأب بلغت به درجة العناد حتى أنه ترك تجارته وأمواله وظل فى
العراء .. فى الصباح تشرق الشمس فى نعومة .. ثم تستدير فى قسوة .. تفتح كل جروح
التلال والصحور .. وتسكن رأس الأب .. وتوصل إليه قيس أن يعود إلى داخل البيت ..
أن يرحمه ويرحم نفسه .. لكنه لا يرد .. وجهه جامد كالصخرة .. وقف قيس بجانبه ..
فرد رداءه فوق رأسه لعله يستظل قليلاً .. وإنقضى اليوم وبدأ زهريير المساء . لم يعد يجديه
التوسل .. وحاول قيس أن يذهب إلى أمه .. لكنها رفضت أن تقابله .. كانت تحمله ذنباً
جديداً .. عاد إلى لبنى وعانقها وبكت فبكى معها . وأشرق الصباح سريعاً يحمل لها دورة
أخرى من دورات العذاب .. الأب جالس وقيس غادر رداءه والشمس تسخر منها معاً .
لا كلام ولا تواصل .. ولبنى تترقب معجزة كل شهر . لعل القطرات تتأخر قليلاً لعله
مازال هناك بقية للأمل الضائع .. لحظتها سوف تخرج وتهتف فى قيس والأم والأب ..

- اننى حامل .. سوف أنجب عشرات الأولاد ..

لكن الأيام تمر . والأب العجوز يتقوس تحت الشمس . مثل حبات العنب وهى
تتحول إلى زبيب جاف داكل . تضاعف عمره . وتشابكت التجاعيد على وجهه .. وقيس

يظله بالرداء حتى يسقط إلى جواره والام داخل خباياها تذوى في صمت . عام كامل من
العداوات المتصلة ..

وتأخرت قطرات الدم .. نهضت لبني في مياعها فلم تجدها . لم تشعر بآلامها أحست
بنبضات غريبة وغامضة تسرى في بدنها .. لعلها البداية .. لعل جسدها أصبح صالحاً
لديب الحياة في داخلها .. سوف يكون هذا اليوم آخر أيام العدايات . ستلبس أجمل
أنوابها .. وتزين بأطيب عطورها .. وتخبئه ..

لكن الأب سقط متحشرج الأنفاس .. سال خيط من اللعاب الداكن من جانب
فمه .. وصرخ قيس . حاول أن يقيمه مرة أخرى .. وسمع صرخة أنه من الخلف ..
كان وجهها قاسياً صلباً وهي تقول من بين أسنانها ..

- أيها الولد العاق .. سوف تقتله .

تجمع الناس .. كل منهم يرمقه بنظرة إتهام صريحة .. يحاصرونه كقبضة يد قاسية ..
وهتف في أبيه يستحثه للنهوض .. ويعلن هزيمته على الملأ ..

- انهض يا أبي سوف أنفذ أوامرك .. سوف أطلقها من الليلة .. انهض ولا تحملي
وزرك ..

لم ينهض ولكن نظرة الانتصار بدت واضحة وجلية في عينيه . أسرع قيس إلى لبني ..
كانت في انتظاره متألقة كليله عرسها .. متفتحة للحظة الحب الأولى ... لمست وجهه
الأشعث المغبر .. قبلته وهي تقول ..

- عندي لك أخبارا جديدة ..

هتف في وهن ..

- بل أنا الذي أحمل لك الأخبار .

امتقع لونها .. تراجعت إلى الوراء . وضعت يدها على بطنها كأنها تحاول أن تحميها من
خطر داهم .. وهتف قيس ..

- سامحيني . لم أستطع .. هذا أقوى مما أحتمله .. لقد طلقتك .. وأنت حرام على
منذ هذه اللحظة ..



الفرزدق .. السائر على حد السيف

* حدثني أبو الفرج الاصفهاني عنه بحماس بالغ ..
الفرزدق لقب عليه وتفسيره الرغيف الضخم الذي تحففه النساء للفتوت اسمه همام
بن غالب بن صعصعة بن ناجية ..

* حدثني النساء عنه ناشمزاز واضح ..
كان يعشقنا . ونحن نعشق من يعشقنا . يكمل لك في داخلنا دورة الرصى
والكبرياء . ولكن خلف نظراته الشرهة كان يكن احتقاراً هائلاً لكل ما مثله . لم يكن نخافه
كما يفعل الرجال . كانت القبائل تهتز أمام لسانه . وكنا نقاط ضعفه . إن الشره أحق
دائماً . قالت نسوة من البصرة : خرجنا يوماً إلى غدير خارج البصرة . لم يكن هناك من
المخلوقات سوانا . خلعتنا ثيابنا ورمينا بأجسادنا الحارة المتعبة . كانت المياه ناعمة .
والشمس دافئة . ونحن لا نكف عن الضحك . فوجئنا بوجهه الكتيب المتنفخ يطل علينا
من فوق بقلته . فزعنا . حاولنا أن ندارى عرينا .. أن نهرب منه .. ولكنه ظل واقفاً
مبجلق العينين في نهم .. طلبنا منه الانصراف حتى تتمكن من الخروج .. ولكنه أخذ ثيابنا
وطلب أن نخرج عاريات .. قال :

- سوف تفعلن معي كما فعلت النساء مع امرؤ القيس في دارة جلجل ..
ولكننا بدلاً من ذلك قلدناه بالماء والطين والحصى ويكل ما وصل إلى أيدينا حتى در
هارباً .. لقد كان امرؤ القيس أميراً حتى هو يعابث النساء .. ولكن معاينة مثل هذا
الشر لا تجلب سوى العار لنا جميعاً .

* وحدثني «النوار» عنه برعب هائل ..
... ماذا أقول وهو ابن عمي .. ؟ .. قدرى الذي قدر لي . لم أكن أتعامل معه

كرجل . كان أكبر منى . وولى أمرى . والمتصرف فى أموالى . يدخل دأرى وقت يشاء .
فتدافع أمامه الجوارى ويجرى خلفهن مثل ضبع شرس . أفق بعيداً غيرراضية . لا أجرؤ
على الاعتراض . كنت أتمو . وأرى ذلك فى عينيه . بدأت أهرب من وجهه . أتعلل بأى
شئ حتى لا أراه . . ثم وقعت فى الحب . فارس من بنى دارم . يمر أمام بيتى كل يوم ويدق
الأرض بجواده . كأنما يهب قلبى نبضاته . الملح لحيته وطرف شاربه فأتوارى خلف مخارى
وأحلم باليوم الذى سيأتى فيه وينقذنى من وجه ابن عمى الدميم . كنت أخاف أن يصل
الأمر إليه بطريقة ما فيشهرى وبأحلامى . ثم سارت الرسل بيتى وبين فارسى النليل ، قال
إنه يريد أن يتزوجنى . قلت إننى موافقة . ولكن الأمر الصعب والسخيف . هو أن أرسل
للفرزدق حتى يأتى وأخبره لأنه ولى أمرى . وهو الذى سيزوجنى كما يقضى العرف . أرسلت
إليه جارية سوداء وأنا أعرف ضعفه أمام سوادهن . جاء خلفها يتلمظ . حط على بعينه
الشهتين . . قلت :

- خطبى رجل من بنى دارم . . وأنت ولى أمرى فزوجنى إياه . .
ضحك بصوت خافت . لم أعرف لحظتها ماذا تعنى ضحكته :

- لا أفعل حتى تشهدين أنك قد رضيت بمن زوجتك .

حسست أنه يود أن يسترد اعتباره أمام القبيلة . أن أبين لهم إلى أى مدى هو واصل
على . كم كنت أكره هذه الوصاية . .

- إننى راضية مادام هذا أمام الناس . .

أكد أنه موافق . إن الصلات متينة بين بنى دارم وبنى مجاشع وكلاهما من أشرف تميم
جاء قومى وتوثق أمامهم أننى رضيت بمن يزوجنى إياه . قال أعدى زينة العرس وصوف
أذهب للمسجد لإعلان الزواج . كدت أطيح فرحاً . لعلها المرة الوحيدة التى أحسست فيها
بإنسانيته . ذهب القوم للمسجد . أوقدت الجوارى الشموع المعطرة وأخرجت كل أنثاوى
الجميلة وامتأل المسجد بالناس . صعد الفرزدق للمنبر . حمد الله وأثنى عليه . . قال . .

- قد علمتم أن «النوار» قد ولتنى أمرها ، وأشهدكم أننى قد زوجتها نفسى على مائة
ناقة حمراء سوداء الحديقة .

وافق بنو مجاشع فى بلاهة . وحدث بنو دارم فى ذهول : وجاء العبيد بالخبر . إلتف قومه
حولى يثنوننى باختيار شاعرهم العظيم . أطفال شموعى . مزقت أثوابى . وبكت
الجوارى حولى .

جمعت مالى وثيابى . أعد العبيد لى الجياد . أقبل الظلام فتركت نفسى فى صحرائه
السوداء ونجومه الشرهة كعيون الفرزدق . أصبحت غريبة . ناشرة . والليل ستار هش .
قالت جارية . .

- يا مولاتي . خلف هذه التلال مضارب بنى عدى . بينك وبينهم صلة قرابة . .
إنجهت إليهم . تسلك لل مضارب . إرتميت تحت أقدام شيخهم . قصصت عليهم
كيف خدعت . أجارني . ظلمت ثلاثة أيام . وكل صبح يحمل رعب الفرزدق . ثم دخل
شيخ القبيلة حزينا ، قال :

- الفرزدق يهجونا أقذع هجاء . وسوف يتشر ذلك في أحياء العرب . ولسنا أكفاء
للسانه .

فزعت . على أن أرحل من جديد . شهر الفرزدق سلاحاً ماضياً . وأصبحت
الصحراء أكثر قسوة . وصلات الرحم بلا قيمة . لو أنه جاء سيف الحاربوه وردوه عنى .
لكنه شهر لساناً ما أشد رهبته . لجأت إلى بنى عاصم المنقرى . إستضافونى . . وعندما ردد
الرواة البيت الأول طلبوا منى الرحيل فى الحال . ولم يوافق أحد من بنى معيط على
إستقبالى . وزعم بنو كلب أن خلافتهم القبلية تمنهم من إستضافة الأعراب ، وادعى بنو
مزينة أنهم غير موجودين لأنهم ينوون الرحيل لأرض جديدة . . كان طعامي الرمل وخيزى
الصبار . والفيافي الوحشة تمتد فى قلبى . ومياه الأبار تجرى فى عروقى بدلاً من الدم . أود
أن أكف عن اللهاث . انعم بليلة واحدة خالية من الكوايس . أن يتوقف لسانه قليلاً . .
لكنه كان يتعقبى . يقول الشعر فى كل من يأويى أو يقدم لى شربة ماء أو كسرة خبز . أو
حتى يلقي على السلام . . ثم وصلت إلى مكة . إلى خولة بنت منفلوط بن زيان . زوجة عبد
الله بن الزبير . أمير المؤمنين على الحجاز والعراق . وحسبت واهمة أن لسان الفرزدق لن
يقدر عليه . ثم شمنت رائحته فى مكة بعد أيام قلائل . أدركت أنه جاء . نزل بأبناء عبد
الله بن الزبير ومدحهم ويسألهم أن يتشفعوا له عند الأمير . تحقق غرضه فإستجابوا له فى
البداية . لكن توسلت لزوجته وإستعطفت خولة الأمير فعاد ثانية إلى صفنا . وهجا الفرزدق
الجميع كما هى العادة . .

ثم توصلنا إلى اتفاق . اقسمت أنى لن أتزوج بعده . لن أعرف أى رجل . سأترك له
ما يريد من جوارى . أترك له مالى يأخذ منه ما يشاء . لقاء مطلب واحد . . الطلاق . .
سال لعباه للصفقة . . وافق . قلت . . ليتم هذا أمام الحسن البصرى . .

* حدثنى الحسن البصرى عنه بعد طول تردد . .

جعنى وإياه عصر واحد . ومدينة واحدة . قالوا علينا : خير الناس . . وشر
لناس . . لم أكن خير الناس . . لكن من يعلم ماذا تحببى الثياب . . جاء إلى . قال : إنى

هجوت ابليس فاسمع . . قلت لا حاجة لى بما تقول . قال . فلتسمع أو لاخرجن فأقول
لنناس أن الحسن ينهى عن هجاء ابليس . . قلت . . إسكت . فأنت تتكلم بلسانه . . ثم
جاء إلى مع ابنة عمه النوار . . كان قد تزوجها رغماً عنها . . قال أمامى :

- اشهد أنها طالق
قلت لها قد شهدنا ..
قال . ولكن مرة واحدة فقط .

صرحت الوار . لم يكن هذا اتفاقهما سوياً . وأحسست أنني محرج . كنت أود لو
أملك القدرة على إن أهدر دمه . وأن أريح المسلمين من لسانه . لقد عرفت أنه أعادها إلى
عصمته . . وأخذ كل أموالها . . وأخذ يخونها مع الجوارى السيئات السمعة . . وكان كل
خبر من أخباره يثير في نفسى الرعب والحيرة . . وكنت أهتم دائماً في صلواتي : اللهم
أبقنى من زمن يقاسمى فيه الفرزدق .

* ثم حدثنى الفرزدق عن نفسه . .
السائر في هذا الزمن كالسائر على حد السيف ، زمى الذى أكرهه وأتنفسه وأطالع
وجهى في مرآته كل صباح . كيف أحتمله دون أن أكون وغداً لهذه الدرجة ؟ . .
جاء أبى إلى ابن أبى طالب . . قال :

- هذا إبني من شعراء تميم فإسمع منه . .
قال على : علمه القرآن خير له . .

أثرت في هذه الكلمات . قيدت نفسى في أوتاد الخيمة . أقسمت ألا أحل قبلى حتى
أحفظ القرآن كله . وعندما كتبت الشعر قالوا . «لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة» . .
لكنه كان مصنياً كالناحت في الصحر . وربما كان نزع ضرر من أيسر على من أن أقول بيتاً من
الشعر . لكنه جعلنى ندأ للملوك وصديقاً للأوباش . .

وأنا صغير كنت أرى الغنم . جاء الذئب وأكل إحدى غنماتى . . عاتبتنى أمى فلم
أبه بالعتاب . كان الذئب حازماً وكنت راعياً فاشلاً . قال لى الذئب حين قابلته بعد سنين
طويلة ودعوته للطعام . كان عجوزاً وحكيماً . قال إن همى لم تكن لتتقف عند الرعى .
سألته فى أسى . . أكان لأبد من الرحيل عن البادية : تركت ذئباً واحداً حكيماً وجئت وسط
قطيع حائث فلماذا لا أكون ذئباً مثلهم . أعوى كما يعوون وأعود إلى حجرى في المساء ملوث
الأظافر بالدم . . إنه يسيل بلا ثمن فما ضر أن الغ فيه قليلاً . .

أنا أجبين الناس . اخاف الموت والسجن والجوع . رأيت الحجاج فلم أخف منه .
رأيت فيه نفسى حين أمسك السيف واستمرراً للقتل . نفسى الشرسة التى أخافها وإن
كنت في حاجة ماسة إليها . ومع الحسن البصرى رأيت نفسى التى فشلت في أن أكونها .
كنت أعرف أنني الجزء من نفسه الذى استطاع أن يروضه . ماذا أفعل وقد بدأت قبيلتى
تاريخها بالاعتداء على الحرم وصلبت كل ما فيه . وبدأت حياتى بخديعة «النوار» وهجاء

جرير . لم أفلت جارية من أنفى لى . حتى امرأة استضافتنى ذات ليلة باردة وقدمت لى طعاماً . فما أن دثت وشبعت حتى راودتها عن نفسها . أننى لسبت شرساً . أنا لا أجلس على عرش ولا أقود جيشاً . كل ما أفعله هو أن اتبع نزوات الصعيرة بعد أن ماتت كل الأشياء النبيلة فى كربلاء

. كنت ما أزال مقيداً فى أوتاد خيمتى حين جاء نسوة قومي وهن يصرخن :
- قبرت من شاعر قوم . . هتك جرير عورات نسائك وأبت ساكت . .

كنت معزولاً لا أحرف ماذا يحدث ؟ . . قالوا أن جريراً قد تهاجى مع شاعر من قومي يدعى « البعيث » وقد تفوق عليه وهجاً القبيلة وأفحش فى وصف نساها أنا أعرف أنهم أشد فحشاً مما وصف جرير . لكن العصبية أشعلت الحرب الكلامية بيننا أربعين سنة كاملة أربعون عاماً من الخصام والمناقضات والهجاء وتبادل كل ما فى قاموس اللغة من سائلم والأيدى تترى النار . والناس يتناقلون الأشعار . يرفعون يده بالغلبة ويدى حيناً آخر . كان نسبى شريفاً وحاضري وضيعاً . وكان هو شريف الحاضر مجهول النسب . . ولأننا نفتات الماضى البعيد فقد علوت عليه .

تلوموننى لأننى أغتصبت زيمتى من النوار . . وماذا فى ذلك . . هل كنت أترك الأغراب يأكلون ما لها الذى هو مالى وأقف لأتفرح عليهم . . لقد ضيع جدى كل شىء . . كان يفتدى البنات المؤذات فى الجاهلية . . الأحق كان كلما رأى رجلاً يريد أن يثد ابنته يشتريها منه ثم يهبها له . . وبمثل هذه الصفقات غير المفهومة ضاعت ثروى وأصبحت شاعراً صعلوكاً . لم أكن لأكرر الغلطة وأهب النوار لشخص غريب . . وعندما أصبحت فى يدى اخذت أخونها مع أى جارية تصلها يدى . حدث اننى تعلقت بهوى احدى الجوارى . . وأخذت أراسلها . . واعتقدت أنها مالت إلى وأرادت أن تجربننى فى الفراش . وأنا فى الفراش لا أبارى . . هذه هى كل ثروى . . واعدتنى على أن أذهب إليها فى المساء . . ولما أقبل الليل تسللت إلى حجرتها . . ثم إلى الفراش . . وكانت فى انتظارى . . كنت بارعاً . . كانت هى أيضاً بارعة ولكننى لوجئت بها تصرخ فى وجهى . .

- يا عدو الله . . يا فاسق .

كانت هى . . النوار . . لقد خدعتنى الجارية . . تأمرت هى وزوجتى ضدى . . ولم أتمالك أن هتفت فى حيرة :

- أنت هى . . يا سبىحان الله . . ما أطيبك حراماً . . وأرداك حلالاً . .

وأخذت أحاذر بعدها . . ولكن . . من الذى يأمن لهذا الزمان . . لم أكن آمن إلا لببت الشعر الذى يخرج من فمى . . أما بعد أن تتداوله افواه . . فلا أمان لشىء .

وعلى قبر «النوار» لم أقل بيتاً واحداً . الموت أجذب الشعر في داخلي . الحسن البصري والجميع نظر إلى بحق . النصيب الأكبر في موتها يقع على . لكنها أيضاً قتلتني . ضمنت على بحنانها وكنت في حاجة ماسة إليه . دون نساء الأرض كلها ظلت نائية . لا تعنى سوى رغبات مطفأة وحسرة تتجدد كل ليلة . كل النساء بعدها كن سلوى وكنت أبحث عن حياة ما خلف جلودهن ، وناحت النوائح على قبوها بأبيات من شعر جرير وقتلني هذا من جديد . .

* حدثني ابنه «لبطة» عنه بلا مبالاة . .

— قالوا أبوك على وشك الموت . لم أصدق . لعلها حيلة يسعى بها للزواج من جديد ! مللت وجوده على قيد الحياة . كرهت سعيه إلى كل صباح ليهتمني بالعقوق . يسعل ويسير معنى الظهر فإذا رأى طرف جارية كف عن السعال . هرم وشاخ ولم تنطفئ شهوراته بداخله . عبر أكثر من مائة عام . شاهد سبع خلفاء أمويين وعدداً لا يحصى من الفتن والحروب . .

آخر من تزوج كانت «ظبية بنت حالم» كانت أصغر مني سناً . تركها في البيت سنة كاملة . وفي النهاية فرت من وجهه كما فعلت النوار من قبل . لكنه هذه المرة لم يهرؤ على تتبعها . . وسار يدب في شوارع البصرة يبحث عن زوجة أخرى . .

قالوا . . لا بد أن تراه . . فليس أسوأ من مجافاة المحتضرين . . ذهبت فإذا أبي حقاً طريح الفراش . وإذا السنون المائة تجاعيد غائرة ونفس متحشرج . قال الطبيب أنه يعانى من ذات الجنب وليس هناك أمل إلا في الكي وشرب النفط الأبيض . شعرت بالحزن من أجله . كان ضعيفاً كما لم أره من قبل . أحضرت الجوارى أجواب النفط قلت له اشرب يأبى . نظر إلى كأنما يتساءل عن سر حنانى . تخرج أول كوب بسرعة ثم أخذ يسعل ويرتجف . .

— يا بنى عجلت لأبيك شراب أهل النار . .

القى بالدواء وطلب خمرأ صافية وشواء طازجاً . . وظل يحرق في بعينه الجائعتين . هتف : وصيتي . . أخذ يعدد لى أنواع الجوارى والمتاع . لم تخنّه ذاكرته في أى شيء . . قال :

— سوف أعتق كل الجوارى والعبيد وأدفع لهم بعض المال . .

لقد تذكر أخيراً أنه انسان . . تجمعت حوله الاماء وقد شعرن بحزن طاغ . كن يعرفن أن موته يحمل لمن العتق والحرية لكن شرارة الحزن تولدت وطلعت . أعطيته رقاً من الجلد ليكتب عليه ما يريد . . هز رأسه وهو يقول :
— أرونى من يقوم إلى مقامى . .

إذا ما الأمر جل عن الخطاب .

قلت جارية بحزن : إلى الله يا سيدى ..

فوجئنا به بثور فى عنف .. صمم أن يبيعها ويقبض الثمن لساعته . قلت يا أبت قل لا اله إلا الله . صرخ فى أن أذهب لأنى بالنحاس . قلت إنها لم تحطىء . سوف تذهب يا أبت ولا يبقى لنا إلا الله .. ظل نائراً حتى جاء النحاس . وباع الجارية . وحين كان يسقط الدراهم الفضية فى حجره قلت : خذ دراهمك .. لم يرد على .. ولم تطرف عيناه بنظرة الجوع المعتادة حين يرى مالا .. أو جارية ..

* حدثنى جرير عنه بحزن حقيقى ..

جاء الركب من البصرة فسألت عن آخر الأنباء . قالوا مات الفرزدق . قلت :

- ليت الفرزدق عاش قليلاً ..

لم أتمالك نفسى فدمعت عينائى . قال الذين حولى :

- يا سبهان الله .. أتبكى على الفرزدق ..

قلت : والله ما أبكى إلا على نفسى . إن بقائى بعده لقليل وما تقارب رجلا مثلاًنا على خير أو شر فمات أحدهما إلا أوشتك صاحبه أن يتبعه ..

كانت روحنا مرتبطين بشعرة رقيقة تتنازع حولها ولا نقطعها . قالوا إننا معا كنا أشعر أهل زماننا .. أتينا بما لم يأت به الأوائل . كنا جوادين فى حلبة رهان كلانا خاسر . نلهث ونعرق فتخرج أشعارنا زبدًا أجوف . نجرى فى أوطار لعبة لم نفهمها أبداً . هجائى بأبى فهجوته بأمه . هجائى بتارغى ونسى وهجوته بحاضره وفعاله . واختار الناس بيننا طويلاً وكل منا لا يكف عن فتح جراح الآخر الشخصية . كم تغدو الحياة كريمة وأنت تنام وفى فمك دم الأحريس . قالوا إنه كان لعنة قومه وكنت أنا شهاباً من نار . وقلت إننا فى قيد واحد . وضع على رداء لعنته واحترقت أنا بداحله .. وما بقى منا سوى قطعة من الأحجار يسمونها شاهد قبر .. قالوا مات الفرزدق .. قلت .

- فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ..

وأنحيله فى قبره يشد لحيته ويصحك بصوته الأجلش قائلاً : ابن المراغة يرثينى ! فتضحك الملائكة .. وتضحك الزبانية !



عبد الله بن الزبير مقتل المستجير بالبيت

طلباء مكة صبيدهن حرام .. فمن الذى أحل دمي .. ؟ ..
اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى العام الثالث والسبعون من الهجرة . والهواء عبق
برماد الحريق والرمل مشبع من الدم . وعبد الله بن الزبير قد بلغ عامه الثانى والستين ،
سارت الجيوش إليه من الشام مرتين حاصرتة فى مكة مرتين . نصبوا المجانيق وقذفوا
رؤوس الحجيج بالحجارة . قتلوا نداءات التلبية . وأشعلوا النار فى أستار الكعبة . وردموا
كل الأبار المقدسة .. كان عبد الله فى الداخل . والحجاج فى الخارج يحكم حصاره
الطويل القاسى .. تقلصت دولة ابن الزبير .. أصبحت مجرد قطعة من الصحراء
حول الكعبة .. مليئة بالقتلى .. والخرائب ..

وقف أمامه ولداه «حمزة» و«حبيب» ، ووقف ابنه الثالث «الزبير» خلفه .. كانوا يطلبان
الاذن منه .. أى اذن ؟ .. هل بقيت له سلطة .. حتى السلطة الأبوية ؟ .. حمزة هو
الذى يتكلم .. أقرب أولاده إلى قلبه .. منذ أن ولاه على الكوفة رغم أنف الجميع
وكان يود أن يجعله قائداً للجيوش ووليا للعهد . حمزة .. هو الذى يتكلم .

- يا أبى .. يطلب منك الاذن بالخروج إلى الحجاج .

غاصت الكلمات مثل بصل مسموم ، رام «الزبير» وحين ألتمت إليه رأى أصابعه وهى
على مقبض السيف أشار له أن يهدأ . وظل وجهه جامداً قال حمزة .

- سوف يعطينا الأمان إذا خرجنا إليه . لا يوجد هنا إلا الهلاك . (تردد قليلاً ثم
همس) إذا أدنت لنا ..

ما جدوى الرفض ؟ .. سوف يتسللان كما تسلل عشرة آلاف من إصباره

قبلها . . مثلما خلع المختار بيعته وأعلن الولاية لنفسه . مثلما غدر الأمويون . . وقتلوا مصعباً أخاه . . كل شيء ينهار والفران هي أول من يسرع بالهرب . . وظل وجه الابن الثاني «حبيب» صامتاً . . وأشار عبد الله بيده . إشارة لا تعنى الموافقة أو الرفض . . لكن الولدين انصرفا مبتعدين . . سيدهبان حيث يقفان بعيداً يطلان على تفاصيل المذبحة الأخيرة . . والصمت ثقيل كالموت . والتفت عبد الله إلى الولد الثالث وهو يتساءل . .

- وأنت . . ؟ . .

هتف «الزبير» في قوة . .

- كلا يا أبى . . سوف أبقي معك .

وفكر عبد الله . . أيها الأحق . . سوف تموت معي . . في البدء . . كانت البيعة وكانت الخلافة . . وجاء معاوية كالقدر فأخذ البيعة بحد السيف . . وورث الخلافة لأبنائه . وترك عبد الله في ذل الانتظار . . في البدء كان معاوية . . وكان عبد الله . . يبكيان معاً نفس القليل . يبكيان «عثمان» ويتوعدن قتلته . ويحلمان ذات الحلم . لكن معاوية صعد إلى ما يريد . . وتردد عبد الله قليلاً فضاعت كل الفرص . وظللا يتساجلان وسط جموع المسلمين الصامته المتفرقة في وهم الامام المنتظر . أيها الحق . . قتل الكوفة . . أم قتلى الحجاز . . ؟ . . قال معاوية . . أنا أول الملوك . . ورد عليه عبد الله . . امك هند آكلة الأكباد . . وأمى اسماء ذات النطاقين . . أبوك سفيان بن حرب . . وأبى الزبير بن العوام . . ومعاذ الله أن يكون أبوك خيراً من أبوى . . أما الدنيا فلك . . وأما الآخرة فلي إن شاء الله . .

ولكن عين عبد الله كانت على الدنيا . على عرش القرشيين الذى ضاع . منذ أن قتل أبواه في حربه ضد علي . وخرج الخوارج وتشردت الأحزاب . وتاهت الحقيقة . وبدأت كل الحروب دون سبب واضح . . لذا لم يكن هناك مبرر لانتهائها . وعبد الله ينتظر الفرصة حتى يسقط معاوية ويتبدد شمل بنى أمية . لكن المشكلة أن معاوية على العرش . والحسين بن علي في القلوب وابن الزبير يلعب لعبته الخاصة في حذر بالغ . . يعد يومه الآتى من كل لحظات الانتظار . ومن كل اخطاء بنى أمية عندما حاول معاوية أن ينقل منبر النبی من مسجد المدينة إلى دمشق وهو يصرخ في الانصار . . لا أترك المنبر بينكم وأنتم قتلة عثمان . وحرك المنبر فلانكسفت الشمس وشوهدت النجوم في الظهيرة . وأدرك ابن الزبير أن هذه علامة السماء . . بشارتها له . .

كان هو أول مولود في المدينة بعد الهجرة . زعم اليهود أنهم قد سحروا المسلمين فلا يولد لهم . . ومرت أيام الجذب بطيئة . ولم تكن بطن أمساء بالارتفاع الكافى . لكنه جاء . صرخ أولى صرخاته وسط تكبيرات المسلمين وحملته أمه إلى الرسول ووضعته في حجره .

وابتسم الرسول وهو يمسح على رأسه . . ووضع في فمه ثمرة كانت هي أول شيء دخل جوفه . . وأوصى أسبأ قائلاً . .

- أَرْضِعِيهِ وَلِرَبْمَاءِ عَيْنِكَ . .

وأرضعته . بدأ خطواته الأولى مع نداء الفتح . وأشدت ساعده في شمال أفريقية . وحوصر في بيت عثمان أربعين يوماً . وبدأ الحلم يترسب في داخله . مجرد وصية غامضة أوصاه بها عثمان قبل أن يموت . . زرعت في داخله كل هذه الطموحات . . وقادته إلى تلك النهاية . .

سار عبد الله يتفقد مملكته . إنكمشت الصحراء حوله كالطوق . وامتلاً حرم الكعبة بالحمايم والجثث الغريبة . الحبيج الذين جاءوا يسعون من أقصى الأرض ففاجأهم الحصار . واحتترقت الكعبة فوق رؤوسهم ، كانت مظاهر المجاعة في كل مكان . لا يوجد حيوان داخل مكة إلا ذببح وأكل . . حتى جواد ابن الزبير نفسه قدمه لانصاره فلدبحوه وأكلوه ثم تسللوا في المساء إلى الحجاج . .

تقابل مع ابن قيس الرقيات . شاعر قريش الذي وهب شعره من أجل بيعته . مدحه كما لم يمدحه أحد . . وهجا الأمويين كما لم يهجهم أحد . . كان مشعناً . . ذاهلاً . . يمحوس خلال الحرائق والجثث . كأنما يبحث عن الشيء الذي آمن به ، وقف كلاهما أمام الآخر . الخليفة والشاعر الذي آمن به . . كلاهما يحس بنذير النهاية ويشعر بمراثيها . قال عبد الله :

- لم يعد الشاعر يخشى من منظر الموت . .
قال ابن قيس الرقيات :

- بعد موت مصعب . . فكل الموت سواء . .

حتى ابن قيس يفتح الجروح القديمة النازفة . . ترك أشعار الغزل والصبابات وكل الرقيات التي شبيب بهن وتبع الحركة الزبيرية . وعندما تولى مصعب ولاية العراق نائباً عن أخيه ذهب معه ابن قيس . شاهد حروبه مع الأمويين ومع الأزارقة . ومع التوابين . حتى تولى الخلافة صديقه القديم عبد الملك ابن مروان . كانا صنيوين . ولذا كان صراعهما مريراً . ويموت مصعب اتسع الثقب في جسد الدول . ضاعت العراق . وضاعت مصر . وحمصا وحلب . والاردن . وتدفقت الجيوش عبر الصحراء : هدفها رأس ابن الزبير نفسه .

عاد يقول في حزن . .

- انظر . . ماذا فعل بنا الحصار . . حاصرنا الأمويون قبل ذلك . . بنفس الجيوش . وفي نفس المكان وانتصرنا عليهم . ماذا تغير هذه المرة . . ؟ . .

تطلع إليه قيس في دهشة مزجة بالسخرية ثم قال :
- ألم تدر بعد .. في المرة الأولى لم تكن قد أصبحت خليفة .. كنت فكرة ..
رمزاً .. والسلطة لا تستطيع حصار الفكرة أو الرمز . لكن السلطة تعرف جيداً كيف تقهر
سلطة مثلها ..

كانت نبرات صوته باردة فحب كل أبيات الشعر الحماسية التي قالها . بدا معا عندما
جمع معاوية أولاد الصحابة ووضع السيوف على رقابهم ليأخذ بيعة يزيد لإبنه . يزيد السكير
سوف يصعد على العرش . ويحكم جموع المسلمين .. ها هو عبد الله عليه أن يعطي البيعة
قسراً كما أعطها من قبل لمعاوية .. ومات معاوية .. وشدد حاكم المدينة حسب أوامر
الخليفة الجديد على عبد الله أن يبايع أو يوضع في السجن . وهو ما طل ويسوف .. وسار
إليه الحرس لكنه استطاع أن يهرب من المدينة إلى مكة .. يحتفى في حرما ويلوذ بيئتها .
يعلن رفضه لخلافة السكير .. يعلنها عالية ونهائية .. وأقام في البيت ليلاً ونهاراً يصل ..
ويهرز الصحراء المستسلمة .. ومات الحسين في كربلاء .. نزع خليفة القلوب وبقي خليفة
السيوف . وأخذ عبد الله يجمع حوله كل بقايا الراقضين والغاضبين والذين يؤمنون بالعدل
المطلق .. وغضب يزيد .. وجه إليه جيشاً كبيراً يقوده الحصين بن نمير .. حسبوه صيداً
سهلاً . لكن المستجير بالبيت لم يعد وحده .. جاءت إليه النجدات من كل مكان .. دون
أن يطلب شيئاً .. جاء أهل المدينة وعلى رأسهم قدامى الصحابة وأولادهم .. وجاء عامر
الحنفى من اليمامة يقود ثواره ضد الحكم الأموى . وجاء الخوارج الأزارقة وجاء المختار
الثقفى . حتى النجاشى أرسل بعضاً من الأحباش . كانوا يدافعون عن الكعبة وعن حرمة
المستجير بها . لكنهم الآن يرحلون في عكس الاتجاه .. واحداً .. وراء الآخر ..

سار عبد الله إلى بيت أمه .. أساء بنت أبي بكر . كانت جالسة في إنتظار زيارته
اليومية . بلغت المائة من عمرها ولم تقع لها سن ولم تبيض من رأسها شعرها واحدة . وكانت
تحدق فيه بنظراتها الصلبة .. لا يعرف فيها الشفقة من اللوم . أحس عبد الله كأنما ارتد
طفلاً صغيراً يعانى من الوحشة .. قال :

- يا أمى .. خذلى الناس حتى ولدى وأهل . لم يبق من عمرى إلا ساعة والحجاج في
الخارج يعطينى أمن الدنيا والعيش . ما هو رأيك ؟
قالت أمه في سخرية مرة :

- أنت أعلم بنفسك . إن كنت على حق أو على باطل .. فيم قتل هؤلاء إذا كنت
تبتغى الدنيا . فيما قتلهم وأنت تمكن رقبتك لغلما بنى أمية .. إن اردت الدنيا فبئس
الناس أنت . أهلكت نفسك وأهلكك من حولك .. وإن كنت على حق .. فما الخير في
حياتك وأصرارك على العيش .. ؟ ..

أحنى عبد الله رأسه . كانت هذه لحظة ضعف طفولية لا يجرؤ على اظهارها إلا امام أمه . . قال :

- ما ركنت إلى الدنيا ولا أملت الحياة فيها . فإنظري يا أمي إلى مقتول من يومي هذا فلا يزيد هذا من حزنك . أبني لم أجر في حكم ، ولم أغدري أمان . ولم أتعمد الظلم . وكنت صواماً . . قواماً . . أحكم بالعدل . . لا أقول تزكيه لنفسى ولكنى أقوله تعزية لك . . ليسلو قلبك عنى . .

قالت أسماء :

- يا بني . . تقتل حين تقتل على حق

ساكنة تتلقى النهاية عرفت نهاية اللعبة بعد أن شاهدت بدايتها . وتساقط أولادها كأوراق شجرة ذاوية . . صورة مصغرة لكل ما حدث حولها دم بلا ثمن ، وقضية ضائعة ؛ كل طرف فيها يعتقد أنه المحق . .

خرج عبد الله إلى جولته الأخيرة . . تطلع إلى كل من بقوا معه . ما أقلهم . أمي الشجاعة أم نوع من حماقة الانتحار . بعد انتهاء الحصار الأول . بايعه الخوارج على أن يذم عثمان ويثأر من قتلة على . . ورفض عبد الله . . وتقدم إليه قائد الجيش الأموي يبايعه ويطلب منه أن يصطحبه إلى دمشق . ورفض عبد الله . . وعرض عليه المختار الثقفي أن يشاركه في الأمر بعد أن يقتل الأزارقة . . والتوايين . ورفض عبد الله . كان ينتزع خلافته من بين أنياب الجميع . هو وحده القادر على أن يملا الأرض عدلاً بعد أن امتلأت جوراً . وإستدار الزمن في دورته المفجعة . حين أعلن خلافته قلبها الجميع وانتشر عماله في كل أرجاء العالم الاسلامي إلا بقعة ضئيلة في الشام . واختار الأمويون اختياريهم اليائس الأخير . اختاروا شيخهم الفاني مروان بن الحكم . . وكان أول شيء فكر فيه أن يرحل إلى الحجاز ويبايع عبد الله ويخلع نفسه . لكنهم منعوه . وأصبح في الأرض خليفتان وحرثان ، ودماء كثيرة . ومات مروان ليأتي ابنه عبد الملك . وفجأة إنقلبت الأمور . سارت جيوش عبد الملك تحت قيادة الحجاج بن يوسف الثقفي تحتاح كل شيء كالطاعون يقتل دون رحمة . ويثيب دون حساب . في الوقت الذي تحاذلت فيه جيوش عبد الله ومات مصعب وظهر المختار الثقفي بوجهه الحقيقي . . فخلع بيعه عبد الله وأخذ يدعولنفسه وأصبح في الأرض ثلاثة خلفاء . . وانقلب الزمن المزدوج الوجه المليء بالطموحات القاتلة . .

آه . . ما أطول ذلك اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى . العام الثالث والسيعون من الهجرة . . وعبد الله وسط مكة . . أسد عجوز محطم الأنياب . والحجاج يعد العدة للاجهاز عليه . . لا يريد أن ينفرد أحد بقتله . . مثلما جمع حوله كل العرب يجب أن يقتله كل العرب . . وضع أهل حمص على الباب المواجه للكعبة . وأهل دمشق على باب شيبه .

وأهل الاردن على باب الصفا . وأهل فلسطين على باب جمح . وأهل قنسرين على باب
نميم . ووقف الحجاج على باب المروة . . . وعبد الله في الوسط . . . يصرخ في أصحابه . .

- صونوا سيوفكم تصونوا وجوهكم . لا تسألوا عني . فمن كان سائلا فإني في
الرعييل الأول . .

لكن أنصاره تراجعوا . تركوه لأحجار المنجانيق ولجند الشام والذباب . هبط على
رأسه حجر ضخيم وتدفقت السيوف داخل جسده . كل الذين بايعوه ، وخذعوه . . ومن
بعيد كانت الكعبة تطل عليه . . عالية . . أعاد بناءها بعد الحصار الأول . . كانت تقل
بمقدار سبعة أذرع عما بناها إبراهيم الخليل وظلت هكذا حتى أعاد عبد الله بناءها وأضاف
إليها الأذرع الناقصة . . هوى على رمل الأرض الحرام . . وحوله وجوه غريبة . . ملطخة
بالدم والسواد . . قال أبيات شعره الأخيرة . .

يارب أن جنود الشام قد كثروا
وهتكوا من حجاب البيت استاراً

وغرق في ظلام الموت الكثيف . وهلل الجند لعل تهليلهم يصل إلى الخليفة البعيد في
الشام . ووقف الحجاج على رأسه . أشار أن تصلب جثته في ساحة الكعبة . صمم جديد
.. ميت . . مستننز الدماء . . يرقد معنى الرأس . مقوس الجسد . غائر العينين . .
كان الحمام الذي يعيش في حرم المسجد الحرام قد طار أو قتل في أيام الحصار . وأمتلات
السماء بطيور سوداء جائعة تصرخ في نهم حتى أن صرخاتها غطت على صوت الأذان . .

وخرجت أسماء تحمل على كتفها أحزان سنواتها المائة . وقفت أمام جسد ابنها
المصلوب والحجاج يرقبها في تشف . . لم تسأله شيئاً . . لكنه هو الذي صرخ كأنما يدفع
نظراتها .

- لن يدفن حتى تأكله طيور الصحراء . .
وقالت أسماء :

- سمعت رسول الله يقول : يخرج من ثقيف كذاب . . سفاح . . الكذاب فهو
المختار . . وأما السفاح . . فهو أنت . .

وظل الجسد المصلوب معلقاً يرقب بعيونه الغائرة المعاول وهي تهوى على الكعبة تنفض
البناء الذي بناه . . البيت الذي إستجار به . . لعلها تمحو دمه . . وأثره . . وخلافته . .



أشعب

العيش على فتات الآخرين

* حدثتني عنه مدينته .. قالت .

كلما ذكرته - بجسده الضخم وهيئته الدميمة - إقشعرت أرض الحواري . واصططكت أبواب المنازل وغاضت الينابيع . كان لحوحاً كذبابية .. شرهاً كضيق يجرس خلال المقابر .. طماع مثل .. مثل .. وهل هناك أطمع من أشعب ؟ .. قال دينار ضائع .. وجدني أشعب في إحدى الطرقات . وبدلاً من يسأل عن صاحبي . إشتري بي قصعة من الفخار ووقف على باب المسجد وهو يتف . من يتعرف على هذه القصعة .. ؟ .. وقال باب بيته .. كان في أخشاب فتحة . حين ينام أشعب كان يخرج يده منها لعل إنساناً يمر ويطرح في يده شيئاً .. وقالت امرأة تمهدل البوص .. وقف أشعب أمام دكان وأنا أجدل طبقاً فقال . لتكبريه .. فقلت . ولم أتريد أن تشتريه ؟ .. قال . لا ولكن عسى أن يشتريه شخص فيهدى إلى فيه .. فيكون كبيراً خيراً من أن يكون صغيراً ..

لم يكن يكف عن السير والتسكع .. الدروي مرسومة في باطن قدميه . وأنفه الكلبية تتبع آثار الطعام والدنانير . كلما رأى تهاوس إثنين اعتقد أنها يوصيان له بشيء . لا يترك نافذة إلا ونظر من خصاصها . لا يجد باباً إلا ودس عينيه في ثقبه . كلماته مبللة باللعب . ولعابه ملون بالشراة .. وشراسته بثر بلا قاع . قال صبيان المدينة : كنا نسير وراء أشعب . وضاق بنا فزعم أن عمرو بن عثمان يقسم أموالاً بين الناس . وحين صدقناه وانصرفنا نبحث عن هذه الأموال . فوجدنا به خلفنا يسعى إلى عمرو بن عثمان وقد صدق

كذبه : وقالت جارية : كان أشعب يجيء للحديث معي . فقالت لي جارائي : لو سألتك شيئاً فإنه مؤسر . فلما زارني كعادته قلت له : يقلن لي جارائي ما يملكك أشعب بشيء .. فخرج نافرأ من المنزل ولم أره لمدة شهرين حتى جاء ذات يوم وجلس أمام الباب فأخرجت

إليه قدحا من الماء وأنا أقول . . إشبرب هذا من الفزع . . فقال . . إشبربيه أنت من الطمع .

كان يريد العالم كله بلا ثمن . يريده شيئا محسوسا بين أصابعه . لا مانع من أن يمر عليه بلسانه بين الحين والآخر . فاسداً . نيثاً . جيفة . لا يهم مادام بين أصابعه . كل لحظة هي لحظة الأخيرة . . من يستطيع أن يطفىء آلة الشرارة المتوقدة في داخله .

* حدثتني عنه أمه . . قالت . .

أشعب ابني وليس ابن أحد غيري ، لا أعرف من هو أبوه بالضبط . . إنه يحسب نفسه أشعب بن جبير . وأنا متأكدة أن جبيراً لم يعرف أبداً أن له إنثاً على قيد الحياة . المسألة أن الليالي متشابهة والرجال في الظلام متشابهون . ولكن الأطفال يلحون في السؤال بلا مناسبة . فليكن أبناً لهذا العالم المليء بالجوعى والمتخمين . . ليختر أى لقب يشاء . . ولكن عليه ألا يبيت الليلة دون عشاء .

بعد ولادته جف اللبن في صدرى ولم أجد له غذاء . وظللت أطوف على سيدات المدينة . لم أكن أملك مالا أخصمه لمرضعة . فجعلت أستوهب له كل وجبة من وجباته . . ما كان أجدرى أن أتركه للموت جوعاً كما مات غيره حتى لا يكبر ويلقى على هذه الأسئلة السخيفة . الطفل الأحق تشبث بالحياة . كلما وافقت امرأة على إرضاعه أنشبت فمه بهم غير عادى . كان يتلمظ في حضنى . ويبدو مصغياً شديداً الاصغاء وأنا أتوسل لأى امرأة أن تجود عليه برضعة . . لا يبكى . يظل هادئاً حتى يشب إليها . . الوغد الصغير . لقد تعلم أن يرضع من كل الصدور . ويأكل على كل الموائد . وينافق كل السادة . . ويحفظ كل فتات الشعر ويلح في السؤال . ويبالغ في التذلل . ويبكى خشية الرفض . ويكون ممتناً دوماً . شاكراً أبداً . مطيعاً للأصابع . مليئاً لأشارات الأصابع . يحكى النكات إذا حضر المدام ويجود القرآن إذا سحر الليل

حين علمت أنه تعلق بأستار الكعبة ودعا الله قائلاً . .

- اللهم اذهب عني الحرص والسؤال والطلب . .

ثم مر بالقرشين فلم يعطه أحدهم شيئاً وجاء إلى خائباً خالى اليدين . صحت فيه .

- لا والله . . لا تدخل من الباب حتى ترجع فتستقيل ربك . .

ولم ادخله حتى عاد إلى أستار الكعبة وتعلق بها وهو يهتف .

- يا رب أقلنى . .

فلم يمر بمجلس من المجالس إلا وهبه أحدهم شيئاً . .

ثم يأتي هذا الأحق ليسألنى من هو أبى . . كأنه يعتقد أن لهذا السؤال أهمية . قلت له

على الفور .. إنه جبير .. وكان مصعب بن الزبير قد ذبحه . وسار أشعب يبكي أباه .
وقلت في نفسي .. ولعله زيد . أو تبع .. أو عمرو .. أو أى كائن من كان .. الأرض
واسعة والساء شاهدة .. ولماذا تطالبني وحدي بالأجابة على كل الأسئلة ..

* حدثني أشعب عن نفسه .. قال ..

عليكم اللعنة جميعاً ..

تحدثون عن أخبار جشعى . ونوادير طمعى . وأنتم أكثر نهباً منى . لا أنطلع إلا
للطعام . وأنتم لا تكفون عن نهش جسدى . تحدثون عن كيف مررت بقوم يأكلون . فلما
سلمت ردوا سلامى بجفاء . سألتهم ماذا تأكلون .. قالوا سمياً . فجلست بينهم وأنا
أهتف . الحياة بعدكم حرام . تحدثون عن أنى أكلت فالودجة . وجدياً مشوياً . ورغم
المغص الشديد لم أتوقف حتى لا تحسب سابقة على أننى أبقيت شيئاً . تحدثون أنه لا تزف
عروسة فى المدينة إلا وتوقع أن تهذى إلى . وحين طلبت منى امرأة هويتها خاتمى لتذكرنى
به فقلت لها : أذكرى أنى ما منحتك إياه فهو أحب إلى ..

إننى الجزء الأسود الذى تمجاهدون فى إخفائه . أعلن نزوان الصغيرة .. واطالب بحق
معدنى . ولا أكتف رغبة مها سفلت . أنتم أشد جبناً وخجلاً .. تمجاهدون كل عمركم لخلق
رغبة . تقطعون جسدى سيوراً لنبالكم العمياء .. وسهامكم الصدئة ..

عليكم اللعنة جميعاً ..

كنت صغيراً عندما اقتحم الحرس دارنا . وحضر الوالى والقاضى والشيوخ .
وصعاليك المدينة . أخرجوا أمى محلولة الشعر . ممزقة الثياب . والنساء الفاضلات
يصرخن ..

- أرجوها ..

لم يكن ينقصن سوءاً عنها حتى القاضى برقت عيناه فى نهم وهو ينظر إلى جسدها
العارى الممزق الثياب وأنا أعض أيدى الحرس التى تقيدنى . وأحاول التملص . وحين
تقابل وجهانا . لم تكن تبكى . كانت مدهوشة لأن زياثتها القدامى تحولوا إلى ذئاب . صاح
فيها الوالى ..

- ضببت متلبسة . وشهد عليك شهود عدول .. وثبراً منك أهلك وعشيرتك ..
فلم تطلب الرحمة . ولطالما سألت الكثير وعلمتنى حرفة السؤال وذلل الخاف فلم تطلب
بضعاً من الحياة . ونظر الوالى إلى القاضى . ونظر القاضى إلى أمى . ونظرت أمى إلى .
وخصمتى بنظرتها الأخيرة وقال القاضى ..

- تحلق .. ويطاف بها .. ثم تجلد .

وكان موسى مثلوما ، يقلع ولا يخلق جدائلها الطويلة ، ليلي الصغير حين أخبىء وجهي وأحلم . أرضع طعامي من صدور النساء ثم تعطيني شعرها لأنسلقه نادراً ما كنت أظفر بنجمة صغيرة . أجتزت رأسها وأصبحت بيضاء صلعاء . غاية القبح يا أمي . وبدت الملامح غليظة مثل نعل قديم . ووضعوها على حمار ووجهها للناحية الأخرى . كان الحمار هادئاً تماماً . . مثل حكيم يدون أقواله . ووقف الحراس ضاحكين . تذكرت أحدهم وهو يضع قطعة فضية في يدي ذات ليلة . . مضى الموكب . والجلاد يمسك السوط ويهوى عليهما . أمي والحمار . . وأنا طفل الزحام اليتيم . أتبعك ، اشاركك عارناً المشترك . . أنت أبي الذي لم يرى وذكرى المفضوحة . والسوط يهوى على ظهري . . شربت مهانتها قطرة فقطرة . خطوط على شوك عارها خطوة بخطوة . وحين كان السوط يهوى ثم يصعد نائراً قطرات الدم لم أدر . . دمها . . أم دمي وحيدتين ، جلست إليها وفي يدي قارورة الزيت أدهن ظهرها الممزق . لم تكلمني . كان وجهها أبيض مائلاً للزرقة . كانت ميتة ولن تعيدها زيوت الدنيا إلى الحياة . وفي صباح يوم لا أذكره وجدتها متبسة . متكومة الأعضاء . جلدها أزرق . . والدم المتجلط على ظهرها تحول إلى اللون الأسود . .

لم يبكها أحد . تولت تربيقي وكفالتى عائشة بنت عثمان بن عفان . وإبتعدت عن الطريق . وعن مذلة السؤال . دخلت إلى عالم واسع . . عالم بيت الحكم في ظل أمير المؤمنين عثمان . . حتى أننى ذات لحظة . . فكرت أنه من الخير أنها قد ماتت . . لقد أتاحت لي بموتها هذه الفرصة الوحيدة لكي يكون لي هذا البيت . . وهذا الأب . .

لكنى إستيقظت صباحاً . لأجد المئات من الناس يحاصرون بيت الخلافة ، كنت صبياً لا أعرف ماذا تعنى السياسة . لكنى رأيت السهام تهبط علينا كالطرر . وامتنع دخول الماء والطعام إلى البيت . والخليفة جالس في الفناء يقرأ في مصحفه الذي قدر له أن يقتل فوقه ، وسط عشرات المسلحين والسيوف والرماح . .

خمسون يوماً وقبضة الحصار تزداد حولنا . كل يوم قتيل . وكل لحظة دم ضائع . وعندما اعتلوا سور البيت . أشعلوا النار في الأبواب . وذبحوا الخليفة . وجدتنى وحيداً يتناً مرة أخرى . لقد إغتالوا كل الدين أحببتهم . فلماذا لا أطلبهم بفتات حيان . لم لا ألحف في السؤال . وإنتزع من على وجوههم أقنعة الكرم الزائفة . . أكشف عما في داخلهم من شح وبخل وانانية . .

حين وضع أحدهم . فالودجه ماسخة أمامي وطلب مني رأيي . . قلت . .
- لعلها عملت قبل أن يوحى الله للنحل أن يصنع عسلاً . .
لم يكن أحد يجود بما عنده إلا خوفاً من الفضيحة . . وعلى في كل مرة أن أجرب معهم حيلة جديدة . .

كنت أرى جديا صغيرا . وجعلت زوجتي ترضعه من لبها . تذكرت كيف كانت أمي تحملني إلى زوجات الآخرين . وذهبت إلى اسماعيل بن جعفر وأنا أقود الجدى . .

- بالله إنه لابنى . قد رضع بلبن زوجتي وقد حوتك به ولم أر أحدا يليق به سواك ونظر اسماعيل إلى الجدى . أدرك أنه إزاء حيلة جديدة من حيل . . أولعله خشى أن تكون فتنة من الفتن . فأمر به فذبح وسمط وأقبلت عليه وهو يأكله أطلب منه المكافأة . . ففوجئت به يقول . .

- ما عندى والله شيء . . مربنا فيما بعد . .

وظللت ألح عليه في السؤال حتى أصابني اليأس . فقممت وذهبت إلى أبيه جعفر بن محمد . . وأخذت أبكى في حرقة وأنا أهتف . .

- وثب ابنك اسماعيل على إبنى فذبحه . وأنا أنظر إليه . . وفزع جعفر وهمهم مرتبكاً . .

- ويلك . . وفيم . . وتريد ماذا . . ؟

وأدخلني منزله . وأخرج إلى مائتي دينار وهو يتوسل إلى أن أهدأ ويعدن بالمزيد . وأفلت أنا والنقود . وذهب جعفر إلى ابنه فعرف منه القصة الحقيقية . كان كلما قابلني يقول . .

- رعبتني رعبك الله . .
فأقول له . .

- روعة ابنك والله إياي في الجدى أكبر من روعتك أنت في المائتي دينار . ذات مرة وجدت من هو أبخل مني وأشح . ومن هو أقوى من أن أقاومه . حدث ذلك حين تولى على المدينة رجل من بنى عامر . . وكان من أبخل الناس وأنكدهم . وأغراه الله بى يطلبني في ليله ونهاره . فإذا هربت منه هجم على منزلى بالشرطة . ويطلبني أن أحدثه وأضحكه ثم لا أسكت ولا أنام ولا يطعمنى ولا يعطيني شيئاً . فلقيت منه جهداً عظيماً وبلاءً شديداً . . وحضر الحج . فقال لى يا أشعب كن معى . فقلت . بأمرى أنت وأبى . أنا عليل وليس لى فيه في الحج . قال . لئن لم تخرج معى لأودعتك في الحبس حتى أعود . فخرجت معه مكربهاً . فلما نزلنا المنزل أظهر أنه صائم ونام حتى تشاغلته ثم أكل ما في سفرته وأمر غلامه أن يطعمنى رغيفين بملح . وظللت أنتظر المغرب وأتوقع افطاره حتى قال لى غلامه . . قد أكل الأمير منذ زمن . . فقلت مذهوشاً . . أو لم يكن صائماً . . قال . . لا . . وقد أعد لك ما تأكله فكل . وأخرج الرغيفين والملح فأكلتهما وبت ميتاً من الجوع . وأصبحنا فسرنا حتى وصلنا إلى أطراف مكة . فقال لغلامه . . إتبع لنا لحماً بدرهم .

فإبتاعه . فقال . كيب لى قطعاً . ففعل . فأكله وبصب القدر فلما اغبرت . قال . إغرف لى منها قطعاً . ففعل . فأكلها . ثم قال . . اطرح فيها دوقه وأطعمنى . . ففعل . فأكلها ثم قال . إلق توابلها وأطعمنى منها . ففعل . فأكلها . وأنا جالس انظر إليه لا يدعون فلما استوفى اللحم كله قال . يا غلام اطعم أشعب . . ورمى إلى برغيفين . فجثت إلى القدر وإذا ليس فيه إلا مرق وعظام . فأكلت الرعيفين غيظاً . وأخرج جراباً فيه فاكهة يابسة فأخذ منها حفنة فأكلها وبقي فى كفه بضعة نوى . ولم يكن له فيه حيلة فرمى به وقال . كل يا أشعب . . فذهبت أكل واحدة منها فإذا بضرسى قد إنكسرت منه قطعة فسقط بين يدى . ولم أملك بعد ذلك إلا أن أعود ياكباً . . وأقبل اناس بنى مصعب على وأنا فى هذه الحالة فصحت بهم الغوث . الغوث . أدركونى يا آل مصعب . . فركضوا إلى وأنا أواصل الهتاف . خذونى خذونى معكم تخلصونى من الموت . . فحملونى معهم وأنا أرفرف كالطير اللبيح وحلفت بالطلاق أنى لا أدخل المدينة مادام له بها سلطان . . فلم أدخلها حتى عزل . .

أعرف أننى مهما قلت لن ترهوننى لقد أصبحت أنا المكان الوحيد الذى تلقون فيه نغمايات رغباتكم . . ونزواتكم . . عليكم اللعنة جميعاً . .

* وأخيراً حدثنى عنه ابنه . . قال . .

قاوم أبى السنين طويلاً . وغالط حساب عمره . وجاءت الشيخوخة كالثلج فوق قمة قيسون . . مسخت حكاياته . وفقدت نواذره مذاقها . وارتعد صوته . . وأصبح شيخاً دميماً ثرثاراً . يسعى فى أرجاء المدينة ويذهب إلى حيث لا يريده أحد .

كنت جالسا فى فناء بيتنا مع أمى . . حين رأيته يدخل مندفعاً ويهتف بى . . . - بلغنى إنك تقول النادرة . وتروى الأشعار . . وإن لك حظوة وقد سال الناس إليك . . أوامات إليه موافقاً . . فهتف . .

— هلم اذن حتى أخبرك لنرى من منا احق بالعلبة . .

نهضت . كل منا فى مواجهة الآخر . هذا الوعد المحرور لم يكن يبرد الاعتراف أن زمنه قد ولى . إندفع يتغنى ببيت ركيك من الشعر ويخرج صوته صمغاً متعثراً . . وغنيت أنا بكل ما فى صوتى من نضارة حتى تحاذل أمامى . ثم اندفع يقول البوادر . . نواذر قديمة فاترة لم تعد تثير ضحك الأطفال . . ولم أسكت . أحرقت كل بوادره . وردت عليها فى نواذرى اللاذعة . وتوقف قليلاً ثم اندفع فى الخطب . يردد الكلمات المسجوعة والمعانى البائرة بصوت رتيب متحشرح . وأخذت ناصية الخطاب منه . . فلاعبت بكل ما فى الكلمات من جناس . وما فى المعانى من تورية . . وفى النهاية إحرط فى بكاء عنيف . . حتى أن اشمزأزى منه تبدد فى لحظة . فقلت فى أسف .

- لعل أسأت إليك يا اى
لكنه مهمهم من حلال دموعه .

- أنا بمنزله شجره الموز . إذا نشأ ابنها قطعنها . وأنت نشأت وحظيت . وأنا
أموت . . إنما أبكى على نفسى . .

كان ضعيفاً . مترهلاً . يعبر المدينة طوال اليوم ويعود فارغ اليد ونحو صغار كان
جرا به لا يخلو من طعام أو حلوى . صحيح أننا لم نكن ندرى أى طعام نأكل بالوسط .
فقد كانت كل الأنواع تختلط معاً فى عجينة واحدة . . وحين يضعها أمامنا يسرع كل منا بملاء
معدته . .

كان يبكى نفسه . ويمضى لحظاته الأخيرة ذاهلاً . رثا . كربه الراححة لكن كل هذه
الأشياء تبدلت فجأة وهورأقد على فراش الموت . وهو يد يده ويمسك بيد أختى ويقول .

- يا بنيه . . إذا مت فلا تنديبنى والناس يسمعونك فتقولين وأبتاه اندبك للصوم
والصلاة . . وأبتاه اندبك للفقه والقراءة فيكذبك الناس ويلعننى . .

ولم أتمالك نفسى من الضحك المرير . وتسلفت عجوز من المدينة تدعى «صرمة» كاتب
صمراء العين . حاسدة لا تنظر إلى شىء وتستحسنه إلا وأهلكته . التفت اى ورآها
فصرخ وهو يغطى وجهه بكفه

- يا صرميه . . بالله إن كنت قد استحسنيت شيئاً مما أنا فيه فصلى على النبى صلى الله
عليه وسلم ولا تهلكينى .
فغضت المرأة وهتفت . .

- سخفت عيالك فى أى شىء أنت مما استحسن . أنت فى الرمق الأخير .
قال اى

- اننى اسلم ولكنى فاب اثلاً تكون قد إسحست حفة الموت على وسولة البرع
فشئت على ما أنا فيه
وأخذت العجوز مسد وهي تتجه إلى الباب وبينما كان كل من يحيط بصرانه
بصحرون كان اى قد مات



بشار بن برد لا عزاء للأعمى . . لا عزاء للجميع !

دخل أعرابي على جماعة وبشار جالس وسطهم وعليه طيلسان الشعراء . . تساءل الأعرابي من الرجل ؟ . . قالوا : رجل شاعر . قال : أمولى أم أعرابي ؟ قالوا : بلى مولى . قال الأعرابي فى استنكار بالغ : وما للموالى وللشعر . . ؟ . .

أجل . كان مولى . وكان أعمى . وكان زنديقاً . وكان شاعراً . . وكان اسمه بشار بن برد . .

وعندما جلدوه حتى الموت . وحملت الأمواج جثته كالشاهد الأخرس . عندما سخروا من عماء . من دمامة وجهه وضيعة نسبه . أخذوا لسانه وأعطوه بدلاً منه دنائير مزيفة . مزجوا عذب مائة بالمر . واستقراره بالنفى . عندما حاصروا خطواته المظلمة . كسروا كل ما كان يتوكأ عليه من عصى . أكان مولى هجيناً أم كان انساناً .

أمه جارية عربية . وأبوه عبد فارسي . تزوجا ذات ليلة وعلقت فى طفلها الأول . وجاء الطفل أعمى مشوه الساقين . أسمته «بشيراً» وإنطوت لحلم مثل كل الأرقاء بطفل رائع جميل . كأطفال السادة . يحمل كل مباحج الحرية . ثم جاء الطفل الثانى . له ذراع أطول من الأخرى . أسمته «بشر» وأخذت تهلى من حمى النفاس . ثم أفاقت من المرض لتواصل حملها بالطفل الجميل . ثم جاء الثالث . ضخماً . مشوه الوجه جاحظ العينين . نام العمى . أسمته «بشراً» وعندما أقبلت سيدتها لتنهئها ولتبشرها بالعشق شفقة بها وبالمواليد الثلاثة المشوهة . وجدتها ميتة . ووجدت الطفل الأعمى يبكى . يطلب بإصرار حقه فى الطعام وفى الحياة .

قال أبو الفرج الاصفهاني . .

- كان بشار ضخماً . عظيم الخلق والوجه . مجدورا . طويلاً . جاحظ المقلتين .

يفشاهما لحم أحمر . فكان أقيح الناس عمی . وأفظعهم منظرا . وكان إذا أراد أن ينشد
صبق بيديه وبصق على يمينه وشماله ، ثم ينشد فيأتى بالعجب . .

البصرة . مدينته وعذابه . محفورة في داخله مثل جرح لا يندمل . في كل مساء تنفس
الحوارى بالعطن . وتمتلئ القصور برائحة الشواء ، ويموت المبشرون على الأرصفة . تستعر
شرارة الشعر في داخله . تحدث جلبيه كآلاف الجياد النافرة . يسترجع تفاصيل حياته اليومية
بالصوت والرائحة . تتشكل بالألوان المظلمة . وتتحول الأحلام إلى أشباح قائمة فيشعر
بالكراهية نحو الجميع . . يهتف .

- الحمد لله الذى ذهب ببصرى . .
وحين يسألونه : ولم يا أبا معاذ . . ؟ . .
يجيب : لثلا أرى من أبغض . .

قال الشعر في سن العاشرة . تعبيرا مريرا عن كل ما يحس به . لقد علموه كيف يجيد
الكراهية . كل شيء بغیض . من أول شعاع الشمس الذى يحسه ولا يراه واريح النسوة
حين يهدر في أنفه . وبكاء الاطفال الجوعى . وتفاجر الرجال الاجوف . كان احتقارهم له
ينفذ عبر الظلام الذى يحيطه . وكان يعرف من ديبب الأقدام أى اناس قادمون وأى اهانة
سيتلقاها . . كيف يمكن أن يستقيم العالم وفيه كل هذا العدد الهائل من المبصرين ؟ إنبرى
يقول الشعر . لعله يسمل كل العيون التى تكشف عوراته في كل لحظة .

فزع قومه . انتابهم الرعب من هذا الغلام الذى لم يبلغ الحلم ويملك هذا اللسان البالغ
القسوة . . كان يراهم كما يرونه . يبصر عوراتهم وسوءاتهم التى جهدوا في اخفائها . ذهبوا
إلى أبيه . تأففوا وهم يخاطبون ذلك العبد الفارسى الذى يشتغل «طيانا» يعجن التراب
والتبن بالماء ويصبها في قوالب طينية ثم يبنى بها بيوت الفقراء الواطئة . هتفوا مهةدين :

- الأعمى قد جاوز حده . إن لم تردعه قتلناه .
بهت الأب . لم يتصور أن يفعل ابنه هكذا بالسادة الذى تعود على طاعهم . أسرع إلى
البيت . انهال بالضرب على بشار وهو يصرخ فيه . .

- يا أعمى القلب . كيف تهجو السادة . يا أعمى اللسان .

لم يأبه الغلام بالضربات . كان سعيداً لأنه خدش جلودهم السمكية . كلت يد الأب
وهو يتسهم . شرح له الأمر ببساطة متناهية : يا أبت . إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو
قول الشعر . وأن إن داومت عليه أغثتک . وسائر أهل . فإن شكونى إليك قل لهم . . الله
يقول (ليس على الأعمى حرج) . وانصرف إليه الأب غير مصدق . من أين يمتلك ابنه كل
هذه الفصاحة . تركه ومضى . يعجن الطين ويضرب الطوب ، وأن السادة ، فلم يلتفت

إليهم ، للمرة الأولى في حياته عاملهم بترفع بالغ . وهتف بالآية القرآنية «ليس على الأعمى حرج» . . نظر السادة إلى بعضهم ثم انصرفوا وهم يهمهمون . .

- فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار . .

لقد قوى فقد بصره من مرارته . ودفعته المرارة إلى حافة التمرد . وكان الهجاء وسيلته لفرض قوته العاجزة . . وحين سُئِلَ لماذا يكثر من الهجاء قال :

- إني وجدت الهجاء المؤلم أشد فائدة من المديح الرائع ، وإن في الهجاء أخفاف فأعطى .

تبرم بالناس جميعاً . وأولهم أخواه . كانوا قصايين بالبصرة . لم يتركاه في حاله . ظلاً يستعيران الأثواب التي تهدي إليه فيوسخاها . أقسم ألا يعيرهما أى شيء فكانا يأخذانها دون إذن منه . وهكذا عندما كان يلبس أى ثياب يجدها متسخة . ملطخة بدم اللذائح ولا يجدها بدأ من الخروج للناس . وحين يسألونه عن هذه الرائحة يجيب : هذه ثمرة الرحم . . ثم يهتف في حنق بالغ :

- اللهم إلى قد تبرمت بنفسى . وبالناس جميعاً . اللهم فارحمى منهم .

ولكن لم يكن مقدراً له أن يريح أو يستريح إلا بعد سبعين عاماً . .

قال الأصمعي :

- بشار سلك طريقاً لم يسلك . أحسن فيه وتفرد به ، في وقت لم يتجاوز فيه الشعراء مذاهب الأوائل .

سبعون عاماً كاملة . لم يترك همسة تسلفت إليه . أو لحظة عاشها . أو حلماً طاف بذهنه . إلا وترجمه إلى صورة شعرية . وكتب من القصائد عدداً لم يبلغه أى شاعر آخر . .

- لي اثنتا عشرة ألف قصيدة . لعننا الله . ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين . .

لم يبق من كل هذه القصائد إلا أقل من ألف بيت فقط . تحمل في كل شذراتها المبتورة عذابات الشاعر الأعمى . ما بين إحتقار الموالى في أواخر أيام الأمويين ، حين كان يبذل ماء وجهه وطاقته ليختلق لنفسه نسباً مع بنى عقيل . ثم هوى نجم الأمويين وصعد الموالى إلى دست السلطة . وتعقب العباسيون وأعوانهم من الفرس الحكام القدامى . . لكن «بشار» لم ينتبه مبكراً لهذا التغير . كان يعيش نبض مدينة البصرة الخصاص . مدينة الفكر والفتن والأهواء السياسية ؛ يسعى في دروبها الزنادقة والمعتزلة والخوارج . تحمل عقدة ذنب العلويين . عندما خلدوا «عل بن أبى طالب» وياعز أولاده . وتشبع بشار بهذه الروح المذبذبة . وعندما جاء إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يقود آخر ثورات العلويين ؛ يحاول أن

يناطح العباسين وهم في أوج قوتهم . وقفت البصرة كلها خلفه . لعله ينتصر . لعله يخفف قليلاً من عقدة الذنب . وكتب بشار القصائد مدحه . يجرضه . يضع بين يديه حلم العدل الشامل . لا مولى . لا عبد . . لكن الثورة فشلت . وصلب إبراهيم . وتحولت القصائد إلى أدلة اتهام . .

لم يكن هناك بد من السير مع مد الرياح . الوفاء للموتى بلاهة . ومادام إبراهيم بن الحسن قد قطعت أوصاله فلنقطع أوصال القصائد التي كتبت من أجله . وبدلاً من أن يبحث العلويين على الثار حرّض العباسين على الانتقام . أدرك أن المعزالي - خجله القديم - أصبحوا قوة الدولة الجديدة . إنقلب كل موازينه . أظهر استمزازاً بالغاً من نسبة العرب . وأعلن انتسابه كاملاً وواضحاً للفرس . وضع لنفسه سلسلة من الانساب الزائفة تضم ستة وعشرين جداً أسماؤهم أعجمية . .

قال الجاحظ :

- وكان بشار يدين بالرجعة . ويكفر جميع الأمة . ويصوب رأى إبليس في تقديم النار على الطين . .

كان بالبصرة حمسة من أصحاب الكلام . منهم بشار . وواصل بن عطاء وآخرون . كانوا يداومون على الاجتماع والنقاش كل ليلة . يفتنون حكمة السلف وفلسفات اليونان واجتهادات الفرق الإسلامية . عقول متقدة كانت تبحث بإصرار عن نوع من الخلاص الفكرى . منهم من أثر الاعتزال مثل واصل بن عطاء . . ومنهم من رجع يائساً إلى مفاهيمه البدائية الأولى . ومنهم من آمن بالمذاهب المتطرفة . وبقي بشار . حائراً مختلطاً . يحيط به ظلام كثيف لا يجد ما يضع يده عليه ويوقن به . العالم ملء بأرواح الموت وأنفاسهم . الأجساد تتحول إلى تراب في المقابر . وتتشكل الأرواح في أجساد جديدة . لم يعد هناك سبيل آخر غير الاستمسك بكل ما تتيحه هذه الحياة القصيرة من متع .

كان لبشار نظراته الخاصة للعشق . المرأة عنده لا تخرج عن دائرة الحواس . في الظلام لا قدرة يمتلكها على التخيل . إنها مجرد انثى . وانتشر هذا المفهوم بطول البصرة وعرضها . إنه يلح ويفرد أبيات شعره الطويلة في وصف المتع الحسية . إنه يعرض كل ما لديه من نوازع النقص .

حاول أن يصل إلى بلاط الخليفة في بغداد . أجهد نفسه في قصائد المديح . لكن أباً جعفر المنصور كان شحيحاً في معاملته للشعراء . وكان يكره العميان أيضاً . وظل بشار الأيام الطويلة أمام باب القصر دون إذن بالدخول . ولم تواته الفرصة إلا حين جاء المهدي للحكم . لكنه لم يصبح أبداً أحد الشعراء المفضلين . حقاً إن بلاغته لا ترقى إليها بلاغة . لكن من الذى يقسر نفسه على الاستماع لهذا الأعمى القبيح الذى لا يكف عن البهق . . ؟

انتشرت أشعاره الحسية . حفظها الشباب وتمثلتها الفتيات . أصبحت أخباره مثلاً يحتذى . ضجح المعتزلة . الأصدقاء القدامى . اشتعل الأزواج من الغيرة . وفارت دماء الآباء . وسار الشيطان طليقاً في شوارع البصرة . وخرج واصل بن عطاء من عزله وقف في المسجد يحرض الجميع :

- أما لهذا الأعمى الملحد من يقتله . أما والله لولا أن القتل ليس من سيجتي لدست إليه من يهقر بطنه .

وتناهت الأخبار . كثرت المبازل . أوغل فيها حين عرف أن المعتزلة قد أهدروا دمه . حين أصدروا الفتاوى في زندقته والحادة ، أصدر هو فتوى في تكفيرهم ، بل وتكفير الأمة كلها .

وتجمع الغوغاء فجمعوا منزله بالأحجار . جذبوا لحيته ومزقوا ثوبه وهو يسعى في الطريق . تعرض للقتل ولم تنج إلا المصادفة . واستطاع واصل بن عطاء أن يستصدر أمراً بنفيه خارج البصرة .

تشابه البلاد في عين الأعمى . لكن للغربة مرارة حارة . كانت قدماء قد ألفنا حصى البصرة . ومنعطفتها . . كل حى له رائحة . وكل سوق له ضجة . لكنه الآن إذ يدب بعصاه في أرض البلاد الغربية يشعر بمدى كثافة الظلام . . كتب القصائد . توسل للخليفة . لكن الخليفة لم يكن ليغامر بنفوذ المعتزلة وفيهم صفوة المفكرين . . من أجل شاعر واحد . ضيرير . ونصف مولى . لكن واصل مات . وألحف بشار في الرجاء حتى سمح بعودته . . شريطة ألا يقول بيتاً واحداً في الغزل .

عاد . وعادت معه مرارة النفي . تكاثرت أعداؤه . أصبحوا مدينة بأسرها . مدينة لم يرها أبداً لكنه أحس بكل جروحها في أعماقه . أخذ يهجوم بحرقه . فجر كل طاقته في الإيذاء . يحرض الموالي على سادتهم . والجواري على سيداتهم . أصبحت أبيات الشعر سهاماً مسمومة ترمى . أخذ المعتزلة يرمونه بالزندقة والألحاد . وأخذ هو يرميهم بالكذب والنفاق بعد أن باعوا العالم بلا ثمن .

تكاثرت الشكاوى أمام الخليفة من أشراف البصرة وسادتها . لقد حول الشاعر الضيرير المدينة إلى جحيم . استدعى وزيره يعقوب بن داود . أرسله بالهدايا والمبات إلى البصرة . . وأن يستقصى ما كان من خبر بشار .

إنهالت الهدايا الخليفة على كل شعراء البصرة ولم يظفر بشار بشيء . كان هذا إعلاناً بسيطاً لغضب الخليفة . لعله يبادر بالاعتذار . بالتوسل . لكن رد فعله كان مخالفاً . خرج

من بيته . سار في الشوارع حتى حلقة يونس النحوى . أكبر مجتمعات المدينة الفكرية . .
سأل في تحد :

— هل هنا من يخاف . . ؟

أجابوه بالنفى . إندفع في الهجاء المقلد . يهجو الخليفة المهدي . عرش مختص .
ونسب محاط بالفضائح . وصفات حيوانية .

وفي بغداد دخل يعقوب بن داود على الخليفة . إرتمى تحت قدميه وهو يبتف في فرع .
— يا أمير المؤمنين . . إن هذا الأعمى قد هجأك .

بوغت الخليفة . . سأل بأى شيء . . قال يعقوب مهولاً :

— بما لا ينطق لسان . ولا يتوهم فكرى . والله لو خيرتني بين إنشادى إياه وضرب
عنقى لأخترت ضرب عنقى .

وإستثاره الخليفة بما فيه الكفاية . أمره . استحلفه . وأخيراً وافق بن يعقوب على أن
يكتب الأبيات على رقعة . وقرأها الخليفة . بكل ما فيها من سخونة وغضب . تطاير الشر
من عينيه . لم يصدق أن يجرؤ واحد من رعاياه . . مجرد مولى . أعمى . أن يصفه بتلك
الأوصاف . وصرخ في الجند أن يستعدوا . . وليزحف الجميع إلى البصرة . .

أصبح بشار فآراً وحيداً في مصيدة ضيقة . قطع جسوره مع الجميع ولم يعد أحد بقادر
على أن يمد له يد المعونة . وضع الجنود أيديهم عليه . ساقوه مكبلاً لمجلس الخليفة وشهدوا
ضده :

— هذا الملبد يا مولاي . كان يؤذن للصلاة في غير موعدها وهو سكران . .
وشهق بشار في دهشة . لقد ارتكب الكثير من الذنوب . لكن من أين أتته هذه
التهمة ! ساقه الخليفة لتعديه على حرمة الدين . لم يذكر السبب المباشر لغضبه صرخ :

— سوف نحاكم هذا الزنديق .

وقف بشار وحيداً . وأنشبت المدينة أظفارها في جسده . تكاثرت التهم . خرج
الشهود من كل فجج البصرة . أصوات لا يعرف معظمها . كلهم رأوا خطاياهم وشهدوا
ذنوبه . ولم ير لهم ذنباً ولا خطيئة . والله العظيم أقول الحق ولا شيء غير الحق . شهد
الأول أنه سمع بشاراً يقول عن شعره أنه يزرى بأذان الصلاة . وقال آخر سمع بشار حمير
البصرة وهي تصنع ضجة يوم السوق فزعم أن القيامة قد قامت . وشهد جمع كبير من الذين
كانوا يذهبون لسماع شعره أنهم اجروا اختباراً عليه . كانوا إذا حضرت الصلاة يقومون
ويبقى بشار جالساً . فوضعوا حول ثوبه تراباً ليسروا إن كان ينهض أم لا . . ثم عادوا

فوجدوا التراب كما هو . وتوالت الشهادات ضده . . حتى جاءت شهادة سعيد بن القعقاع .

كان رفيق بشار في نزواته وفسقه . وقال له ذات يوم : لقد نسبنا الناس إلى الزندقة . فهل لنا في الذهاب للحج حتى تنفى عنا ذلك . ووافقه بشار . اشتريا بغيراً ومحملاً ومتاعاً وتزودا بالطعام وبدأت رحلتها . ظلا يجهدان في السير حتى وصلا الكوفة وانفتحت أمامهما الصحراء وكان باقياً بينهما وبين الحجاز حوالى ثلاثمائة فرسخ . وزفر بشار وهو يقول :

- ويحك يا سعد . كيف نقطع هذه المسافة . دعنا نقيم أياما في حانات الكوفة . نسكر ونمرح ونغازل النساء حتى إذا عاد الركب انضممنا لهم عند القادسية . .

ووافقه سعد على الفور . أخذوا على بعضهما المواثيق والایمانات المغلظة ألا يفشى أحدهما سر الآخر . وقبعا في إحدى الحانات ، حتى حان موعد عودة الحجيج فأسرعا إلى أقرب حلاق ، ثم انضبا للركب عند القادسية . وصلا للبصرة . لبس بشار طيلسانه وجلس في وقار يستقبل وفود المهثين . ويحكى عن لحظات الخشوع .

كانت كل هذه الشهادات وبالأخص آخرها كافية لأقامة الحد عليه . ودفع المهدي بالشاعر إلى حمدون صاحب الزنادقة . . وأمره :

- لضربه ضرب التلف . .

أخذوه . . قيدوه على سطح سفينة تسير بموازة الشاطئ . حتى في موته كان مقدراً للجميع أن يحفظوا برؤيته . عروا ظهره . أخرجوا السياط المنقوعة في الخل . وهوى السوط الأول على ظهره فاستيقظت البصرة كلها . هرعوا للشاطئ . وسارت السفينة ببطء . . هوى السوط الثانى . فزعت طيور النهر . وتجمد السمك من الرعب . تمزق لحمه من أعلى لكتف إلى أسفل الخصر . جحظت العينان . أوشكتا أن تقفزا من وجهه . هتف :

- ويلك . . أوجعتنى . .

قال حمدون وهو يمرق بالسوط : يا زنديق . . أتضرب ولا تقول باسم الله . .

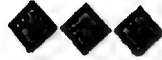
تاوه في مرارة وهو يتلقى الثالث . . والرابع . .

رأى الجميع طرف السوط وهو ينثر دمه في الهواء . النساء اللاتي أوقف شعره من أجلهن . والفتيان الذين تمثلوا أخباره . والموالى الذين حرضهم على الحلم بالحرية . والمعتزلة الذين جلدتهم هجاء . . والسياط تهوى . والخل ينفذ خلال الجروح فيكويها من الداخل . وحمدون لا يهدأ . ستون . واحدة وستون . اثنتان وستون . إحترق الرجس الضريع . ثم تحول إلى الأصفرار . . ثم الزرقة . . سال اللعاب مختلطاً بالدم . . أخذ يهذى . ينادى أمه التى لم يرها . وأبوه العبد . وربقة الأسر التى كبلت روحه . وحمدون

كلت يداه . ثمان وستون . تسع وستون . وهتف أهل البصرة في صوت واحد . .
سبعون . . وجاء الصوت من أعلى الصاري :

- مات الشاعر الزنديق . . مات بشار بن برد .
وانتشر الخبر المفرح في أرجاء المدينة . هنا الأشراف بعضهم البعض . وانكسر الموالي
في صمت . إرتفعت أصوات الغناء في القصور . وأخرجت الصدقات التي طال تأجيلها
وانهالت الهدايا على حمدون . لم يبق بيت من الأشراف إلا وأرسل له كسوة وعطاء . ولم تبق
إمرأة لم يثرها طرف السوط الدامي إلا وأرسلت له جاريتها . والقيت الجثة في مكان ضحل
على جانب النهر . لكن الموج حملها . سار بها إلى الشاطئ . عكس اتجاه السفينة التي جلد
فوقها . وتعطف البعض على الجثة الممزقة فإنتشلوها . لغوها في ثوب قديم وساروا إلى مقابر
الصدقة . لم يشيعه أحد إلا جارية سوداء أعجمية تصيح خلفه بلهجة غير مفهومه . .

- واسيداه . . واسيداه . .
لكن مظاهر الفرح في البصرة كانت أكبر من أن يكدر صفوها نواح تلك الجارية
السوداء التي لا تفصح .



عليّة بنت المهدي الحب بعيداً عن ضوء الشمس

* هل كانت عليه بنت المهدي تحب الغلام المدعو «طل» حقاً - أم كانت تلك مجرد نزوة حمقاء ... ؟ ..

الحب نبات برى في حاجة دائمة لوجل الطريق وشمس الساحات الواسعة . وكانت هى بنت الخليفة الماضى . وأخت الخليفة الحالى . وعمّة الخليفة الآتى عروق متشابكة لا يجرى فيها إلا دم أزرق نبيل . بينما يتأجج دمها بالعشق . كأنها غزالة مدبوحة كانت عليه بنت المهدي . فى الليل عيون الحرس . وفى الصبح آذان الخصيان . والواشون لا يكمنون عن السعى بالنميمة لهارون الرشيد . .

- يا مولانا . . أختك عليّة تحب خادمتك وحامل كأسك «طلا» .
يهدر هارون الرشيد غاضباً . ترتجف السحابات وتطر في أقصى الأرض . ويبقى الخليفة خراجها . كانت الخليل تدهس الورد في شوارع بغداد . والسبك يطفو ميتاً في الرصافة . ولم يكن الرشيد يعرف شكل هذا الغلام المدعو «طل» ، فالعبيد جميعاً متشابهون في الملامح ويحملون نفس الأسماء . ويعمرون عدداً متساوياً من السنين . وسوف يكون من المستغرب أن تعشق عليّة اخته عشب الأرض وفي مقدورها أن تدهسه بقدميها ! لكن السنة الوشاة لم تكف . . ومن هو هذا الطل بالضبط ؟

ثم راه ذات منتصف ليلة . كان عائداً وبصحبته مسرور السيف . رأى القصر يهوج بالضوء الغريب . همس لمسرور في خوف . .

- هل شعروا بغياينا . . ؟ ..
ضحك مسرور وهو نصف غائب . .

- إنها اختك «علية» تغنى يا مولاي ..

إنساب صوتها كحلم مصفى . ورأى الرشيد في سماء الحديقة أقماراً ملونة لم يرها من قبل . والحراس يتسمون خلال نومهم . وزهور الحديقة مشربة . متفتحة الأوراق تنتظر الشروق . اجتاز الأروقة حتى وطبل إلى جناحها . والصوت يزداد لوعة وارتفاعاً ..

.. ولا خلا منك قلبى ولا جسدى ..
كل . بكلك مشغول ومرتهن ..

ارتعد هارون الرشيد ، كان الهواء يحمل عشقها للمدينة النائمة . سوف تستيقظ وتفتح نوافلها . وغدا يرددون الخبر في الأسواق والحانات . أزاح الستائر واقتحم المخدع ورأى عليه . أخته جالسة على الأرض والعود في يدها . بينما يجلس ذلك المدعو «طل» على أريكة مرتفعة ، يرتدى ثياب السادة ويشرب من كؤوس السادة ، وفوق رأسه عمامة حريرية ضخمة . شهق في غضب . سقط العود من يدها . خر الغلام ساجداً . تدحرجت العمامة الحريريّة فاكتشف الرشيد أنها إحدى عماماته . مهمت عليه .. يا سيدى . يا مولاي .. كانت شاحبة مأخوذة كأنها تحتضر . أخذ الرشيد يهدر كالبركان .. هتف مشيراً للغلام الساجد ..

- يا مسرور اقتل هذا الغلام ..
- هتف مسرور : أمر مولاي . وضع يده عند خاصرته ثم هتف مرعوباً ..

- السيف يا مولاي . لقد نسيته .

ارتبك الخليفة . نظر للمرأة الباكية . والغلام الساجد والشموع المطفأة وقال في يأس ..

- ضعه في السجن اذن . وغدا لنا حساب آخر ..

* ولكن . لماذا احبت عليه بنت المهدي الغلام المدعو «طل» . وهل احبها هو ؟ ..
كان السجن مظلماً مليئاً بالبراغيث والقتلة والشعابين والقادة أصحاب النياشين ومقطري الخمر والفئران والبصاصين والسحالي وكتاب المخطوطات . وكان جسد «طل» مدهوناً بالزعفران . وعندما رقد على الحصيرة المجدولة شعر بها تدخل في لحمه . أحاطته أنفاس السجناء بسحابة لزجة . فشر بكرامية عميقة لعلية بنت المهدي أكثر من كراهيته للصائد الذى أسره والنخاس الذى باعه . وكان الحارس قد لكزه بعنف وهدده إذا أحدث شغباً . وقدم له طعاماً عفناً فظل جائعاً . ولاحظ الرشيد للمرة الأولى أن العبيد مختلفى الوجوه يقدمون نفس الكأس حقاً . لكن هناك إبتسامة غريبة على وجوههم لا يقدر أحد على امتلاكها . إنهم كثيرون . تزدهم بهم الزوايا والممرات والأروقة . إن لهم لغتهم الخاصة .

رغم أنهم فرس وترك وديلم وشركس إلا أنهم يتحدثون لغة واحدة . كيف يمكن النوم ومثل هذه المخلوقات تتسكع على أبواب المخادع . .

وكانت القصة تزداد في قلب «عليه» . كلما فشلت في رشوة حارس . وكلما أرسلت طعاماً أكله الآخرون . وشاهدت طائراً يعبر النهر ويغيب وسط المقابر في الضمة الأخرى . توجهت إليها . رأت زهرة الصبار الوحيدة ترتعد . هتفت . .

- يا أمى . . أنا أحب .

حملت الريح الباردة الصوت إلى «مكنونة» المروانية وهي مسجلة داخل المقبرة تلوك قطعة من الصبار . مزقت الكفن ونهضت . وجلست على حافة الشاهد . قالت عليه

- يا أمى . الرشيد يكرهني وبقية آل العباس يكرهونني حتى أخى إبراهيم حرموى من رؤيته . و«طل» في السجن ماذا أفعل ؟ .
القيتمكنونة قطعة الصبار وهتفت . .

- كلهم هكذا . لا يفكرون أبعد من أنوفهم . كنت جارية المهدي . ملح طعامه وقارورة عطره - كما يقول - كنت أغنى له طوال الليل حتى يستريح صدره من الحشرجة وأجلس عند قدميه أغسلها بماء الورد عندما إقتحمت زوجته الباب كأنها عمرة جائعة تقبض على شعري وتجر جرنى على الأرض . يومها كنت حاملاً فيك . . ولم أدر كيف نجوت من شرها . . ؟

أكدت عليه ببلاهة : لكن الرشيد أبخى ويحبني ؟

- والفرس أعوانه . والبرامكة وزرأؤه . والترك مواليه . لكن من يأمن له . كلهم ذئاب ينامون مفتوحى العيون . .

تناولت قطعة الصبار . وقبل أن تهبط لقبرها لمست جيبن عليه فأحسست كأنما سهم من الثلج يخترق رأسها .

فتح «طل» عينيه في فزع . رأى وجوه السجناء الشرهة . شم أنفاسهم اللرجة وكانت أظافره أشبه بالمخالب الجارحة . ضحك الحارس وهو يشاهد المنظر من كوة الباب . ما أطول ليالى السجن وما أقل التسلية بها . وكان رسل شارلمان يحركون أقدامهم وأرجلهم كما تقضى أصول اللياقة في بلاط أوربا وحاشية الخليفة غارقة في الضحك وكان كاسحو الأوساخ يعدون عدتهم لإضراب عام . وياأت المدينة ليلتها الثانية والقارورات تملأ الطرق . وسعى الشعراء إلى اديرة الرهبان للحصول على اصناف الخمرة الجيدة . وانتصرت جيوش الخليفة في احدى المدن البعيدة في السهوب . وانتقلت الأنباء عبر اروقة القصر : «عليه» عاشقة . عودها مقطوع الأوتار . والنجوم غرقى في النهر . اجتاز مسرور

بهو العرش حيث كان الرشيد يعبث في لحيته وهو يتأمل حركات رسل شارلمان المضحكة .
همس في أذنه .

- يا مولاي اختكم «عليه» مريضة وعلى وشك الموت .

* لماذا غضب الرشيد هكذا . . رغم أن هذا يحدث في أحسن العائلات . . ؟ . .
كانت عليه تهذي . توقف الرشيد أمام فراشها . شاهد وجهها المحتقن . ونظرة
الأسف في عيون الأطباء . شق ثوبه . ونثر عليها اللؤلؤ . وظلّت تهذي . والأطباء
يحاولون فتح فمها قسراً ليدخلوا فيه شراب الأعشاب . شعر بالحنق لأنها احبت خادماً .
كانت غزالة مجنونة . يسرى في عروقها دم مضطرب . لم تبالي بقصائد التشبيب ولا
بإنتصارات القادة . ولا بثروة التجار . لا تكف عن الغناء والهديان . . كان الموت رقية
مطوية تحت وسادتها . ذات مرة . إختل الرشيد بجارية رومية جديدة . وشعرت زوجته أم
جعفر بنيران الغيرة الحارقة . ذهبت إلى عليه وقصت عليها الأمر . ضحككت . قالت
تطمئنها . .

- لا يبولنك هذا . فوالله لأردنه إليك . وقد عزم أن أقرض شعرا وأصوغ فيه لحنا
وأطرحه على جوارى . فلا تبقى عندك جارية إلا بعثتها إلى .
وعندما جاء العصر لم يشعر الرشيد إلا و«عليه» قد خرجت من حجرتها . وكذا أم
جعفر ومعها زهاء ألفى جارية . كلهن في زى مختلف . وزينة . مختلفة . يغنين لحناً واحداً
صنعته عليه . .

منفصل عني وما قلبي عنه بمنفصل . .
يا قاطعي اليوم لمن نويت بعد أن تصل .
نهض الرشيد طرباً . أجلسهما واحدة عن يمينه وأخرى عن يساره . وهتف

- اطلبي مني ما تشائين . .
اغرورت عينا عليه بالدموع وهتفت .

- هب لي «طلا» يا مولاي . .
زجر الرشيد غاضباً . .

- يا مسرور اقطع رقبة عليه . .
مد مسرور يده بهتف ليمسك السيف . لكنه ركم باكياً أمام الرشيد . .

- ساعني يا مولاي . السيف قد رهناه بالأمس .

* هل غفر الرشيد حقاً لعلية وطل والبرامكة وأدان لهم خده الأيسر . . ؟ . .

بعد عشر أيام وعشرة ليالى أخرجه . ضحكوا في وجهه . قالوا إنها غلطة الرشيد غضب لأنه فوجئ بالأمر . أشار ظل للمسجونين . كان يريد أن يصرخ فيهم :

- لقد اغتصبوني .

استيقظت جروح الأظافر الصغيرة . سلمه الحارس للخصيان وسلمه الخصيان للجوارى . قلن . .

- ما أشد كراهية راثحك . علينا أن نعدك لتكون جديرا بحب علي . .

خضع الرشيد . دبت الحياة في جسد علي . تولى أحد الصناع ترميم عودها الأثير . تحول الرشيد ورأى الأوساخ في كل مكان فأمر بإعدام كل كاسحى الأوساخ . وعاد رسل شارلمان يحكون عن عظمة بغداد وسطوتها ولكن ما أغرب راثحتها . بنى جعفر البرمكى قصره العاشر . وقالت العيون إنه بناء لإستقبال العباسية . وتمتم الرشيد . اللعنة على العباسية وعلى علي . لكنه إبتسم حين زارها . . قال . . لقد بررت بوعدى . إبتسمت كأنها طفلة تلعب معه في الحديقة ، رأى في جبينها ندبة غريبة لم يكن قد رآها من قبل كانت تخفيها تحت عصبة من لؤلؤ . سالها عنها قالت . .

- لمستنى أُمى «مكنونة» ذات مساء . خرجت من قبرها ولمستنى .

لم يكن مستعداً لتعود للهديان مرة أخرى ففكر في نفسه : فلاقتل البرامكة وأهدم قصورهم لعل هذا يخفف من توترى . غسلت الجوارى «طلا» بالعطر للمرة الخامسة . لكن رائحة السجن الثقيلة ظلت تشع من كل خلاياه . نهضت علي . تزيت . وخرج الرشيد في رحلة الصيد . واستلقى ظل على الفراش الحريرى . . قالت علي . .

- لقد أحببتك دائماً يا ظل . حين غبت عنى ذات مرة . خرجت من نافذة حجرى وسرت على حافة الافريز حتى نافذتك . يومها غنيت . من اجلك أمشى من موت إلى موت . . ؟

وكان ظل يفكر في الحبلى . حبلى طويل يربط ساقه مع بقية العبيد . من أقصى السهوب الباردة . حتى أسواق بغداد . كان مؤلماً . ثم تكون تحته جرح . تحول إلى قرحة ، تداخلت اليافه مع أنسجة القدم . وظل الجرح يدمى صديداً وأطراف الحبلى في داخله . أوقفه النخاس ودهن جسمه بالزيت . أصبح غلاماً . أوهموه أن هذا امتياز له لأنه لم يصبح خصياً . مثلها أوهمته علي أن حبها امتياز له .

. . قالت له :

- هل أغنى لك . هل تتمنى شيئاً . .

كانت قريبة ويعيدة . بيضاء . شاحبة . تشبه الصائد وتشبه النخاس . وتظن . هل

تخفى ؟ هل .. هل .. نهض نصف نهضة . تأملها قليلا فرأى فيها بغداد . رفع يده وأهوى عليها بصفعة قوية ..

* كيف تذكر مسرور أخيراً أن يحمل سيفه — وما تأثير ذلك على امور الدولة .. ؟ ..

المأساة . إنهم يطلبون منه السيف في غير الوقت المناسب .

كان ظل ينام على الحرير ويلبس الحرير . وينسج الموت مثل عنكبوت ذو وب خيوطه الحرية حوله . كل لمسة منها طوق جديد من أطواق العبودية . لقد أذلوه ، استنزفوه ، لم يبق إلا أن يعلن موته رسمياً .

أمسكت عليه العود وغنت فخرجت من النهر عشرات الضفادع . وجاء للخليفة واثق . وثالث . ورأى الخليفة العلامات الحمراء وقد أصبحت زرقاء . وازداد جسدها نحولا . أصبح الخبر بحجم القصر واتسع فأصبح بحجم الخلافة . وأدرك مسرور أن الوقت قد حان فلم يعد يخلع سيفه أبداً . وكان الرشيد نائماً فرأى الحصيان والعبيد يتناولون عليه . وخرجت السحالي من بيت المال الفارغ . كون العبيد من أصابعهم حلقة واحدة أخذت تضغط على عنقه . حاول أن يصرخ ، فوجيء بشخص آخر هو الذي يصرخ . كان يحلم . وكان الصراخ حقيقة . فتح باب حجرتة ، كان مسرور نائماً والسيف بين ذراعيه . والصراخات تتناهى من جناح عليه . إستيقظ الجرس والعبيد . إقتحموا المخدع . وأزاحوا الستائر . كانت عليه ملقاه على الأرض و « ظل » يمسك السوط . يهوى عليها ويضحك بتشف . لم تكن تقاوم الضرب كثيراً . رآهم ظل فازدادت درجة سروره . كأنما يقف على حافة الجنون .

كان الرشيد هادئاً . أشار لهم فاقتادوه . ألقى السوط . سار طيعاً وهو يضحك . امتلأت الأروقة بالغللمان . كانت عيونهم تلمع بشدة . ساروا للحديقة . أسرع آخرون فأحضروا المشاعل . تحاملت « عليه » ونهضت . نظرت من النافذة ، وكانت ترى شبهه والأضواء المتراقصة . والصدى يبدد ضحكاته الغريبة . والغللمان يتكلمون . لم تكن هي المرة الأولى التي يشاهدون فيها إعدام احدهم . لكن الضحك يرسل داخلهم رعدة باردة . كأنما يشاركونه نصيبه في الموت . ربطوا يده خلف ظهره . حاول مسرور أن يجلسه مخنياً ليسهل مهمته . رفض وظل واقفاً . تجول الضحك إلى ما يشبه العواء . أحسن الغلمان والحصيان والجواري بوجوه النخاسين تطل من بين الأشجار . تقتحم قشرة الليل . كان الضحك يختلط بصليل الجرس وصيحات المشادى .. رسا المزاد على الموت من يدفع أكثر .. يدفع أكثر .. أكثر .. الحبل يصنع الجرح . والجرح يعقب بالعفن . وظل يواصل العواء . لم يجد مسرور بداً من أن يمسك السيف ويطيح برأسه وهو واقف . ويدو أن الضربة كانت قوية بعض الشيء لأن الحراس ظلوا طوال ثلاث ليال يبحثون عن الرأس في كل أرجاء القصر والحديقة ، فلم يجدها .

عبيدة الطنبورية

الغناء من أجل الفقراء

يوم سوق بغداد الكبير ضل طفل عن أبويه . سار حتى وصل إلى مكان منعزل على نهر دجلة . كان سعيداً بهذه الحرية المؤقتة . رغم أن النهر كان غائضاً والوحد يغمر الشيطان ، كانت هناك نشوة خاصة للمراكب الراسية العارية من الأشرعة ولعقود السمك وهي تنفرط وكانت طيور الماء تخلق ببطء ما بين قصور الرصافة وأوكار الصيادين الفقيرة .

لكنه توقف أمام شيء غريب . . جسد شبه عار منبطح وسط الرجل . . اقترب وهو لا يدرى حقيقة ما يراه . عرف أنه جسد آدمي . عرف أنها امرأة ، شعرها الطويل الفاحم كان منسدلاً مختلطاً بالوحد . واليد قابضة على آلة خشبية مقطوعة الأوتار . لمس الجسد فوجده بارداً . لمس وترا كان مازال مشدود فأصدر رنة غريبة ، ترددت ثم دابت ، ولم يتحمل وطأة الصمت ، بكى بصوت عال .

أقبل بعض الناس . صيادون . بحارة . عابرو طريق . . أخذوا الطفل بعيداً وقلبوا الجثة وإزاحوا الوحد عن الوجه الأزرق وبهاشم الجميع .

- عبيدة الطنبورية . . أجل عبيدة .

جاء أحد حراس الخليفة بزيه الأسود . فرق الجميع وأمر فأحضر غطاء والقمر عليها . . وأنصرف الناس وحفظ الموضوع . .

كانت هذه جثة عبيدة الطنبورية . . والآلة الخشبية المهشمة التي مازالت قابضة عليها هي الطنبور التي كانت توقع عليه انغامها . .

هدأت الحرب الأهلية في بغداد بعض الشيء إنهمزم الأيمن واستوى المأمون ذو الأصول الفارسية فوق دست الخلافة ، وتواصلت حلقة أخرى من حلقات الدولة العباسية ظل

الأغنياء في القصور والفقراء على أرصفة الكرخ وسط أكواخ الصيادين والأوكار المشبوهة .
كان المغنون يجدون كل العصور ويدينون بالطاعة لكل الخلفاء . والأدباء يؤلفون الكتب
أو يترجمونها عن اليونانية والسريانية فيعطون مقابل وزنها ذهباً . والشيعية يطرزون الرايات
ويجلبون أطراف الأسنة . والعلويون ينتظرون عبثاً ذلك الأمام الذي سوف يعيد الحق
لنصابه . والشعراء يقولون أشعاراً جيدة في الخمر وردثة في العشق . والرهبان يقطرون
الخمر في الأديرة ويهربونها للخارج . والبحارة يعودون متعبين من الأسفار الخاسرة يحكون
عن السندباد وعن جزر الزبرجد الغارقة . . وكانت عبيدة الطنبورية تغنى . .

« كل شيء سوى الخيانة . .
.. فى الحب يتحمل »

عبيدة . . نمط غريب من الشخصيات التي ترجم لها أبو الفرج الأصفهاني . تقف
وحدها شاذة وسط مركب الشعراء الفحول والفرسان والأمراء . بعيدة خارج دائرة الأنساب
الشريفة . وعن هالات المجد . لكنها أكثرها قرباً للحياة . .

في «الأغانى» تتفجر النساء بنوع غريب من النشوة . والرغبات الحارة . يرتفعن فوق
حاجز الأخلاقيات المتعارف عليها ليضعن أخلاقياتهن الخاصة . وأنماط حياتهن الخاصة .
وأبو الفرج يدهشنا بهذا الهدوء والموضوعية التي يتسم بها وهو يورد هذه الأخبار . يقف باسماً
لا يتورط في أى حكم أخلاقي أو أى مصادرة . متساعداً لا يعرف التزمت . . ورغم تدخله
المستمر في تراجمه عن الشعراء وانتقاده أشعارهم بقسوة .

ما سر موقفه هذا من النساء ؟ . .

أبو الفرج يصف عبيدة بأنها رائعة الجمال . حسنة الصوت . لم يعرف في الدنيا أعظم
منها في الطنبور ويضيف إلى صفاتها الجسمانية .

- كانت تحب الرجال . كهولا كانوا أم أطفالا .

مثل أرض لا ترتوى . ارتفعت وهوت وتحول الشهاب إلى قطعة من حجر وهى ما تزال
عطشى . تشترك في هذه الصفة مع بقية شخصيات «الأغانى» النسائية .

لكن عبيدة اختلفت عن الباقيات في أنها كانت مطربة الفقراء . لم تدخل قصورا إلا فييا
ندر . ولم تعرف ترف الدمقس . وماتت دون دية ودون أن يعرف قاتلها . كان أبوها أحد
الموالى الفقراء . اسمه «صباح» وكان مولاة أحد تجار بغداد الأثرياء ويدعى أبو السمرام
وكانت هى صبية جميلة حسنة الصوت لا تحمل من صفات أبيها إلا الفقر . . كان أحد
المغنيين يتردد على أبي السمرام يناديه ويطربه . ويأخذ عطاياه . كان «الزبيدي» وهو اسم
هذا المغنى أحسن من يضرب الطنبور في بغداد .

هذه هي العناصر الأساسية التي شكلت بدايات عبيدة .

أحد الأيام ذهب الزبيدي ليغني لأبي السمرء ويأخذ عطيته . لكن أبا السمرء كان قد خرج مع أحد القوافل إلى بلاد فارس . وبدلاً من أن يعود الزبيدي أدراجه أخذه «صباح» والد عبيده إلى البيت يقضي الليل عنده . لم يكن البيت الفقير مستعداً دائماً لاستقبال الضيوف . لكن الصبية وأمها جهزا المكان وأحضرا القليل من الطعام وبدأت ليلتهم . . الأب والضيف في القاعة . والأم وعبيدة خلف الستار ، وسرعان ما غلب النعاس الأم وظلت عبيده جالسة تستمع .

كانت أصابعه إذ تروق على الطنبور تبعث داخلها رعدة غريبة . وهمه يعيد اللحن . يرق ويعلو . ما بين الآهة والزفرة وحكايات الوجد القديم . تتولد داخلها رغبة جياشة . منذ أن ولدت وهي حبيسة البيت . حبيسة المعاش الضيق . لكن الغناء جعله أكثر اتساعاً . جعله يبتد من حد البحر إلى حافة الصحراء . والطنبور عاد يرجع قلبها . والرغبة تحولت إلى إشتهاء . .

رفعت الستار . تقدمت . جلست أمامها . ورأى الزبيدي هذا الوجه الحسن فزاد في الغناء . وزادت نجوم السماء تألقاً . بعد برهة كان الأب نائماً والزبيدي وعبيدة يغنيان سوياً . . وكلما انتهى اللحن اعاداه . .

وإلى لمجنون بليلي موكل

ولست عزوفاً عن هواها ولا جليداً
إد ذكرت ليل بكيت صباية
لتذكرها حتى يبسل البكا الحدا .

وأجهدتها النشوة . . ولست أوتار الطنبور فارتجفت قلبها . . قالت :
- علمني الغناء . . علمني الضرب فوق الطنبور .

وعندما أفاق الأب لم يكن أمامه إلا أن يوافق . أدرك بغريرته أن عبيدة لو أجادت الغناء فسوف يكون هذا انقذاً من ورطة الفقر الدائم . وطالت رحلة أبو السمرء في بلاد فارس وطاب المقام للزبيدي يعلمها فنون كل عظماء الغناء الذين سبقوه . . معبد . . وسريح ، وطويس . بدأ صوتهما ينصج مثل نار هادئة . لكن الاضطراب نواصل . . . وقبل أن يعود أبو السمرء من بلاد فارس كانت قد احداثت الطنبور تمام الاجادة .

مات الأب ورق الحال وذهب الزبيدي في صحبة أحد الأمراء وترك لها طنبوره حتى تذكره . وهل كانت تملك أن تسي ؟ . . ولم تكن الذكرى طعاماً ولا سلوى . فخرجت

تغنى وتغنّع بالسير . وكان فى خروجها إعادة جديدة لاكتشاف العالم . فى حوارى بغداد الضيقة . بين الموالى الفقراء والحرفيين وصيادى الأسماك . . كانت تأخذ أغانيهم وتعيدها على أوتار الطنبور . . وبدأت رحلتها مع أغنيات الشقاء اليومى . إذا سارت سار الجميع خلفها . إذا جلست التفتوا عليها . . كانت الفتاة الصغيرة التى أغواها مطرب قد نضجت وخبرت تشابك العالم الخارجى . وكانت أمها مديرة أعمالها تدبر لها أمر الغناء فى أول الليل .

لان الزمان قد يلين قليلا ، فقد فعشقت عبيدة عشقها فتى غنى يدعى «على بن الفرج الرجمى» . . وسيم ، يملك ضياعاً واسعة بأطراف بغداد ، وقوافل تصل العام ما بين اليمن والمريد كانت هذه فرحتها الأولى والأخيرة أيضاً . إصطفاها لنفسه . لا تغنى إلا له . ولكنها اراد أن تلد له ولداً . . وعندما فشلت فى ذلك هجرها دون أى أسف .

تركتها أمها وتزوجت بغلام . . وأدركت هى أنها وحيدة ، وأنه لا استقرار بعد اليوم . هذه البيوت والشوارع والنهر الممتد ضربة من وتر . . وبغداد الفقراء بلا نهاية .

أحياناً كانت القصور تطلبها . نوع من تغيير الجو . ولا مانع من التفاضى عن الخجل . . كانت النساء يختبئن تغزواً بينما يبدى الرجال نوعاً من السماحة البلهاء . بل ينفلت منهم العيار ليطربون من هذه الأغاني السوقية ، حتى أبو الحسن اسحاق بن ابراهيم مغنى الخليفة وأحد عظماء المطربين فى عصره علم أنها سوف تغنى عند أحد اصدقائه فتخفى وجلس وراء ساتر كثيف وهى تغنى وتعيد . حتى زعق طرباً وتوقفت عبيدة عن الغناء وهتفت به :

- أخرج يا أبا الحسن . فأنا أعرف شرك .

فهتف وهو يسارع بالحرب ،

- فضحتنى فضحك الله .

لكنه عاود التخفى والاستماع مرة أخرى . .

أناسها الحقيقيين كانوا فى الأزقة . معهم لم تكن تشعر بالخجل . ومعها لم يكونوا يشعرون بالخجل . يتحدثون عن شظف العيش . والمكوس . والحرب الأهلية التى تركت أرملا فى كل بيت . وكانت أوتار الطنبور تحمل العزاء للجميع . تجلس فى الحانات الرخيصة فيحدثها البحارة عن عشق السفر . والأغاني التى تسمع من وسط الصخور ولا يعرف مصدرها ، فتسحرهم وتحطم سفنهم .

عشقها الأخير كان «أبو كرب بن أبى الخطاب» . قبيحا . مشرط الوجه . أسود اللون . غليظاً وقحا .

لكنه لم يكن سلس القيادة . كان ينقلب عليها ويظل يصفعها ويضربها حتى تقبل أطراف أصابع قدميه .

وظلت هى تعمل طوال اليوم . . تهوب كل المدينة حاملة طنبورها وترجع له بالحصيلة . . فياخذها منها دون كلمة . . ويتركها منزوية فى أحد أركان البيت حين يعود . كانت تغنى وأثار يده ما تزال على وجهها . تبكى حرقة الوجد والأحبة وهو يشرب ويقامر بنفودها . . حتى جاء يوم فتركها ومضى . . ولم يبق لها أحد . اللهم إلا غلام كان يشتغل طبالاً معها .

وكان مأواها بين المطاريد على حافة النهر وعند الجسور ؛ تغنيهم وتتقى شرهم . وقد استولى بعض الأوباش على بيتها ومنعوها من العودة إليه . فلم يعد هناك بديل عن الشارع . . حتى أخذها أبو السمراء مولى أبيها القديم إلى قصره وكانت تهرف من الحمى . وظلت ساكنة . لكن النداء الذى كان ينبعث من المراكب المسافرة تناهى إليها فقفزت من النافذة ، وتحطت السور ، ووجدت الأذرع الحشنة فى انتظارها .

كان النهر يحمل لها الخلاص . . وكانت وحوله هى قبرها الأخير . . وكانت كل عطايه . . طنبوراً وطفلاً ميتاً وعشاقاً بلا حد .



فريدة الموت فوق سرير الخلافة

قالت فريدة : «يا خل» .. أحل الترك دماءنا وأعملوا السيوف في رقابنا .. قالت فريدة : يا «خل» كيف نغنى للحب ونحن نعيش زمن الخوف .. ومضت . كانت جثة خل «ملقاة» وسط الدار . جسدها الأبيض الجميل ملطخ بالدم وأثار سيوف جنود الترك غائرة .. كانتا معاً .. غنيتا معاً وكان الجنود سكارى ، وبغداد نائمة ، والنهر متواطئ .. «خل» هي التي قالت لها : تعالى نرحل إلى بغداد . لا جدوى من الغناء في المدين الفقيرة والقصور في إنتظارنا .. والدم على سرير الخلافة يا خل ، وفي خاتم السلطان ، وبغداد بلد غريبة يسكنها غرباء .. وها هي السيوف أنهت الرحلة في مطلعها .. إذا اختلف تركيان كان الصبحية بغدادى .. فامتحني المغفرة يا خل .. لم أبكيك كما يجب .. لم اقم لك عزاء ولا سلوى .

كانت فريدة تهرب من بغداد إلى بغداد .. أصبحت أسيرة الدروب الضيقة والبيوت الطينية . وتحول حلم القصور الباذخة إلى خطوات لاهثة للهرب .. وكانت خل تنام على فطرتين من البنفسج وتمسك العود وتغنى .

ألا انها الركب النيام ويحكمُ هبوا ..
اسائلكم .. هل يقتل الرجل الحب ؟!

بل مثله سيوف الديلم والغربة في مدينة واسعة .. كان الجلوس يكون ؟
يستعيدون الصوت وأنس الليالي ودفء الصحراوات البعيدة .. جثنا غ
باعونا في سوق واحد ، واشترانا نفس النخاس ، واحبينا سوياً رجلاً ،
من المهجر والمرارة . أنتن تحملين أنك لؤلؤة داخل محارة ضائعة .

النعمان ارتقب الطل .. وكان المطر كاللحم المصفى .. وكان الدم يختلط بحمرة
الخددين .. وفوق القبر يرفع عسكر الدليلة البيارق .

ظلت فريدة تجرى . تلهث وتجري . حتى وصلت إلى شاطئ النهر .. على طوله تتناثر
خيام اللاجئين ؛ ضحايًا كل حركات التمرد على الدولة العباسية .. السرطان يتمطى في
شراهية ؛ يأكل القرى ، ويسلب أراضي صغار الفلاحين ، ينتزع جذورهم فلا يملكون
سوى الرحيل ؛ يسيرون مع النهر الذى يبروه في الزمن القديم ، يقودهم النهر إلى بغداد ،
وتعطّيهم بغداد كوخاً من الصفيح والخيش ، وتعطيهم بغداد عملاً يومياً شاقاً لا يكاد يفى
إلا بالقوت الضروري . هذه آخر أيام العباسيين بعد أن شهدت أيامهم ازهى تواريخ
العرب ، والدولة تختضر ، تختضر ببطء قاتل حتى أن العفونة دبّت في أطرافها ، وبدأت
رياح السموم تدق أبواب القصور ..

جلست فريدة بينهم ؛ لم يسألها أحد من أين جاءت .. ولا إلى أين تسير .. يكفيها
أنها تجمعهم وإياها قوانين اللفظ الجماعى . هذا أو من روعها وأعدوا لها فراشاً من القش في
جانب أحد الأكواخ .. ونامت بعمق حتى أنها لم تحلم بجثة «خل» ، وظلت هكذا ثلاثة أيام
متواصلة . تركت عيدان القش آثاراً مفعزاً بجانبها . كل صباح يجلس الجميع على جانب
الطريق في صف طويل بائس ؛ يحفى الرؤوس . هذا وقت مرور السادة وأصحاب
الأعمال . يمرون في نفس المكان كل يوم ليأخذوا ما يحتاجونه من عمال بناء أو حمالين أو
حجامين أو منظفى فضلات البشرية ، وكل أصناف المهن الخفية التى تحفل بها مدينة
واسعة ..

كانت تجلس في جانب الكوخ عندما إرتمى عليها ظل حجب الشمس عنها .. رفعت
رأسها وجدت أحد السادة يتطلع إليها من فوق صهوة جواده ؛ من النظرة الأولى للماسية
التي تتوسط عمامته أدركت مدى ارتفاع مركزه الاجتماعى .. سألتها بغلظة .

- ما اسمك ؟ ..

قالت : فريدة ..

قال بنفس الغلظة : أى مهنة تجيدين ؟ ..

قالت : لا أجيد سوى الغناء .. قال : إتبعينى .

لم تكن تملك أن تعصى . سارت خلف الجواد . عبر صفوف الاجراء وعبر الأكواخ .
قالت لها «خل» : لن نبيع أنفسنا إلا بأعلى الأسعار وما هى تمضى الآن دون ثمن . وعندما
وصلت أخذها خصيان القصر ووضعوها في غرفة منعزلة . كان القصر فخماً بالغ الاتساع .
ومياه الحمام معطرة . بحر من البنفسج لم تحلم به خل . وقالت لها إحدى الجوارى :

- أنت في قصر الأمير عمر بن بانه ..

ولم يكن الاسم معنى شيئاً غير مأوى طيب عليها أن تجرّص عليه .. وعندما أعطوا لها العود ذات ليلة أدركت أنها فرصتها حتى تبعد شبح الأكواخ نهائياً . أخذت تغنى بكل ما تعلمته من حلق .

خليل لا والله ما أملك الذي ..

قضى الله في ليل ولا ما قضى ليا .

قضاها لغيري وابتلان بحبها .

فهلا بشيء غير ليل ابتلانيا ..

لم يتوقع عمر بن بانه ما سمعه .. هاج طرباً فشق ثوبه ، وألقى بنفسه في بركة الماء التي تتوسط القصر . أخرجه العبيد واحضروا له ثياباً أخرى .. وأبدعت فريدة وهي تعيد الصوت فألقى بنفسه في بركة .. وظل هكذا ؛ يلقي بنفسه والعبيد يخرجونه حتى أصابه التهاب رئوي ..

ومن اللحظة أصبحت فريدة محظيته المفضلة . ومن خلاله دخلت فريدة حياة بغداد الأرستقراطية . رأت الأمراء يتوافدون . وكيف يهيمنون بغنائها حباً وصباية .. سمعت قصص الجوارى اللاتي يحكمن من فوق سرير الخلافة . وابتعدت جشة خل وأكواخ اللاجئين ، وتحسد الحلم الذي عبرت الصحراء من أجله .. ومرغ عمر بن بانه وجهه تحت أقدام المرأة التي التقطها ذات يوم عند شاطئ النهر بلا مقابل ..

في يوم لا تنساه . اشتعلت الحياة داخل القصر . إنهمك المئات من العبيد في العمل غسلوا كل الأركان والساحات والغرف بماء الورد ، إزدحم المطبخ بالطباخين وكل أنواع المأكولات .. غير الخدم الستائر والحشايا ووضعوا الزيت المعطر في القناديل .. ولما سألت عن السبب قال عمر بن بانه أن عليها ألا تغادر غرفتها الليلة والآن يسمع أحد صوتاً .. ويعد أن انصرف همس أحد الخصيان في أذنها .

- الخليفة «الوائق» سوف يشرف قصر الأمير الليلة بالزيارة ..

وفهمت السروراء أوامر المنع الصارمة .. وأشعل هذا نيران الطموح التي سمعت من أجلها . تسلمت في الليل ، ومن خلف الستار رأت الخليفة الوائق . رجل بالغ النحول والعصبية يجلس بجانب ابن بانه ويستمتع بأشمتزاز واضح إلى أغاني الجوارى المبتدئات . وانتهزت إحدى اللحظات الصمت فارتفع صوتها راثقاً شجياً يطغى فوق الجميع ويجب ما عداها . وانتبه الخليفة . وضع الكأس وانتبه . وامتقع عمر بن بانه وذهب لونه .. كانت فريدة أذكى مما تصور وأكثر طموحاً .. واستعاد «الوائق» الصوت مرة .. مرة .. ومرة ثالثة .. والتفت يسأل فاجابه ابن بانه وقد أدرك أن الطير قد أفلت من يده ..

في اليوم التالي قادوها هدية للوائق . قال لها عمر . . لقد خدعتني يا فريدة وكنت أنوى
الزواج بك . وأظهرت دهشتها . كان سرير الخلافة يتأديها . . يا خل . . دانت القصور
فهل يدبو الزمان ؟ . . والترك يحرسون الأبواب ويقيمون العرش على أسنة الرماح
وتشيب الواائق بها ونسى صفوف الجوارى اللاتي يمتلء بهن قصره . . كان يقول . أنت
ملكتي وحاكمتي . . فقريتي . . لكنها تعلمت درساً آخر . . إنها تحكم من لا يحكم . .
ورجوه الديلم والفرس تطل فوق الأسوار

لكنها أحبت الواائق . . أحبت حتى إحساسات القهر الخفية التي كان يعانيها تحت أبهة
الخلافة . . أحبت نفوره من الترك وكهرت حاجته إليهم . . لكن سرير الخلافة كان
فراشها . . والمزيد من الطموح لا يعنى سبب الجنون . ورأت ابن بانه في مجلس الخليفة
ناحلاً . . مصوصاً . . فتذكرت أول ما غنت من أبيات وأول ما علمتها خل . .

- ألا أيها الركب النوم ويحكم هبوا . .
اسائلكم . . هل يقتل الرجل الحب . . ؟ ١

وعندما حملتها إحدى السفن الضخمة هي والخليفة في إحدى نزهاتها فوق دجلة
والعبيد يقومون بالتجديف والجوارى ينثرن الزهر حول السفينة . . رأت على الضفة خيام
الفقراء المتلاصقة وأكواخهم الصفحية . . رأت النيران التي يشعلونها لطهو طعامهم
الفقراء . . سألت البحارة أن يسرعوا . . لكن صف الأكواخ ظل يلاحق النهر . . هتف :

- لهم يتكاثرون ؟

قال الخليفة وهو سكران : من ؟ . . أشارت إلى الظلال التي تتحرك على
الشاطئ . . وتتجمع لتري السفينة . . قال الخليفة : هؤلاء ناسي وشعبي . خير أمة .
وأحس بفراش القش وهو يغز جنبها . . تماماً . . مثلها عملوا السيوف في عنق خل . .
ركعت أمامه . . قالت :

- يا مولاي . . هؤلاء الفقراء حول النهر ، والديلم في القصور . يجب أن نجد
حلاً . . ؟ .
هتف في فزع :

- الفقراء . . الديلم . . ماذا أفعل ؟ . .

ومات الواائق بطريقة غامضة . . مثل بقية الميئات التي ماتها آخر الخلفاء من بني العباس
إنفرض الحداد في سرعة مريية ، وإرتجلت مراسيم البيعة ، ونصب المتوكل خليفة ، واستمرت
جسته الضخمة على سرير الخلافة ، واقتحم الترك القصر والمدينة وفرضوا شروطهم
النهائية . يصبح الخليفة إسماً . تحدد إقامته ويحدد راتبه . وهبطت الرايات السوداء إلى

الأبد . وارتفعت الرايات الفارسية . كان الثوار يثورون والقرامطة يطالبون بحق أفضل في الحاكم والديالة يقتطعون من جسد الدولة . وصفق المتوكل بيده وهو يصيح : إحضرو الجوارى والمغنيات . . هذه أيام الأنس .

قالت فريدة : لن أغنى . . أمر الخليفة العبيد أن يقفوا على رأسها ويصربونها حتى تغنى . كان الضرب قاسياً فغنت عن الموت . . موت خل . . وموت الوراق . . إهتزت جثة المتوكل الضخمة وأمرهم أن يضعوها في السجن ، فعششت العناكب في شعرها السرح الجميل . رأت في السجن رفاق الأكواخ وأحست بفراش القش يفرها ويترك نفس العلامات .

وأحضرها الخليفة لتغنى . . لتشاركه الفراش . وقف الحراس يهيشون الحو . . كان الفراش هو ميدان الخليفة الأخير . . وكان جسد فريدة هو آخر الانتصارات . لكن أقدام الحرس تجوس فوق صدرها ، في أى لحظة سوف يدخلون شاهرى السيوف . كم طعة تفود للموت وكم طعنة بعدها لا تحس بالألم . . ؟ وهتف الخليفة . . غنى عن الحب والوحد يا فريدة . وأمر العبيد أن يواصلوا الضرب على رأسها . وكانت صفوف الفقراء واللاجئين تنام فوق بلاطات القصور وفي أحواض النافورات الجارية ، فيهرع الخصيان بالعصى ويشهر الجنود السيوف ويمضى النهر كالشاهد الأخرس . صرخت في جسد الخليفة الملقى على السرير . .

- سوف يقتلونك . . سوف يقتلوننا جميعاً . .
ضحك الخليفة في بلاهة . .

- الترك اصدقائى . . والفقراء اعدائى . . من الذى يعطينى راتبى إذا عاديت الديالة .

وسمعت الأذان المنبثة في كل مكان في القصر ما تقوله فريدة . . وتلمظت السيوف ، تحول القصر إلى شرك . . وسرير الخلافة إلى مقبره . . قال الخليفة : غنى . . لكن أوتار العود كانت تلتف حول عنقها . . في أى القبور المجهولة دفنت خل . . وفي أى القبور سوف ندفن فريدة . . يا أيها الزمن تمهل قليلاً . . .

قالت فريدة : يا خل . . احل الترك دمانا واعملوا السيوف في رقابنا . .
قالت فريدة : يا خل . . كيف نغنى للحب ونحن نعيش في زمن الخوف !!



ثم غنت عريب «الصق خلخالى بقرطى»

* حدثتني بغداد عنها . .

عندما غنت غسلت النجوم نفسها في النهر ، وتركته مفضضاً ناعماً كأحلام الاطفال . .
تفتح الزنبق في قصر الشتاء وتفتح السوسن في قصر الصيف . وسارت «عريب» وحيدة .
الحزن دائماً مفرد الخطى ، فأى مدينة تسع الحياة التى تضطرم داخلها ؟ . وأنا مدينة الزمن
القديم . شوارعى تقود إلى دجلة . . ودجلة يصب في الخليج . . والخليج أين يصب ؟ . .
السماك يرتعد من المطاردة . والقصور تقتنص شمس الفقراء . والبيوت والحارات
والأسواق والخانات تمر بالحياة . تقول بيوت النصارى في الأطراف : كبرت الطفلة الآن
ومضت أيام الخوف . وقالت المقابر على الجانب الشرقى من النهر : لم نعد نصلح مأوى
للمطاردين . المخبرون لم يدعوا مكاناً آمناً . وقالت أسواق النخاسة : كسدت لتجارة بيع
الجوارى بعد أن اشترى المأمون «عريباً» . وقالت ساحة الخيل . كانت تهوى ركوب الخيل
دون سرج . قال صانعوا الاوتار : ومن الذى صنع أوتار صوتها ؟ . . وقال مقطرو النييل :
أصابنا بضاعتنا بالكساد لأن صوتها يسكر دون خمرة . وقالت امرأة نصرانية : أنا الوحيدة
التي أعرف سرها . ولدت «عريب» ابنة غير شرعية لجعفر بن يحيى البرمكى من جارية له .
وعندما أدار الزمان ظهره وانقلب الرشيد على البرامكة قتلاً وتشريداً ، دفعت الأم بـ
«عريب» إلى حتى أخفيها وسط منازل النصارى ، ولما هدنى جيرانى بالابلاغ عنى ذهبت بها
للمقابر . ثم بعته للنخاس «سنبس» بعشرين ديناراً . قال سنبس النخاس جازماً . هذا
الكلام كاذب وليست لى أى علاقة بالسياسة . وقالت بيوت الفقراء : ما أسرع ما ينفذ زيت
المصابيح ولا يبقى سوى السناج . وقالت جوارىها : كنا ننتظر يوم حمامها ، عندما تفك
جدائل شعرها الطويل وتفسلها ؛ لم تكن تفعل ذلك إلا من الجمعة للجمعة ، وطوال أيام
الاسبوع تغلفه بستين مثقالاً من المسك والعنبر فإذا غسلته اعادته وكنا نقتسم غسالة رأسها
بالقوارير وما تسرحه منه بالميزان . وقال ابو الفرج . دعوى أعرف موقف الخلفاء منها لأحدد

موقفى . . وأدلت إحدى الجوارى بشهادتها : كانت «عريب» تقول ما فائدة أيام تخلو من
الهجر والوصال . قالت الأرصفة : كان الشحاؤون يتوسلون بإسمها . وقالت طيور الماء :
كنا نرى جسدها وهى تستحم فتتلقفنا شباك الصيد . . ولى نهار . وجاء ليل وارتعد
النهر . وسكن الناس . وضربت «عريب» على أوتار عودها وغنت . . بغداد .
يا بغداد . . يا مدينة الصبابة والدم المباح .

* وحدثني عنها سرير الخلافة . .

كنت مجرد هدية من ملك الروم . لا أعرف من صنعى ولا من امتلكنى . . لكنى
عرفت جيداً «عريب» وعطرها إذ تلمسنى . توالى على خلفاء كثيرون ، شاهدت ليالى
متعمهم ، وتشربت دماء من ذبح منهم فوقى ، وأصابتنى كآبة دائمة . لكن «عريب» كانت
تعطينى الكثير من دفئها . . كنت الحلم الدائم لكل المتسلقين والمغامرين من ترك وديلم
وسلاجقة وتتار . . وعندما سكنت فى زاوية الذكريات الحزينة كانت معى ذكرى
«عريب» . .

عريب . . عريب . . على أى سرير ترقدين ؟

قتل الرشيد أهلها ، وإستولى الأمين عليها من صاحبها المأمون ، وملكت عليه قلبه ،
وعشقت المعز وإستمتعت بلياليها معه . وكرهها المعتصم وبادلته الكراهية . . واشمازت
من اللواتق . . واكتشف المتوكل أنها قد أصبحت عجوزاً . .

سبعة خلفاء توالوا . ودائماً يتتابى الأحساس بأنها لا تشعر بالأمان . يضيئها وسط
أغطية الحرير شعور حاد بالغربة . وعندما يهجع كل الناس عند منتصف الليل تظل هى
مسهرة . . وسائدى تشرب دمعها الليل وكآبتها الصباحية . وكنت أشعر بالحق عليها . .
هذه المرأة الغريبة ، إذا لم تكن تحس بالسعادة وهى تملك كل هذا الجاه فمتى تسعد . . ثم
أشفق عليها ، أى هم تحمله لا يجعلها تحس بالسعادة وثروات الدنيا تحت قدميها ؟

قالت للأمين بسخرية : تذكر إننى لست أحتك . وقالت للمأمون : لقد ملكتنى بعض
الوقت لكنك لم تملك قلبى لحظة واحدة . وقالت للمعز : إننى احبك فقط لأنك تذكرنى
بأحد عشاقى القدامى . وقالت للمعتصم : لماذا نعذب نفسينا . وقالت للواتق : لا أدرى
من أين تنبعث هذه الرائحة الكريهة ؟ وقالت للمتوكل : ترو قليلاً يا مولاي فالتهايات
المفاصل تؤلمنى . .

عريب . . عريب . . على أى سرير ترقدين ؟ . .

* وحدثني عنها سيدها المراكبى . .

وسدت رأسى الأشيب على صدرها وحلمت أننى أبحر مع ريع مواتية . واستيقظت .
قالوا هربت «عريب» . فكفرت متأسياً : من يمسك السحاب ؟ . أنا سيدها والمجنون

بها . لم يعد الموت في المعشوق مألوفاً في هذا الزمن . لكنني وقفت أمام الخليفة المأمون . قال لي : قد اشتريت جارىتك «عريب» بخمسة آلاف دينار وسأوليك عملاً تكسب فيه أضعافاً . . ورمى إلى بخاتمين من الياقوت الأحمر . فقلت : يا سيدى إنما يتنفع الأحياء بمثل هذا . أما أنا فميت لا محالة . لأن هذه الجارية كانت حياى . وخرجت من حوزق فاختلط عقلى ومث في اليوم الأربعين .

قادها «سنبس» النخاس وهى طفلة . قالت «يا سيدى» للمرة الأولى فرأيت وميض عينيها . كنت الموكل بمراكب الرشيد . تحت إمرة عشرات القوارب والسفن والذهبيات والملاحين والجنود . كان الجميع يعرفوننى سيداً وجيهاً . لكنها لم قالت يا سيدى أصبحت عبداً لها . وعندما ظهر ابن حامد فى حياتنا هجرتنى دون أسف . ولانتظرتها بلا ضغينة . وعادت مشعثة الشعر . ممزقة الثياب . لكن كل خلجة من خلجاتها تنبض بالسعادة وأدركت أن قدرى أن أدع القفص مفتوحاً حتى يشعر طائرى السيد بالأمان . يهجرى ويعود . . لو أننى أحكمت قبضتى لطار دون عودة .

وظهر ابن حامد . ريح عاصف أطاح بمجلس طربى . وحطم كاساق وأسال فخرى . وخطف «عريب» . كان يجلس متوفراً يسلط عليها عينيه القاسيتين . . فتصمت وتشرد حتى أحس بالدنب . وعندما تلطم الريح نوافذى فى الليل أعرف أنها قد مضت إليه ؛ كالحيوان البرى يمن لقبضة الصياد . ومع ابن حامد لم تعد . . مضى الليل وغارت النجوم وظللت أوقد الشموع وأنتظرها مثل امرأة مهجورة . سقطت صريع الحمى وسط شماعة زوجتى وسخريه إبنى . وجاء الخلان تحمل كلماتهم نبرات العزاء . ولم تعد . لم تعد . ذهبت أستجير بالخليفة الأمين : يا مولاي ابن حامد أخذ جارىتى . حياى . أنا صاحب مراكبك . . ومراكب أبيك من قبلك . واستجاب الأمين . ذهبت الشرطة وأحضرتها سويماً . . تطلع الأمين إليها متمعناً . . سألها : لماذا تركت سيدك ؟ . . أشارت لابن حامد . . قالت : هذا هو سيدى . . وجعلتنى اتضائل وسط ابتسامات الحاشية الشامتة والأمين يلتمها بعينه ويقول : دعوها عندى اذن حتى يحل القضاء مشكلة ملكيتها وفتحنا نحن الثلاثة - عريب وابن حامد وأنا - أفواهنا من الدهشة . لقد وضع الخليفة يده عليها وأصبحت مشكلتى مضاعفة . وأنصرفت - أنا وابن حامد - كل منا يمقت الآخر ويسوق إليه العزاء . ظللت أتردد على القصر حتى أرى طريقاً أستعيد به جارىتى . لكنها الحرب اللعينة تدق أبواب القصور . وجنود الفرس يتخطون النهر . ينزلون رايات الأمين ويرفعون رايات المأمون . لكنها الحرب أحرقت سفنى وضيعت جارىتى وحولتنى إلى غراب عجوز انتظر سقوط الرمم . وما أن جاءت الأنباء أن الأمين قد قتل وأن بغداد أصبحت سبية لسيف المأمون ، حتى هجمت على القصر وأخذت «عريبى» . . سلبت حقى وسرقت عشقى الوحيد . . وعدت إلى بيتى فرأيت زوجتى واجمة وابنى قد خرس عن الشعر الردىء ، لكن قلبى كان ينتفض فرحاً . . ولم يطل مجلس طربى . . استوى المأمون على العرش . . وطار الطائر هذه المرة . . دون عودة .

* وحدثني عنها قاضي قضاء بغداد . .

اللهم احفظ أمة الاسلام . القضية واضحة والأدلة بينة . والحكم معد سلفاً . قاضى مثلى . فى زمن مضطرب مثل زمنى . فى مدينة غريبة كمدينتى . عليه أن يكون حريصاً . يمشى على الصراط ولا يقطعه . يحكم من خلال وجوه المتقاضين وثيابهم ومراكزهم الاجتماعية لا من خلال الأدلة التى كثيراً ما تكون مضللة . إن الميزان يميل والقاضى مستوٍ على مقعده . . وأنا قاضى القضاة . ظل الخليفة . والقضية كما قلت واضحة .

المغنية «عريب» هربت من سيدها المراكبى . ليست هذه هى المرة الأولى التى تهرب فيها ، وليس هو العاشق الوحيد الذى تهرب إليه فاللهم . . احفظ أمة الاسلام . ويقولون أن فى موقف سيدها بعض الرضى على هذا الوضع الذى لا يرضى أحداً . يقولون إنه مرض مرضاً شديداً . وعندما أفاق ظل يبحث عنها ثم استغاث بالمأمون . «ملحوظة» . استغاث قبل ذلك بالأمين . وكان المأمون يحمل له ذكرى طيبة من أيام مولانا الرشيد فأمر الشرطة بالقاء القبض على ابن حامد . وسأله عنها فأنكر معرفته بها . فقال له : كذبت . وأمر صاحب الشرطة أن يجرده ويضع التسياط عليه حتى يردّها . وما أن بدأت عملية الجلد حتى فوجئ الجميع «بعريب» . وهى قادمة على حمار مكار مكشوفة الوجه . عالية الصوت : أنا «عريب» . ان كنت مملوكة فليعنى وإن كنت حرة فلا سبيل له على . وهكذا رفع خبرها للمأمون فبعث إلى برسالة . يطلب منى إقامة العدل فى أمرها . وكانت الرسالة عصرية . والحاجب الذى حملها أغرب . هنا يأتى دور ذكائى ومعرفتى بتقلبات زمنى . قبلت الرسالة فابتسم الحاجب . قلت : القضية واضحة . قال : كلك نظر . قلت : هل رأى المأمون الجارية . قال : ومن أجل هذا عهد إليك بالقضية . ابتسمت . قلت . اطمئن .

وعندما مثلوا أمامى . تأملت الجارية فبهرتى جمالها . وأخذت أسأل عن كل التفاصيل . وأحاصر المراكبى بأسئلتى الذكية حتى إرتبك وأخذ يتحدث عن سطوته أيام الرشيد . وعن «سبنس» النحاس . ويستشهد بأصدقائه . وأنا ابتسم فى برود . ثم فاجأته بالسؤال : هل تملك البينة على ملكيتك لعريب ؟ . قال مذهوشاً : ماذا . . ؟ قلت : البينة . الدليل . ألا تملك دليلاً على ملكيتك للجارية ؟ قال : أنت تطالبنى بما لم يطالب به أحد فى رقيق ولا يوجد مثله فى يد من ابتاع عبداً أو جارية : قلت : لأنه لا يوجد أحد ينازع من يملك رقيقاً مثلك . وأفحمة جوابى فعاود الهديان : هذه ملكى سأشكو للمأمون . سأظللم . وصدر حكيمى قاطعاً : إنها ليست ملكه وهى حق لمن يشتريها . ابتسم ابن حامد . لكن ابتسامتى كانت أوسع واضفت للحكم حاشية أخرى تقول . . ولا تهوؤ ملكيتها للمتنازعين عليها !

واشترى الخليفة «عريباً» . ولم يرض قلبه الرحيم فأجلد العطاء للمراكبى . بعث إلى

بإناء خسروانى عجيب الشكل لازلت احتفظ به فى صدر مجلس الحكم وكلما سألنى أحد عن قصته . . اكتفى بالابتسامة .

* وحدثنى عنها عاشقها . .

وداعاً يا أميرى . أنا ذاهب للحرب . علت صيحات القتال ومضى زمن الحب . أعلم أن هذه غزوات الأخيرة . ترى هل ستذكرنى «عريب» ؟ أم سوف تشغل بمجالس الأمراء والعشاق الجدد . قلت لها : دعينا نتزوج . دعيني أشتريك . همست وهى تقبلنى : لا أريدك زوجاً طائعاً ولا سيّداً شرها . أريدك فقط عاشقاً لى . كان لها منطقها الخاص وكنا نعيش على حافة الخطر . تضرب هى بالمقارع وأجلد أنا بالسياط . وكانت لا تكف عن القول : لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل . قلت . دعينا نرحل لبلاد أخرى . قالت : أنت فقط تحلم بامتلاكى . وذهبت أنا إلى الغزو . وجبت هى فى كنيف مظلم ، وكان الجنون يبلغ بنا مداه فنخرج سوياً للنهر تحت أعين طيور الماء والنخل واعوان المراكبى .

وعندما وضع المأمون يده عليها وضمها لحريمه ظلت طبيعتها الحرون كما هى . تغلت من برودة الأروقة . . وتحت وطأة الرعب كانت تأتى إلى . . لقد بدأت اقتنع بمنطقها . ذات ليلة ممطرة كانت تركب جوادها عائدة من عندى ، أحست بمن يركب جوادها بجانبها . وعندما أضاء البرق وجهيها رأت «حمدون» «أحد أعوان المأمون قال : يا عريب» من أين أقبلت فى هذا الوقت من الليل ؟ . . قالت : من عند عمدة بن حامد . قال : وما صنعت عنده . ؟ . ردت «عريب» بسخريتها التى اعرفها جيداً : يا أبله . «عريب» نجىء من عند ابن حامد فى هذا الوقت . خارجة من قصر الخليفة وراجعة إليه . تقول لها أى شىء عملت عنده ؟ . يا أحمق تعاتبنا . وتحادثنا . . وإصطلحنا . . وشرينا . . وغنينا . . وإنصرفنا . وإنصرف حمدون خجلاً .

وفى الصباح قصت على هذا الحوار وهى تضحك . تجمدت رعباً أمام ضحكاتها . . أى جنون أن نضع أنفسنا تحت أنياب الذئب . كنت أعرف أن المأمون مدله بها . منذ أن أصدر القاضى حكمه الغريب . ومنذ أن كف عن كل جواربه وتفرغ لها . وكنت أعرف أن لسان حمدون يصب فى أذن الخليفة . وأن السياط التى تحملتها قدماً من أجلها قد تحولت إلى سيوف قاطعة . لكن دفقة العاطفة التى تغمرنى بها ، وشهوة الحياة التى لا تحمد ، نأت تغرقنى فى بحر لا نهائى . يصبح الخليفة وهما . . والعالم وهما . .

وصل الأمر أننى اكتسبت جنونها . ذهبت لمجلس المأمون وجلست وسط ندمائه فى مجلس الطرب . . كنت أحاول إستشفاف مدى التهديد فى نبراته . جلست «عريب» وسط جواربها كالقمر المغرد . نسيت مبادئ الحذر . ظلمت أنطلع إليها . كم تبدو مثيرة وهى بعيدة وبيننا يجلس أسد كاسر على عرش من ذهب . غنت الجوارى وهى صامتة . وعندما

تقابل وجهانا وأيت تألق عينيها الذي أعشقه . لم أتمالك فأومأت إليها بقبلة خاطفة .
أحسست بها تتلقاها . كأنما شفقت على وجهها . . أخذت العود وغنت . . تخط الوصل
بالهجر . . ولا يدخل في الصلح بيننا أحد . غنت بكل أعماقها وتحول المجلس إلى حلم
ملون كأننا وحيدان . لم أفق إلا والخليفة يصبح . .

- كفى يا «عريب» . . اصمتي . .
وخيم الصمت . . رأيت نظراته الغضبي تكاد تقتلعني كالعاصفة . .

- من فيكم أوما لعريب بقبلة . . ؟ . .
عرفت أنه رآني . . أو على الأقل فهم من طريقته في الغناء . . أصابني الوجل فظلمت
قاعداً . . كرر . .

- من فيكم أوما لعريب بقبلة . . والله لئن لم يصدقني لأضربن عنقه . .
لم يكن ثمة مفر . كانت أنظاره تحاصرني من دون أهل المجلس . نهضت . قلت . .

- أنا يا أمير المؤمنين أومأت إليها . . والعفو أقرب للتقوى . .
قال من بين أسنانه : قد عفوت . !

لكنه أسرها وانفض المجلس . ولم أر «عريباً» من يومها . كأنه قتلني حياً . وجاء إلى
الأمير بالخروج للغزو على حدود السند . إنتقم الخليفة بطريقته الخاصة وحلني ذنب الحرب
السعيدة القاسية . أنا ذاهب يا أميرى . لا يجدى الحب والسيوف مسلطة على أعناقنا .
وسوف أموت . وتنسان «عريب» . . ولكن هل ستملكها حقاً . . ؟ . .

* أخيراً حدثتني «عريب» عن نفسها . .
لماذا يحلمون دائماً بامتلاكى ؟ ان احداً لا يحلم بامتلاك الشمس ولا النهر ولا
السحب . إن ناراً تتوهج داخل كوال الشمس . وعواطفى تضطرم كاللجج ، وشطحات عشقى
كأنها أسفار السحب . فلماذا يحلم الجميع بامتلاكى ؟ . . سنيس والمراكبى والأمين . .
والمعز والمعتصم والوائق والمتوكل والعشاق العابرون ، وحتى الشعراء الذين كنت أذوب
وأنا أغنى أشعارهم . .

ولأن الخليفة المأمون لا يستطيع حبس الشمس فقد حبسنى في كنيف مظلم . وأنا
أرتدى جبة من الصوف الخشن . ولا أذوق إلا الخبز والملح والماء . كل ذلك حتى أنسى ابن
حامد . . لم أكن أحبه هذه الدرجة . لكن تصرف المأمون الأحمق جعلنى أتحيل اننى أموت
صبابة فيه . . وعندما أخرج عني وقفت أمامه وغنيت . . «حبيبوه عن بصرى فمثل لى
شخصه فى القلب» . . وتركته يتميز غضباً . . حتى ابن حامد وضع أمامى قيد الزواج

.. . . وليته ما فعل وانحى المأمون وقل قديمى فقلت : مثل اليهودى يقبل كيس
 دفعت في خمسة أكباس وفزت من النافذة ، ذهبت لابن حامد فلم أحده .
 احب رجل قائلته . وسألني في الصباح عن اسمي فقلت شهر راد . ومات
 كنت الجارية الوحيدة التي بيعت في ميراثه واشتراني المعتصم مائة ألف درهم
 فأعطينه قلبي ليلة واحدة وهجرته حتى لا أكون أسيرة فنته . إن الحب لا يمتلك
 الحب لا تباع . وكنت أعتب ناس حامد . «أجعل سروايل مخنقة وألصق خلخالي
 «طبي» ولقد نحتت في أن أجعله بعشقتي كما أريد . وفشلت مع آخرين ومات على
 المسند . وأحببت عيسى بن الرشيد . كان مغنياً ناشئاً يتلرب . وعندما كنت في أحد
 الطرب سألوني عن أي حليبه فضيلته فقلت : عاشرت سبعة ما عشقت إلا المعز فإنه
 عيسى بن الرشيد . سألون إن كانت لدى قدرة على العشق فقلت في أسي .

- أما القدرة فحالمها لكن الشباب ولي .
 النيران المستعرة في داخلنا تحرقنا أسرع . ولا يبقى سوى رماد الشيخوخة . لكننا
 تزهج ويلسع وهجنا الآخرين . ويذكرنا الناس كما يذكرون الشهب . نضىء فجأة .
 ونحترق فجأة . ولا يعرف أحد أين مشوانا ؟ .. .

لقد ظللت أعشق حتى النهاية . وعندما حاول المتوكل امتلاكى وقع في نفسى خطأ
 الآخرين . إنقمت منه عشقت خادمه صالح المنذرى . دخلت على إحدى جوارى
 المتوكل ، صعبت الخادمة وأنا أصبحك كما صبق حمدون خادم المأمون من قبل . ونقلت
 الكلام للمتوكل فأبعد الخادم ، وحسب إننى استسلمت . وقفت بين يديه وعنيت .. .

أما الحبيب فقد مضى .. . بالرعم منى لا الرضا . طرب . وأخذ يستعيد الصوت
 والجوارى يكتمن الضحك الشامت فيه .. .

* حدثني حارس باب الخليفة

كنت واقفاً على باب الخليفة منتصباً . يدى على مقبض السيف كما يليق بحارس
 رفيع القدر ، ومجلس الخليفة منعقد . كانوا منتشين وكنت اليقظان الوحيد . جلوساً على
 الأرض كالحيوانات الرحوة . يتحدثون عن الغناء .. . واختلفوا حول أحد الأصوات : إلى
 من ينتسب الشعر .. . هاتوا «عريباً» نسألها ١١

إننى أكره هذه المرأة . بجيئها كميل يان بمد السهرة حتى الصباح . وأنا منتصب أعادى
 من آلام التقلص أكره طريقتها المائعة في الغناء وأكرههم عندما يستعيدن اللحن
 عشرات المرات . أكاد أحتق .

عاد الخادم ليقول ان «عريباً» تعانى من الحمى . هتف الخليفة لا حمى ولا أعذار .
 وهلل البدامى مطالبين بمجيئها . بعد برهة جاءت تستند إلى خادمين والحمى تكسو وجهها

بالحمرة القانية . وصوت أنفاسها يتردد بصعوبة . كنت الوحيد في القاعة الذى أدرك حالتها . أما هم فقد انهلوا عليها بالأسئلة وهم يتصايحون . . سألها مولانا فأجابت بكل ما تعلم . أمور لا أدعى أننى أعلم فيها كثيراً . صباح الخليفة . .

- غنى الصوت أذن . .
قالت فى صوت متوسل : مولاي . . أننى تعب .
صرخ فى عصبية : غنى . . قالت مستسلمة : آتنى بالعود .
صرخ : غنيه دون عود . .

تركت الخادمين واعتمدت على الحائط . وللمرة الأولى لم استطع الوقوف منتصباً ؛ إرتخت عضلاتى وأحسست بالأسى تجاه هذه المرأة المحموعة . فكرت إنها لن تطيل الغناء وسرعان ما ينفض المجلس وأعود إلى بيتى . بدأت الغناء . والحمى تزداد والأنفاس تتناقل . كانوا يهللون ويصيحون . فكرت : سوف تسقط هذه المرأة حالاً . أكرهها . لكنها لم تسقط . واصلت الغناء . وعندما إستعادوا الصوت اعادته . وخفت حمرة الحمى . وإنساب الصوت كأنفاس الليل وكأن النجوم البعيدة فى نوبات الحراسة . ينطلق ويكتسح آثار الحمى وآثار الجنون . يضح بحياة جديدة كأنها تولد فى هذه اللحظة . هذه المرأة العجوز كيف أصبح صوتها بهذا الشباب . . إنها تغنى لى أنا فقط . أنا الوحيد الذى يعنى هذا . .

لمحت ظلاً أسود يسير على الحائط الذى تعتمد عليه بيدها . عقرب يسير نحو أصابعها . فكرت أن أترك مكانى وأجرى إليها . . لكن الخليفة قد يظن إننى أنوى إغتياله . لكن يجب أن أفعل شيئاً . و . . لدغها العقرب . . لم يبد عليها أنها أحست أى إحساس . ظلت تغنى وتجلو نبراتها وأنا مذهول . لدغها للمرة الثانية ، لم تتحرك . . أخذت تعيد الصوت كأروع ما يكون . والصمت يعم المجلس . هل شاهدوا العقرب مثل . . أم أن تلك النبرات التى يبدو إنها ليست من عالمنا قد أسرتهم . وانصرف العقرب عائداً إلى أعلى الجدار كما جاء . وإنتهت الأغنية . . وكلهم صامتون ومولانا نائم . . ورفعت يدها إلى رأسها ببطء تمسح جبهتها من العرق . . ثم سقطت على الأرض دون أن يتحرك أحد .



فضل العبدية

الحب صفقة خاسرة

إذا أردت أن تبيع نفسك ، فليكن الثمن غاليا . كانت فضل تعلم ، قطرة من العطر باعته الشمس . رفعت الستر ، فرأت الخليفة ، وأخواتها الخمسة ، وسعيد بن حميد ، والنخاس الذى إشتراها . . وعصافير بغداد ميتة على الأرصفة . وكان عليها أن تعقد الصفقة . . وأن تدفع الثمن أيضاً . . لحظتها قال لها الخليفة . .

- اليس لك مطلب آخر . . ؟ . .
أومات برأسها . . وأصل السؤال .

- ويعد ذلك . . ؟ . .
ترددت قليلاً . غاصت الكلمات فى حلقها كنصل سكين . . ثم قالت . .

- أسلم لك نفسى . . دون قيد . . أو شرط .

فضل العبدية مازالت تعلم . والحناجر تسابق حلمها . . عندما لم تكن «عبدية» ، وأخوتها الخمسة يعبرون بها الصحراء . . رحيل ، واختطاف ، وقمر جائع يأكل من الرمل ، ونفس ممزقة . تنام الليل فى القيد ، وتصحو محاصرة بعيونهم العشرة ، وأظافرهم المتسخة تنغرس فى لحمها . . كل واحد منهم يشبه الآخر تمام الشبه . . وهى لا تشبه أحداً . . كانت أمها تموت فى خيمة منزوية . . والنجوم تتساقط . . وسألها فضل . .

- يا أمى . . لماذا يكرهنى أخوتى لهذه الدرجة . . ؟ . .
- كنت جارية غريبة . أعتقنى أبوك لحظة ولادتك . . وهؤلاء إخوتك من زوجة أخرى لم تكف لحظة واحدة عن كراهيتى . .
مع كل ذكرى . وكل لحظة . واجهتها هذه الكراهية . كانوا أكبر منها . وأكثر

سلطنة وماتت أمها جوعاً فرفضوا أن يدفنوها بجوار روحها . ورات الأم الأخرى وسط
ؤلادها الخمسة تميل الرمل على القبر . وحين رآها تبكى صاحت في سخرية ..

- أترتدين ثوب الحداد وأنت بهذه الجدائل الطويلة .. ؟ ..
وهجم الخمسة مثل قطنع من الذئاب . ألقيوها على الأرض وجلدوا جداولها
سجناجرهم أطلقوا صيحات الانتصار وهم يسلمونها إلى أمهم التي تأملتها قليلاً . ثم
ألقتها إلى القبر .. وأهالت فوقها الرمال

كانت في العاشرة من عمرها . بلا صدر ولا جدائل قالوا لها . سوف ترحلين معنا
إلى الشمال . وسمعت الأم وهي تؤكد عليهم أمرة . مخلصوا منها بأي ثمن . ووقف رجال
القبيلة .. شهوداً صامتين . يؤكدون بصمتهم المصير الذي ينتظرها . عدا شيخ واحد
أصم .. دق الأرض بعصاه وهتف بهم ..

- إلى أين تذهبون بالصبية اليتيمة .. ؟ ..
وارتبك الخمسة . وأسرعت الأم تأخذ الشيخ بعيداً .. تنحى له عن زوج مزعوم في
قبيلة أخرى يطلبها للزواج .. وظل الرجل يلح في السؤال .. ورحل الأشقاء الخمسة
والشقيقة الوحيدة . جوعاً وعطشاً . والشمس غصة . وبحار الملح بلا نهاية . كانت
تبكى .. يا أحوى . يا أشقائى . ولم يجيبها سوى الصدى . أنزلوها في أول بئر قابلوها
وتركوها معلقة حتى كفت عن البكاء والتساؤل . وأخرجوها ليواصلوا السير الحشن ..
وكانت بغداد عالماً حزيناً رغم ألوانه الزاهية . ساروا بها إلى «الكرخ» حيث يجلس حسنية
النخاسى .. عرضوها أمامه فسألهم بغتة ..

- من أين جئت بها ؟ ..
وكالعادة إرتبكوا . نظروا إلى بعضهم كأنما يبحثون عن الأم لترد بدلاً منهم ... ثم
قال أكبرهم ..

- إنها جاريتنا . مللناها وأردنا التخلص منها ..
ونظر حسنية إليها في تساؤل .. لكنها صمتت .. لماذا تنكر .. وتشكو .. ؟ ..
لماذا تعود معهم ؟ في الصحراء لا ينتظرها سوى الكراهية والملح والخسائر ... قال
حسنية :

- عشرة دنائير ..

همهموا في طمع :

- عبرنا كل هذه الصحراء من أجل عشرة دنائير ..
كانت فضل متأكدة أنه لو عرض عليهم أقل من هذا لقلوا .. قال حسنية

- خمسة عشرة ديناراً . . لا يريدون ديناراً واحداً .
كل واحد منهم أخذ ثلاثة دنانير . . وعادوا ليكون إلى قبيلتهم «بنى القيس» وهم
يصيحبون . .

أختنا أكلتها الذئاب . . إختطفها . . ما .
وفردوا أمامهم ثوبها الملوث بالدم . المسموم بالأطاهر . . وصدق الجميع حتى
الشبح الأصم . .

نظر «حسنوية» إليها . إكتشف حمارها الذى ينضج ولم يصقل بعد . من هذه اللحظة
فقدت كل أنسابها . أصبحت فصل العذبة . لم تنس شيئاً من عذاباتها . أيام الجوع وليالى
الخوف . . والطرد حتى موت أمها كمدماً كانت تهذى بكل هذا . . وتدفع الشعر من
ينابيع هذه الآلام . . كان حسنوية يشطفها مثل يهودى يعمل بالماس . ومرت السنوات فلم
تتحج جرحاً أو ندبة . تعلمت أكثر مما قدر لها . ورفضت نقاب الجوارى . وجلست سافرة
وسط شعراء بغداد . تسمع إليهم . وترد عليهم . تحفظ القصيدة من أول مرة . . ثم
ترجمل في التوقصيدة على نسقها . وفرك حسنوية يديه . وهويرى قيمتها تزداد كل يوم . .

لكن الحب . . ذلك الطائر الأبيض المقصوص الجناحين نقر جدار قلبها . ذات ليلة
أقبل سعيد بن حميد إلى مجلسها . . لمتت نظرها لأول وهلة حمرة الخجل التى علت وجهه
عندما طلبوا منه أن يقول شعراً . ثم قال أشعاراً حزينة عن الوحدة في شوارع بغداد . لا
تدرى لماذا لم تعارضه . لعل الشعر مس الجرح الذى جاهدت في إخفائه . وانتصف
الليل ، وأصبح القمر مخافاً . . فسمعته يتمتم في صوت خافت . .

- هذا القمر . . يتركنا . . ويموت . .
التفتت إليه في فزع . علت حمرة الخجل وجهه . بدأت تراقبه بلمهتام . لمحت
السوداء الصغيرة . وأنفه المفلطح بعض الشيء . . هذه الكلمات الحمقاء التى تموء بها .
ماذا نعى ؟ . أخذت تسخر منه فجأة تردد الأشعار الموحية . وترصد له . . ولانطوى هم
على نفسه . . وصبح المجلس بالضحكات . والحوارى يزقن من خلف السر . وحسوية
حلج حمامته . . وسى بخله المليدى وإنعزلت كزوس الشراب وباعت هي . .
فسوتها عليه . . وظل القمر مخافاً . .

لم يأت في الليلة الثانية . ولا الثالثة . وبحثت عنه . وأدهشها أنها تبحث . ومال ناجر
اغنام على حسنوية يعرض فيها مبلغاً كبيراً . لكنها رفضت . فرفض هو أيضاً . . وتقديم
أمير حيوش الخليفة . كان قادماً من بلاد الهند والسند بعد أن قتل عدداً لا يحصى من الناس
والأفيال . ورفضته أيضاً . وتطلعت في مرارة للمجلس الخالى إلا من أنصاف الرجال .
وفي الليلة الرابعة كانت تقول شعراً فرائه واقفاً . .

هل لي نصيب في فؤادك ثابت كما لك عندي في الفؤاد نصيب

حسنوية نائم على ظهره . وأمير الجيوش يلمع سيفه . وأقرب ابن حميد منها . كان هناك قمر مشقوق . وسوسة . وظبي وحيد . وفضل تسرى في داخلها رعدة غامضة . . قالت . .

- أين أنت يا بن حميد . . لقد انتقدناك . . ؟
ثم صمتت . حاول أن يتسم ابتسامة خجلى . . ثم هتف . .

- ربما . . لأنني أحبك أكثر . .
لحظة وجيزة كخطف البرق . وأفاق السكارى . واعتدل حسنوية وقال :

- هي جاريتي . . حق الحب . . له ثمنه المناسب . .
انعقد المزاد لهجأة على غير توقع . إلتفت إليه ابن حميد . . وسأله . .

- كم تريد فيها . . ؟ . .
هتف حسنوية :

- عشرة آلاف دينار . .

وتمنت فضل لو أنه عرض ثمناً أقل . وقال ابن حميد : قد قبلت . وأضاف حسنوية . .

- أمامك ثلاثة أيام . . وإلا سوف يتضاعف المبلغ .
وخيم الصمت . ونهضت فضل . أغلقت باب حجرتها . كانت مسرورة . .
إكتشفت في هذه اللحظة ماذا يعنى اسمها . . فضل العبدية . . لا نسب . . ولا رأى . .
ولا مصير . . وحين أقبل حسنوية صرخت فيه . .

- لماذا فعلت ذلك . . ؟ . .
قال في صفاقة . . .

- ومن قال ان العشق بلا ثمن . . ؟

كانت النجوم لها لون الملح . ووقف ابن حميد أمامها فقيراً . فقر كل شعراء العالم بسيطاً وصريحاً مثلهم . لكن حسنوية على حق . . الحب كالأحلام باهظ الثمن . كم مرة تضاعفت هذه الخمسة عشر ديناراً الحقيرة منذ أن أصبحت فضل «عبدية» .

لم يحضر ابن حميد في الأيام التالية . . بغداد ثقب ابرة . كل دينار ينفذ منها يحتاج إلى

معجزة . وإلى تلال من القصائد . مدح أمير الجيوش . وشهبندر التجار . والوزراء .
وتجار الحروب . ولصوص القوافل . إستوهب ثمن عشقه من كل المتخمين . وتحول الشعر
إلى أسماك بالية . ونامت فضل تحت شمس الصحراء . . ومد الأخوة أصابعهم ونزعوا
قلبها . القوه في قبر الدم . وهتف حسنوية . .

- وهل حسبت أنى أبيحك إلى شاعر مخلص . .
لكن هذا العاشق الشاعر المفلس جاء في اليوم الخامس . وضع أمامه عشرة أكياس من
الدنانير . . وترقب فضل كعصفورة .
وإشرأبت بغداد كلها . وصحك حسنوية في سخرية . .

- هذا هو اليوم الخامس . . وهذا فقط نصف المينع . أمامك ثلاثة أيام أخرى .
وعاد ابن حميد يلهث وحيداً . وعادت فضل إلى حجرتها فإكتشفت أن حسنوية قد
وصع حرساً على كل منافذ البيت . وكانت تحلم بآبن حميد ، يرشق الزهر في مفرق
شعرها . . وعلى وجهها وصدرها . يغطي حسدها كله بورق الزهو . . حتى إذا نهضت
بنائير حونها كالفراشات الملونة . . ومدح ابن حميد الوزراء . والقادة . . والسماصرة . ولم
يعطوه شيئاً . . ظلوا يلحون عليه أن يقص عليهم قصة غرامه الأبله . واستمع الخليفة
إليه صاحكاً . . طلب منه أن يسمع أشعاره أولاً فوضع ابن حميد قلبه بين يديه . تلوى مثل
شهاب يمترق . وفجر في الكلمات كل الأمنيات المرتعدة . . وأشار الخليفة لصاحب بيت
المال أن يهبه عشرة آلاف دينار أخرى . ومرة أخرى حمل ابن حميد المال . وأصطفت
الأكياس تحت أقدام حسنوية فتتهتف . .

- ما أضعف إحساسك بالرسم . لقد تبددت المهلة الثانية كسحب الصيف . .
كان الحراس متيقظين . حين حاولت الهرب قبضوا عليها . وضحكت بغداد في
خشونة . . وبصحه أصدقاؤه . بهذا المال تستطيع شراء جيش من الجوارى الروميات
والخبشيات . لكنه يريد فضلاً ولا شيء سواها . وكان أبلهاً لدرجة كافية فذهب إلى
الخليفة . . وقف بين يديه يحكى عن حبه الذي تقتله أطماع حسنوية . . فسأله . .

- أى شيء تشبه فصل . هاهنا التى أصبتك . .
' قال ابن حميد

- تشبه حلماً عامصاً . وتشبه كل لحظات العذاب والشوق . وتشبه قطر الندى .
ووعده الخليفة وعداً غامضاً . وفوجىء حسنوية بمركب الخليفة يدق بابه . وشعر بالراحة
حين لم يجد ابن حميد في ركبائه . وقال الخليفة في لهجة محددة . .

- أخرج لما فصل لنرى حاجة ابن حميد . .

وأسرع يصع على وجهها اللمسات الأخيرة . وتذ . هذا الخليفة المنجنون يريد . يعطى هذه الدرر لشاعر مفلس . وعندما أنبلت على هوجى ، الخليفة بذلك التألي . يشع منها . وإزداد التألق وهي تقول أشعارها الحربية . تسأت تحاول أن تسد . الخليفة . عله برفع أصبعه الذى فيه شارة الحكم ، أمر بأن يوقف هذا اللهاث لكنه قال

- أما سعيد بن حميد فسوف يكون عامل على حراسان . وأما فضل فستكون ففصرى ..

وشهقت فضل . وقفز حسنية فرحاً . وعارب الأقمار الملونة . لقد حققت الخدم . عشر ديناراً أقصى استثمار لها ..

لا أحد يعرف أين ذهب ابن حميد . قالوا إلى حراسان وقالوا . بل طفت فوق دجلة . وقالوا إنه فى زنزانة مفردة فى سجن (النسر) . لكن الشيء المؤكد أن دس سيق إلى قصر الخلافة . ورات شقائق النعمان ملأاً الحديقة بأشجارها بازقة . تطار إليها الجوارى فى حسد . كن جميعاً أجساداً جميلة وحاسرة قوية . وأنونة لا تعاوم . فضلاً كانت عقلاً فريداً . شاعرة حقيقية . وعاشقة دلا أمل . هتموها ..

- أسمعينا أشعارك يا فضل .

كانت تشعر بالغربة حارقة للحرير ملمس الشوك وللشراب طعم العلم ظلت صامئة أمام الخليفة قاده إلى غرفته فكأبت المعركة بأسرها . رفضته وروى عرش الخلافة ولو شأنت لصعدت وحكمت وأمرت بما تريد . كانت قد حيدت . استولى عليها معه . فليحدث ما يحدث لابن حميد . أفضل الولاية أو يشتري . الجوارى لكنها لن تسلم نفسها مهما هددها الخليفة أو . شمع اللالى تحت الشمس . بهما أودادت درجه حسنية ووليه بها سوف تبقى بائنة . بلها تحصل على سها الداحلى

يشع الحاد . بها فأعطاها للحراس . . وفادها الحراس للسجن . وسعها السحان فى حد سظم . ويتداحل الليل والنهار والرمولة وقمرى الفترات . لدعات الساعيث والبهما على طهرها وحدوا . دائلها الطويلة الممره الثاسة . ولم تكن تلك . سوى أن يحلم . سجع شمس ملونه . سجع زهرات من شقائق النعمان . وسعها اناه والاداد تنسب إليهم . ولم تحلم بان حميد

وظل الخافه يتوقع أن تلى قليلا . وعندما حشى أن يموت داخل السجن أمر علمانه بأر حوها وأعادوها إلى القصر دون مطلب محدد . وأشركها فى عالس الشعراء والمعلم . لعل . . . من مع العالم يتسلل إليها . وهكذا . قدر لها أن تراه من ميه أخرى

الأخوة الخمسة . . لم تتغير ملاحظتهم رغم كل هذه السنين . كما تطاردها في الكواويس . كانوا أمام الخليفة . . وأجسادهم العملاقة بدا عليها هزال غريب إرتعدت . . تخيلت أصابعهم وهي تمتد إليها وتعيدها إلى صحراء الكراهية . لتبيعها مرة أخرى . إلى نخاس آخر . . وكان أكرهم يتكلم .

- رحماك يا مولاي . خمس سنوات من الجذب والمجاعة . بلاد اليمامة قفر وكلنا في عوز وحاجة . .

هبتهم رثة مثل كلماتهم . حيوانات زاحفة تبحث عن شيء تلعبه . كانت بغداد مائة مائة بأفواج القبائل الرثة الجائعة بعد أن لفظتهم الصحراء القاحلة . قال الخليفة

- إذا كان الغد . . تعالوا إلى مجلسي . . قبلوا الأرض تحت أقدامهم وارتدوا . . وفضل لا تكف عن الإرتعاد . ثم نهضت سارت إلى جناح الخليفة . . لقد جاءت لحظتها أخيراً . . وحين توجه هو إلى جناحه وجلس . . في أتم زينة . . وعطرها حار كنداء الرغبة . ورق صوتها للمرة الأولى . .

- أسعد الله يومك يا مولاي . . .
تطلع إليها في دهشة . . ثم تسأل

- ماذا حدث للطيبة المافرة ؟
ضحكت بصوت رائق وقالت .

- فلنقل أنها ملئت المطاردة .
- قول غير مقنع .

ساد الصمت ، وكل منها يتحسس الطريق إلى الآخر . فتحت قنية العطر .
قطرة على وجهها وقطره على لحيتته . ثم قالت

- وهل يقتنع مولاي إذا قلت إنني أريد أن أعقد صفقة بيننا
وصمت الخليفة . تلوى جسدها داخل ثيابها الشفافة . . إقترت بوجهها . .
ومضت . .

- هؤلاء الخمسة من بلاد اليمامة . هم قطاع الطرق الذين احتفظهم . . .
حسنوية . . وأنا أطالك بعفاهم
ضحك بصوت حاد . إبتعد برأسه لعله سمعهم . تأثر أنفاسها
- ذلك أمر مضى لا دليل عليه ولا . .

- الدليل هو أنا .. والبيئة هي كلماتي .. والجرح لا يندمل مهما مضى عليه ..
- إنهم رجال من بني القيس . أنسابهم معروفة .. وعامل على اليمامة يعرفهم ..
- قالت في صوت خافت مبحوح ..
- هذه صفقتي يا مولاي دعهم في «التنور» وانس أمرهم .. أكون لك .. دون قيد أو شرط ..
- همهم : دون قيد .. أو شرط .. ؟
- ثم هتف وهوينهض مبتعداً ..
- كلا .. ليس دون بيئة .. أو قاض .
- وتركت جناحه صامتة . لم يبق خلفها إلا العطر والرغبة المحمومة في نفس الخليفة ..
- وجاء المساء وقد غلفها الصمت البارد . ورمقها فادرك أنها لن تأبه به مرة أخرى . وفي الصباح جاء إليها غلامه وهو يقول ..
- يطلب منك مولاي أن تحضري مجلسه ..
- توجهت إلى القاعة .. رأت الخمسة واقفين . كانت سافرة كعادتها .. وتأملوها لبرهة ثم أحنوا رؤوسهم .. هل تعرفوا عليها ؟ . سألهم الخليفة في غلظة ..
- اذكروا أنسابكم ..
- أدهشهم السؤال المفاجيء . ثم ذكر كل واحد نسبه . هي الوحيدة التي نزعوا سبها . وحولوها إلى سلعة رخيصة .. وصرخ الخليفة ..
- أنساب كاذبة .. متتحلة .. وأنتم حفنة من قطاع الطرق ..
- برقت عينا فضل في إنتصار . دارت عيونهم في فزع . حطت عليها لبرهة وجيزة ..
- هتفوا ..
- ولكن يا مولاي .. قومنا والجفاف ..
- وصرخ الخليفة ..
- يا حراس . خذوهم إلى «التنور» لا أريد أن أسمع عنهم شيئاً بعد الآن ..
- وأحاط الحرس بهم . بأسمائهم ومخالبهم وكوابيسهم .. نظروا مرة أخرى .. لعلمهم كانوا يتساءلون عن هذه النظرة المتشبية على وجهها .. إقتادوهم وهم يتأوهون كالحيوانات يحاولون الدفاع عن أنفسهم بكلمات متقطعة .. وأصبحت القاعة خالية فجأة .. كانت فضل مازالت تحلم . والختاجر تسبق حلمها : تمت الصفقة يا مولاي .. وعلى أن ادفع الثمن .. والصفقة على أى حال .. خاسرة .. خاسرة حتى الموت !

إسحاق الموصلي

من يبيعني روحا ليست بذات جروح ؟!

إنحنى الخادم أمامه ، ثم قال :

- سيدي .. جاء الرجلان ..

وهتف به إسحاق الموصلي أن يدخلها فوراً .. أطفأ المصابيح ، وأسدل الستائر لأن النجوم كانت متألقة أكثر مما ينبغي . وجلس يرتعد . يسمع خطواتها القادمة . حتى وقفا أمامه بلا حركة . ثم أخذ يسمع صوت أنفاسه الثقيلة . فتح الأبواب ونظر خلفها فتح النوافذ والمشربيات . لم يكن هناك سوى إسحاق الموصلي : الآخر الموجود في داخله ، والغريب عنه في نفس الوقت . والرجلان يقفان في توحيد مع الصمت والظلمة . وفكر : يحسن بمن كان في مثل مركزى أن يتماسك قليلاً . لذلك صاح متظاهراً بالمرح واللا مبالاة .

- هيه .. هل تريدان شرباً أيها السيدان .. ؟ ..

ولم يردا عليه فأوشك أن يصرخ . جرى مثل طفل مذعور إلى صندوق النقود وأخرج كيسين كبيرين . ألغاهما تحت أقدامهما . وأخيراً تحرك أحدهما ، وأخذ الكيسين ودسهما تحت عباءته . وقال الآخر بصوت حاد كحافة السكين :

- من هو . ؟ ..

همس به إسحاق .. بالاسم كأنما يحدث نفسه : زرياب ..

- ما هو عمله .. وأين نجده .. ؟ ..

هتف في دهشة : ألا يعرفه أحد منكما .. إنه تلميذى .. وظلا صامتين .. وأصبح عليه أن يواصل حديثه المضطرب وحده .

لم يكن مضطرباً بالمعنى الدقيق للكلمة . كان فقط يحاول منع إسحاق الموصلي الغريب من أن يتحدث بكل هذا الحقد وهذه المرارة .. والرجلان متوحدان داخل الظلمة ، حتى

انه حاسى لنحطه اسها غير موجودين ، وأنه يتحدث مع نفسه . فهتف فجأة :

- يا أصدقائى إننى لست خائفاً . . المشكلة إننى أكره عدم الوفاء . . لقد كان
بلمبىدى

أزاح الستائر فرأى بغداد مثل أرملة وحيدة . سار إلى غرفة جاريته «دمن» ؛ أحد
حواريه إلى قلبه . كانت ساهرة . تحس عما يؤرقه . ألقى بنفسه جانبها وهو يهتف :

- قلبى مثقل الليلة يا «دمن» . .

مسحت يدها البيضاء على جبهته . وإبتسمت . رسمت على شفثيها قمراً صغيراً
وفكر : ان «زرياب» سوف يتحلل جسده فى التراب وهو وحده سوف يتحمل كل
العذاب . سألها :

- هل تمنيت قتل أحد . .

هتفت دون تفكير : نعم . النحاس الذى باعنى بالطبع .

الآن يستل الرجلان خنجرهما . ولعل الصرخة تصل إلى هنا . . قال فى سرعة :

- غنى شيئاً يريح قلبى يا دمن .

أمسكت العود . رددت الالحان التى علمها أياها : إنها الحان ماسخة . وكلمات
ركيكة بلا معنى . ولكن صوتها يختلط بصوت غريب . . بزرياب وهو ينادى عليه فى الليل
الساكين . فتسمع بغداد كلها النداء والصرخة . . فعاد يهتف بها :

- كفى . لم أكن أعرف أن الحانى يمثل هذا السخف .

وتركت العود دون مناقشة . لم تبذل أى جهد من أجله . من أجل أن تنشله من
داخله . ورأى اسحاق الخناجر وهى تخرق حسد زرياب الأسود . فتخرج دماؤه سوداء
تختلط بليل بغداد الأسود . وتذوب الجثة . ويضيع الوزر ، و «دمن» ترقبه فى هدوء قاتل

- لاعينى النرد . .

أحضرت النرد وأخذها يتبادلانه بينهما فى صمت . ونهض وخلع عباءته . وفك حزامه
ولم تتبعه دمن . ظلت تمحى فيه . مدت يدها فى حركة متوسلة وهمست :

- سيدى . . اننى أحب . .

التفت مذهشاً . تأمل وجهها المستكين الراض . خيل إليه أنه لم يرها من قبل

همهم :

- ماذا ؟ من . . ؟ . .

همست بأخر اسم كان يتوقعه : زرياب ..
هل صرخ .. ؟ .. هل سمع أحد الصرخة ؟ هل استيقظت بغداد ؟ . أين غاص
الخنجر .. ؟ ..

زرياب .. أيها الطائر الأسود الضال .. لماذا بنيت عشك على نافذتي ، والتقطت
حبك من دم شراييني .. حين وقفت بوجهك الكثيب وثيابك الرثة ، وركعت ، ومرغت
وجهك في عرق أقدامي .. وتوسلت إلى ؟ .

- مولاي .. علمني ..
لحظتها . إكتشفتك أيها الوغد الموهوب . جوهرة لا تخفى قيمتها حتى على مستديء
كان قدرني أن التقطك . وأعلمك . وأخافك ! ..

وسار اسحاق إلى مجلس الخليفة متأخرا . إكتشف أن الجميع قد سبقوه في الدخول .
لكنه تقدم صوب العرش دون أن يلتفت لأحد . كان مركزه يؤهله لهذا التقدم المباشر ..
قال الرشيد :

- جئت في وقتك يا أمير الغناء .. أحكم بيننا على هذه الموهبة الجديدة .
ورفع اسحاق رأسه فرأى الأمراء ، والقادة ، ورجال الحاشية . والشعراء .
وزرياب .. يرقبه وعلى وجهه إبتسامة مليئة بالشفقة . كيف وصل ؟ كيف وقف أمام
العرش ؟ . وسأله الرشيد :

- هل تعرفه .. ؟ ..
وتلجلج اسحاق وهو يحاول الأجابة . وتقدم زرياب .. ببرود قاطع :

- أنا تلميذه يا مولاي .. وأنغامي كلها .. فضل منه ...

من أجل ذلك كان لابد من قتله . لأنه أرغم اسحاق الذي في داخله أن يشي عليه أمام
الخليفة . إنه يظهر التواضع والسماحة الزائفة . وأمره الرشيد أن يناوله «العود» ، وأحرقه
اسحاق من جرابه وأصابه ترتعد . قدمه إلى زرياب لكنه لم يأبه به . ترك يده معلقة في
الهواء . واستدار قائلاً :

- يا مولاي .. لي عود نحته يدي وأرهفته بإحكامي .. لا أرتضى غيره .
وسأله الخليفة متعجباً :

- ما منعك أن تستعمل عود أستاذك .. ؟ ..
- إن كان مولاي يرغب في غناء إستاذي غنيته بعوده .. وإن كان يرغب في غنائي
فلا بد لي من عودي ..

واسحاق واقف كالابله . والطائر الأسود يفرس منقاره في لحمه . . وأحضر العود
فرأى الخليفة أنه لا يختلف . لكن اسحاق رآه . . وعرف سر اصبرار زرياب ، واختفائه كل
هذه المدة .

وضرب العود ضربة واحدة . . نغمة واحدة . ثم غنى . تنقل بين الأصوات كأنه
يسبح مع موج . يعلو وينخفض . يفتح كل جراحات القلب . وإرتعدت أحجار القصر .
وسكنت بغداد . ووكفت الأسواق عن البيع والشراء . وكفت السحب عن السفر . .
«زرياب» يغنى . . واسحاق يتضاءل . . يتبدد . كيف صنع هذا العود ؟ . وأى شيطان
ركب له أوتاره . ؟

وعندما توقف ظل الخليفة صامتا ، والمجلس محتبس الانفاس . هتف الخليفة ينادى
اسحاق فأدرك أنه سوف يأمر بقتله . . لكنه قال :

- كان يجب أن أعاقبك لأنك لم تخبرنى بأمر زرياب من قبل . اعتن به أكثر حتى أفرغ
له . . إن له معنى شائناً كبيراً . .

وانحنى إسحاق . وابتمس زرياب . إحتضن عوده ومضى . . كيف لا يقتله ؟ . .
دخل اسحاق ذات مرة إلى مجلس الخليفة . كان إبراهيم عنده وفى مجلسه عشرون
جارية . عشر عن يمينه وعشر عن يساره . وفور أن دخل سمع خطأ فى اللحن . فى عود
ما . . أو وتر ما . قال دون تردد . هناك خطأ يا مولاي . ونظر الخليفة إلى إبراهيم فقال :
لا يوجد خطأ . وأصر إسحاق . حدد الخطأ فى الجهة اليسرى . وإستمع إبراهيم إلى عزف
الجوارى العشر ، وأكد أنه لا خطأ . وأمر اسحاق الجوارى العشر أن يمسن وتضرب
الثامنة . وأقر إبراهيم بالخطأ حين عزفت الثامنة وحدها . . وقال الخليفة وهو يرمق اسحاق
فى اعجاب :

- يا إبراهيم . . لا تتجادل اسحاق بعد ذلك . . ان رجلا فهم الخطأ بين ثمانين
وتراً ، وعشرين حلقة لجدير ألا تتجادله . .
كان هذا قبل أن يظهر الطائر الأسود . . ويرفض عوده . . ويبدد أصواته .
قالت «دمن» وهى تسترد النرد :

- لو شئت قتلتنى يا مولاي .
تأوه اسحاق وهو يرندى عيائه ، ويربط حزامه : ما أكثر القتل هذه الليلة . . خرج
من غرفتها . إنحنى الخادم أمامه . . قال له :

- أحضر جوادى وجهزه للركوب . .

وفكر : سوف أذهب للخليفة ، وأعترف بكل شيء . .

مات أبوه إبراهيم الموصل ، وفي عظامه برودة السجن ، والخوف من التشرد في
الازقة . وحين أمسك إسحاق بعوده انهموه بأنه يسرق ألحان أبيه . لم تسمع أذانهم الصماء
إلا نشازات الوتر . فياويح قلبي أين منهم تلك النار التي تحرقني ولا تخبو ذلك الجوع
الذي يعضني ؟ . أغلقت أبوابي وأسدلت ستائري . أمرت الخدم ألا يدخلوا على أي
مخلوق . وما أن خلوت إلى نفسي حتى رأيته أمامي : ذلك الماخوري اللعين . شيخ يتوكأ
على عصي مطعمة بالفضة . على رأسه قلنسوة ملونة وفي قدميه خفان لهما نفس الألوان
تتداخل ملامحه في لحيته . وتتداخل لحيته في ثيابه وعباءته . . طوح الكأس بضربة من عصاه
وأمرني بالغناء . . فأخذت أغني . أخرج كل عصاة قلبي ، وكل أحزاني . ولم تفارق نظرة
السخرية وجهه . هتف بي . . يا لك من حيوان أعجم . . أهدأ عناء ؟ . وأخذ العود
وغنى هو . .

ولى كبد مقروحة من يبيعني .
بها كبدا ليست بذات قروح . . ؟ . .

فوجئت أن الجدران والأبواب والسقوف وكل من في البيت يتجاوب ويغنى معه . بل
أن أعضائي وثيابي وأنفاسي تمهاوت معه . أنني أتخلل وأبكي وأزحف على أربع . وأقبل
قدميه . وأعود . . أفتح النوافذ . وأحس بخشونة الجبال حول عنقي . ويأيد تجذبي إلى
قاع دجلة البارد . . وألقى الماخوري بالعود وأمرني بالغناء فبكيت . قلت : ليتني أستطيع
يا سيدى . ضربني بعصاه كأن رأسى قد انفلق . أخذت أغنى . . وأغنى . حتى تفتت
النجوم وتلونت الأقمار . وهتف بي . غن يا اسحق غناء حقيقياً . . وضربني ضربة
أشد . فغنيت حتى تواصل الليل والنهار . تفتحت كل الزهور . . ونضجت كل فتيات
الأرض واشتقن للحب والجماع وغنيت حتى فتحت الممالك دون سلاح . غنيت مراراً
وحرماناً . فخرجت البرودة من عظام أبي . وانفك قيد الرق عن معصم أمي . غنيت
«دمن» التي أشتريتها وعبدتها . وغنيت خوفاً القاتل من زرياب . وهتف الرجل : لقد
غنيت أخيراً يا اسحق غناء حقيقياً . . ولن تغنى بعدها أبداً . وكاد يمضى . فهتفت أنوسل
إليه أن يقول لي من هو ؟ . . فابتسم وهمس لي : ابشريا اسحاق . كان الشيطان نديداً .
هذه الليلة . . لقد أخذت روحك وأعطيتك المجد . . فكيف خسرت الصفقة أيها
الماخوري ، وسرق الطائر الأسود مجدى ؟ . .

انحنى الخادم أمامه وقال .
- الجواد معد يا مولاي . .

وقبل أن يستعد للنهوض . رفعت الستارة الموجودة على الباب . ودخل زرياب . .
ووقف أمامه لا غاضباً ولا مبتسماً . . قال في هدوء كأنما يقرر أمراً واقعاً :

- نَفَذَ نَجُوتٍ مِنَ الْقَتْلِ .
وَقَالَ إِسْحَاقُ بِصَرَاحَةٍ مُطْلَقَةٍ : هَذَا أَمْرُ يُوسُفَ لَهُ .
- إِنْ رَجَلِيكَ لَمْ يَجِدْكَ . لَكِنْ الْحِظُّ حَالَفَنِي هَذِهِ الْمَرَّةَ . هَذَا الْحِظُّ الَّذِي نَادَرَا مَا بِمَالَفَنِي .
وَأَرْتَمَى عَلَى أَحَدَى الرِّسَائِدِ وَهُوَ يَتَهَدَّدُ وَوَقَفَ إِسْحَاقُ . وَعِنْدَمَا سَادَ الصَّمْتُ بَدَأَ بِرَفِهِ . هَتَفَ .
- هَذَا يَزِيدُ الْأَمْرَ تَعْقِيدًا . لَوْ تَمَّ الْقَتْلُ لِمَرَّ كُلِّ شَيْءٍ بِسَاطَةِ مَتْنَاهِيَةِ .
وَتَأَوَّهَ «زُرْيَابُ» وَهُوَ يَهْمِسُ . أُنَى خَائِفٌ . .
وَصَبَّاحَ إِسْحَاقُ كَالْمُسْتَفْهِثِ .
- أَيُّهَا الْوَقْحُ . كَيْفَ تَأْتِي إِلَى وَأَنْتِ تَعْرِفُ إِنَّنِي الَّذِي حَرَضْتُ عَلَى قَتْلِكَ . مَاذَا تَرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ بِي ؟ . .
- لَسْتُ أَدْرِي . . إِنَّنِي خَائِفٌ فَقَطْ وَخَوْفِي مَيِّتٌ . كَأَنَّنِي أَوْلَدُ مِنْ جَدِيدٍ وَلَمْ يَقْطَعْ «خِلَاصِي» بَعْدَ ! .
وَلِأَنَّهُدَ إِسْحَاقُ جَالِسًا . وَأَخْفَى زُرْيَابُ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ . خَيَّلَ إِلَى إِسْحَاقَ أَنَّ «دَمْنُ» قَدْ دَخَلَتْ وَجَلَسَتْ عِنْدَ قَدَمِي زُرْيَابَ وَغَسَلَتْهَا بِمَاءِ الْوَرْدِ ثُمَّ حَمَلَتْ الْإِنَاءَ وَمَضَتْ وَخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّ زُرْيَابَ يَبْكِي . تَجَاوَزَ غَيْظُهُ وَنَهَضَ يَهْدِدُهُ . .
- أَنَا أَكْرَهَكَ . وَلَا حِيلَةَ لِي فِي ذَلِكَ . لَقَدْ مَكَّرْتُ بِي . وَأَرَدْتُ أَنْ تَعْلُقُونِي . حَتَّى الْعُودَ تَرْكَبْتُهُ فِي يَدِي مِثْلَ بَوْمِهِ مَيِّتَةٍ لَوْ أَنَّكَ وَلَدَيْ لَكْرَهْتِكَ بِنَفْسِ الدَّرَجَةِ . وَلَيْسَ أَمَامَكَ وَأَمَامِي إِلَّا الْإِحْلَانُ : أَمَا أَنْ تَذْهَبَ عَنِّي فِي الْأَرْضِ الْوَاسِعَةِ لَا أَسْمَعُ لَكَ خَبْرًا . وَأَمَا أَنْ تَقِيمَ فِي بَغْدَادَ عَلَى كَرْهِی وَرَغْمِي . . مُسْتَهْدَفًا لِسَهَامِي . فَإِنْ لَا أَبْقَى عَلَيْكَ وَلَا أَدْعُ لَأَغْتِيَالِكَ سَبِيلًا .
- وَتَسَاءَلَ زُرْيَابُ بِهَدْوٍ : إِلَى أَيْنَ تَرِيدُنِي أَنْ أَذْهَبَ . . ؟ . .
- بَعِيدًا . لَا إِلَى الشَّامِ . وَلَا إِلَى مِصْرَ . وَلَا إِلَى أَى بَلَدٍ يَظْلِلُهَا مَلِكُ بَنِي الْعَبَّاسِ . .
أَعْبِرَ الْبَحْرَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ . .
وَنَهَضَ زُرْيَابُ . . هَمَّهْمُ : سَوْفَ أَرْحَلُ اللَّيْلَةَ . .
كَانَ ضَعِيفًا . مَهْزُومًا . مُنْكَسِرًا دُونَ أَى مَبَرٍّ . وَذَهَبَ . .
- هَلْ أَشْعَلْتَ بَغْدَادَ أَضْوَاءَهَا . . أَوْ أَنَّ هَذَا الصَّبِيحَ قَدْ جَاءَ أَخِيرًا . . ؟ . . لَيْلًا أَوْ نَهَارًا لَا يَهْمُ . . لَقَدْ أَصْبَحَتْ لَهُ وَحْدَهُ . . فَهَلْ أَنْتِ يَا إِسْحَاقُ . . إِسْحَاقُ . . ؟ . .

ارغمت «دمن» وأخذت منها ما تريد . وغنيت للخليفة فوهب لك ضبيعة وجوادا وجارية . وحين سأل عن «زرياب» تحدثت عن غدر العبيد وكيف يفرون إلى خرائب بنى أمية . وأخذت تصعد ، وتواصل النش في جحر الفأر المسمى ببغداد . ويشرب الجميع طرباً لالحانك «الناشزة» . . وأنت وحدك تعرف متى يغنى زرياب . . حين يتداخل البرق والرعد وتفيض الأنهار في الربيع وبهاجر العصفير . لحظتها يغنى زرياب أنت وحدك تعرف . . لأن الخليفة لا يسمع . . والأمراء لا يسمعون . . .

قال اسحاق للخليفة المأمون :

- لا أريد أن أدخل مجلسك مع المغنين . أدخلني مع الشعراء .
ووافق الخليفة فارتفع إسحاق درجة . ثم عاد يلح أدخلني مع القضاة ، عموافق الخليفة وارتفع اسحاق درجتين . وألح أكثر وأكثر : أدخلني مع الفقهاء . . ووافق الخليفة فارتفع اسحاق ثلاث درجات . وكان لا يزال جائعاً . فتوسل للخليفة أن يدعه يصلي خلفه في المقصورة . . وزجر الخليفة من الغيظ . . وجعله يهبط كل الدرجات ويعاود الدخول مع المغنين .

وخرجت من عنده أهرز كنفى . واختتمت ليلتي باغتصاب «دمن» . . وفي الصباح وجدتني معلقة في جبل . والحبل يتدلى من السقف . وجهها أزرق ، وجسدها بارد . .

يقولون يا اسحاق : لماذا أنت حزين هكذا . . ٤ . . فأقول : لقد أضفيت نفسي من فرط الاشتها . وحملت روحى عبء طموحى . وغابت «دمن» في بئر لا قرار له . .

تمنى الخليفة الواصل أن يوليى قضاء بغداد لما عرف من عفة لسان وصدق نفسى . وها هي محكمة الموت معقودة فوق قبر «دمن» . ودافعت عن نفسى . ان زرياب كان ضعيفاً أكثر مما ينبغى منهزماً قبل أن تبدأ المعركة . . ومع ذلك حكموا بإدانتى . .

وفي منتصف الليل طرق خادم الخليفة بابى ، هتف بى :

- مولاي هارون الرشيد مؤرق . . ويريدك على الفور . .

أخذت عودى وسرت إلى القصر . وسمعته وهو يصيح مثل طفل مشاعب :

- أريد المغنى . . أريد الموصل . .

وارجمت على الأرض أمام سريرته . . وهتف الخليفة فى توجع :

- غن يا اسحاق . . قل أغنيات الموت التى تعرفها . .

أمسكت عودى لكن الريشة «انقصت» . كل ما معى من ريش قد «انقص» . وكل ما فى بغداد من حمام قد ذبح . توسلت إليه :

- لا أستطيع العزف يا مولاي' .. لا يوجد ريش .
وتناول الرشيد من منضدة بجانبه خنجراً مرصعاً بالماس .. صاح وهو يلقيه إلى ..
- عزف بهذا ..

ومررت بالخنجر على الأوتار . فتمزقت كلها . ونظر إلى الخليفة ببلاهة غاضبة . قلت
لم تبق إلا شراييني أصنع منها أوتاراً . غرست الخنجر فسال دمي قائلاً كرهبة لا تشيع .
وأخذت أغني .. قطرة .. فقطرة ، والخليفة ينصت راضياً .. وعندما أوشك دمي على
النفاذ ، هتف :

- هذا حسن يا اسحاق .. ولكنني الليلة .. كنت أحلم بزرياب !



عبد الله بن المعتز خليفة ليوم واحد

« أشقى الناس .. جسم تعب ونفس خائفة .. » ..
كسأت بغداد مثل سهم مسموم .. لا يدرى أحد من أطلقه ولا إلى أين
ينطلق ؟ .. وابن المعتز يردد هذه الكلمات .. وخلفه الأعوان .. خليط متنافر من
الشعراء والافاقين والترك والديلم .. كلهم يدفعونه دفعا إلى قصر «المخرم» كأنهم يدفعونه
إلى نهايته ..

هذا هو العام السادس والتسعون بعد مائتين .. واليوم هو الخميس التاسع من ربيع
الأول .. والموق أكثر من عدد الأيام .. والجميع متوجه إلى قصر «المخرم» بعد أن عجزوا
عن اختراق قصر «الحسن» حيث تحصن الخليفة «المقتدر» . وجاريتهم ظلم . ووزيره ابن
الفرات .

استوى ابن المعتز على العرش أخيرا .. لم يكن عرشا بالمعنى المفهوم .. كان مجرد
أريكة أحضروها من أحد أركان القصر المهجور .. وأنزلوا ما عليها من اترية .. وظل ما في
داخلها من حشرات صغيرة تزحف على جسد الخليفة وثيابه طوال مدة جلوسه لأخذ
البيعة ..

أسرع غلمان الترك وأحضروا قاضي بغداد «أبو الشوارب» .. قادوه للقصر دون أن
ييالوا بالرد على استئذنته .. وعندما وصل إلى القصر تقدم منه ابن حمدان والسيف متدل من
خاصرته .. وأمره قائلاً :

- استعد لمراسم بيعة الخليفة الجديد .
تساءل الشيخ في بلاءة :

- وماذا حدث للخليفة المقتدر .. ؟ ..

وكان الجواب دفعة قوية في صدره .. ونظرة حادة من عيني ابن حمدان .. وكان الخليفة الجديد ابن المعتز جالساً على الأريكة مرتبكاً كطفل ، خائفاً كفار مذعور وقع في مصيدة .. وأخذ القاضي يسأله عن نسبه حتى وصل إلى الجد الأكبر العباس بن عبد المطلب .. وإنتهى من مراسيمه الابتدائية ليعلن أن النسب صحيح .. والسند الشرعي متوفر .. وحين رأى السيوف متحفرة صاح ..

- إن خليفة الله في أرضه هو العباس عبد الله بن المعتز .. خليفة المسلمين وسليل العباسين .. واسمه الخليفة الراضي بالله ..

وهكذا أصبح على وجه الأرض خليفتان . فأيهما أحق بالبقاء وأيهما أحق بالموت .. ؟ .. ووقف وجهاء المدينة كل واحد ينقض بيعته القديمة ويؤكد بيعته الجديدة للراضي .. نهر دجلة لا يقف رغم ما في جوفه من جثث .. كذلك لا تقف الأرض بما عليها من مقابر .. فيا أيها النجم البعيد كن شاهداً على .. إن الأتراك الذين قتلوا أبي .. وقتلوا جدي .. يقفون الآن خلفي ليقبضوا بيعتي بسيوفهم ..

تقدم ابن حمدان .. القائد الأفاق . هذا السيف المعلق في خاصرته يبيعه لمن يدفع الثمن أكثر .. حارب مع العباسيين ضد القرامطة .. وحارب مع الطولونيين ضد العباسيين .. وها هو الآن ينكص عن بيعته للمقتدر ويتهافت لابن المعتز :

- من أجل المسلمين .. ومن أجل خليفة راشد .. عاقل .. أعطى بيعتي وإبرم عهدي ..

وأعطاه ابن المعتز الثمن فوراً .. عينه أميراً للجيش .. وتقدم ابن الجراح .. لعله كان الصادق الوحيد .. ولعل كل كلماته كانت هي الكلمات الصادقة الوحيدة .. وعندما بايع واستدار لينصرف .. أعطاه الوزارة .. فبدت على وجهه علامات الدهشة الحقيقية .. ثم تقدم «عمروية» .. جاسوس الوزير .. وعين الترك في مجالس العلم والفقه في بغداد .. بايع بكل الاخلاص .. وظل واقفاً حتى انتزع ولاية الشرطة من فم ابن المعتز .. وتوالت بيعة الجسيح .. وتفرقت مناصب الدولة .. أئمان باهظة لبيعة بخسة واريكة مليئة بالحشرات ..

وأحس ابن المعتز .. أنه وحيد .. يصرخ فلا يسمعه أحد .. مثلما قال الشعر قديماً وألف الكتب ، وكانت النتيجة السخرية من هذا الأمير الذي فشل في لعبة السياسة فلجأ إلى القلم وظل يطوف ببصره في الموجودين ثم نهض صائحاً :

- اين ابن جرير الطبرى . . ؟ . .
ونظروا إلى بعضهم في دهشة . . وتقدم ابن حمدان وهو يقول :
- الطبرى مجرد رجل من رجال العلم . . وليس لبيعته أهمية تذكر . .
لكن الخليفة ضرب الأرض بقدميه :
- بل لها أهمية . . هي أكثر أهمية من كل هذه البيعات مجتمعة . .
وانهد جالساً فأوشكت الأريكة على التداعى . . وصرخ في داخله . . إكتب بيعتى يا طبرى . . وهبى سطرأً من التاريخ . . منذ شهور أربعة عندما مات الخليفة المكتفى جاء الترك بالمقتدر وهو غلام لم يبلغ الثالثة عشر . . غالطوا في حساب عمره ليثبتوا أنه قد بلغ قبل البيعة . . يومها ذهب ابن المعتز إلى الطبرى . . وسأله :
- هل كتبت هذه البيعة الجديدة ؟ .
لحفظتها ابتسم الطبرى وترك ريشته في الدواة وهو يقول :
- إنما اكتب عن أحوال الزمان يا أمير . . وخلفاء اليوم كالريش سرعان ما ينقصف .
فمضى ينقصف سقى يا طبرى . . ؟ . .
- في السنة الرابعة من خلافة أبى «المعتز» اجتمع غلماناه الترك وقتلوه . . وحين حملوا رأسه إلى لم يكن يشبهها وهو على العرش . وإعتلى العرش عمى المعتمد فأصدر قراره بنفيها - أنا وأمى وجدى - عن بغداد . . وماتت أمى . . وماتت جدتى وهى تقول :
- لا تنسى أبداً انك خليفة . .
- حتى وأنا استجدى يا جدتى ١١٩ أمدح الخليفة فيأمر بالعطاء . . ولكن الوزير يمنعه . .
أمدح الوزير حتى تزهق روحى . لكن كاتب الديوان يوقفه . . فأمدح الكاتب . . وأمدح الخادم . . وأمدح الشرطى التركى . . ويصلنى عطائى فى النهاية مثل عصفور مقصوص الجناحين . .
- ثم سميت إلى «سرمين راي» ثم إلى بغداد . . واجتمع عندى شركائى فى البؤس . .
الشعراء . . والفقهاء . . وكنت بينهم يا طبرى . . بعينيك البراقيتين . . واذنك اللتين تسمع بهما دبيب العصر الخفى . .
- كنت أميراً . . صغيراً . . مغضوباً على . إذا شريت قطعة من خمرئار الخليفة . . وإذا زارنى فقيه علوى غضب الوزير . . وإذا لم أذكر القرامطة بسوء فى كل مناسبة تلمظ الأتراك . . كنت أميراً . . ضئيلاً . . مات المعتمد فتولى المعتضد وأول ما فعله هو القبض

على ووضعى فى السجن . . ولم يتركنى إلا بعد أن بايعت . . ومات المعتضد وجاء المكتفى
فوضعت فى نفس السجن . . وبايعت نفس البيعة . ولم أكن أريد العرش . كنت فقط أريد
لحظة من الأمان . . وأريد «خزامى» . . جارية «الضبط» المغنى . نهض ابن المتز واقفاً .
فنهض الجميع سار وسط القاعة وفكر حائراً . .

- هذا الليل سرعان ما ينتضى . ماذا سنفعل فى الصباح وفى بغداد خليفتان . . ؟ .
تقدم ابن حمدان وامسك سيفه فى قوة .

- سوف نحاصر «الحسن» طوال الليل يا مولاي . . ونقتحمه فى الصباح وناتيك
برأس المقتدر . . وظلوم وابن الفرات . .

وهتف الآخرون فى حماس . . وأشار لهم أن ينصرفوا ليكون موعدهم فى صلاة
الصبح . . وأخيراً . . أصبح وحيداً فتذكر «خزامى» . . هبطت على قلبه مثل قطرة
الندى . . لقد أصبح أخيراً خليفة . . أقوى رجل فى بغداد أو هكذا يخيّل له . . فهل
يستطيع أن ينتزعها من سيدها «الضبط» المغنى ؟ هل يستطيع أن ينتزع قلبها ؟ . . أول مرة
راها كانت تغنى من أشعاره . .

حدثينى يا هم سؤلى ونفسى . .
من دهان فى الحب أو من وشى بى ؟ .

منذ ذلك الحين وهو يطلبها وهى تنأى بعيداً . لا تعطيه صدا . ولا وصلاً . سار فى
جوانب القصر الخالية . . رأى أوراقه وكتبه . . هذا أهم كتاب ألفه «طبقات الشعراء» . .
سجل حافل لكل شعراء الدولة العباسية من أول ابن هرمه حتى الشيرازى . . لم يدع أحداً
منهم إلا ابن الرومى . . ذلك الشعوبى القدر الذى هجا أباه وشمت فى قتله . . سوف يبقى
هذا الكتاب بعد أن يزول العرش ولن يذكر أحد مدى المهانة التى عاناها وهو يؤلف كلماته
ويطلب عطاءه فلا يستجاب له . .

وهذا كتابه الثانى . . «الأوراق» . . تأملات فى أيام الحزن والمنفى . . وضع فيه كل
اشواقه وصباياته إلى خزامى . . كانت الكلمات تجسدها أمامه . . حين يختلط شوقه إليها
بوهمه فى لقائها . . والكتاب الثالث . . «الجامع فى الغناء» فيه كل خبراته فى الموسيقى
والشعر والاصوات . . كأنه تحدّ خفى للضبط المغنى سيد «خزامى» . . وكتاب الرابع
«فصول التماثيل» عن الخمر فقط . . من يصدق هذا . . ؟ . . حين نهى الخليفة عن
الشراب . . وإنّس الجواسيس فى الحانات والاديرة . . لم يحد سوى القلم كأساً . . وسوى
الورق نديماً . .

إبتسم فى حزن . . القلب مثقل . . والليل طويل . . تطلع للضفة الأخرى حيث
قصر «الحسن» . . مظلم أيضاً . . كلا القصرين والخليفتين ينتظران الصباح . وقرر أن

يترك القصر وأن يهبط للشارع .. إرتدى ثيابه وتسلسل كأنه لص .. وحين لمست قدميه
الوحد في طرقات بغداد تمنى لو أن له القدرة على الطيران إلى بيوت أصدقائه .. إلى الصولي
ليلاعه الشطرنج .. وقدامه بن جعفر ليقرأ معه الشعر .. والطبري ليساله عن أخبار
الزمان ..

وأدرك أنه لم يهبط إلا ليذهب إلى الطبري .. كان يقف بالفعل مثل طفل مذنب أمام
بيته .. فتقدم وطرق الباب .. وسمع وقع خطواته .. ثم فتح الباب .. وبدا الطبري
بلحيته البيضاء التي تصل إلى منتصفه .. وقف كلاهما مذهولاً أمام الآخر .. وارتج على
الطبري فأشار إلى الداخل وهو يقول :

- تفضل .. يا ..

واحتار ماذا يدعوه . سيدى .. أم أميري .. أم مولاي .. أم يفتح له احضانه
كالأيام الخوالي .. وزاد هذا الموقف من ارتباكهما معاً .. ودخل ابن المعتز صامتاً .. شاهد
الورق المتناثر والريش المقصوف الملقى على الأرض ، وجلس على أحد الحشايا .. وبلغ
ريقه في صعوبة ثم هتف بصوت خافت :

- لماذا لم تحضر بيعتي ؟ ..

وتخاذل الطبري فجأة .. أدرك أن الصديق القديم قد أصبح خليفة له شرطة ..
وجواسيس .. وسجون .. وقاموس خاص للكلمات النفاق :

- يا مولاي .. لست قائداً .. ولا أميراً .. أنا مجرد وراق صغير ..

وأوشك ابن المعتز أن يصرخ فيه . أمسك حزمه من الورق ونثرها بعرض الغرفة
وهتف :

- أنت لم تكتب بيعتي في أوراقك .. لم تسجل تاريخ خلافتي . ؟ !

ولم يستطيع الطبري أن يكذب أو ينافق .. ظل واقفاً وابن المعتز يجلس في الركن وهو
يرتعد ..

- أنت أيضاً .. تعرف أنني ريشة على وشك القصف ..
هتف الطبري في حيرة :

- مولاي .. لم أقل هذا ..

ورنت كلمة مولاي غريبة في أذنه .. اقترب الطبري ولس كفهُ بأصابعه الملوثة
بالمداد .. نظر كل منهما للآخر . توشجت بينهما فجأة كل الأواصر كالأيام الماضية .. وقال
الطبري في صدق :

- أنت رجل حقيقى .. متقدم فى معنالك .. عال فى رتبك .. ولكن الزمن
مدبر .. والدنيا مولىة .. وما أرى كل هذا إلا إلى أضمحلال ..
وهمس ابن المعتز فى خوف وحيرة :

- هل هى نهايتى .. ؟ ..
وصمت الطبرى .. فهمس ابن المعتز :

- لذلك لم تكتب ..

فردد الطبرى صدى صوته :

- لذلك .. لم أكتب ..
وأوشك أن يمتنق بالبكاء ، فنهض وأزاح الأوراق عن طريقه وهو يهتف بلوعة :

- عليك اللعنة يا طبرى .. سوف تكتب تاريخ موق ..
وانصرف من البيت لا يدرى هل يعود إلى داره القديمة .. أو يعود إلى قصر المخرم .
ووصل إلى شاطئ النهر فصرخ بأعلى صوته :

- لم أكن أريد .. فردد الصدى :

- لم أكن أريد ..

رغم أنه عرشى .. إمتطاه ثلاثة خلفاء غيرى .. واقتنص كل واحد منهم قطعة من
عمرى .. حين قادتنى سيوف الترك فى المرة الثالثة لأقف أمام المقتدر .. الخليفة الغلام ..
وأسمع ضحكات ظلوم من وراء الستر .. وهكذا قلت بيعة خوفاً الثالثة .. لكن القاضى
المنى نهض واقفاً وقال فى مواجهة كل الأصوات المؤيدة :

- هو صبرى .. ولا تجوز المبايعه له ..

شعرت اننى ارتعد .. لقد قال القاضى الكلمات التى أخاف قولها .. رفعت عينى
فوجدت القاضى ينظر إلى .. يطالبنى بالكلام .. هذه هى كلمتى .. وهذا هو عرشى
ولكنى رأيت سيوف الترك فتخاذلت وتركتهم يقودونه للخارج ويذبحونه .. ورغم أن
الأمر قد تفرقت .. ودبت الخلافات بين الكتبة ورجال الحرس القديم .. وأخذت
الجارية ظلوم وأم الخليفة «شغب» تدبران شئون الحكم .. فقد ظللت صامتةً محايداً ..
وأعلن ابن حمدان انشقاقه . والوزير ابو العباس وفاتك العضدى .. ومؤنس التركى ..
وجاءوا إلى .. يعرضون العرش والخلافة .. ليتنى ما قبلت .. ليتنى ما قبلت ..

وجر أقدامه إلى قصر المخرم .. ووجد الحراس نائمين .. والقناديل مطفأة .. وجاء
الفجر أخيراً .. بدأ أول نهار من نهارات حكمه .. واحتشد القصر بالناس كأن بغداد كلها

قد استيقظت في لحظة واحدة . . ووقف يصلى بالناس . . وابتهل طويلاً . . ثم التفت إليهم وهو يقول :

- قد آن للحق أن يتضح . . وللباطل أن ينفضح . .

وهلل الجميع . . وركب ابن حمدان قائد الجيش . . وعمارويه صاحب الشرطة . . وخلفها جنود الخليفة . . توجه الجميع إلى «الحسن» لحسم الأمر . . وأخذ الخدم يجمعون أشياء الخليفة استعداداً للانتقال . . إلى القصر الجديد . .

ثم تعالت أصوات المعارك . . وبدأت السهام والكرات الملتهبة تملأ سماء النهر والمدينة . . نظر من النافذة فرأى العشرات وهم يهرون وفي أيديهم السيوف والرايات . . ولم يعرف أى جانب يؤيدون . . وامتلاً النهر بالسفن والحراقات . . وسأل عن الأخبار فلم يجبه أحد بشيء . .

واقترح بضع الجنود القصر ليقولون أن الأمور لم تحسم بعد . . وانصرفوا على عجل كما جاءوا . . وسأل عن ابن حمدان فلم يجبه أحد . . وظل «الحسن» أمامه كأنه يسخر منه . . وسار بعض العامة والدراويش والصفوية يضربون الصنوج ويهتفون :

- نصر الله الخليفة . .

أى خليفة يعنون ؟ لم يدر . ظل حائراً . . مضطرباً . . يحاول أن يفتح القرآن . أو يمسك السيف . . وحين رفع رأسه وجد خزامى أمامه . . هل كان يحلم ؟ . . هتف بحرقة :

- خزامى لقد أحبيتك دائماً . . ؟ . .

انحنيت أمامه . . مدت ذراعيها كأنما تتعرض لشيء مجهول . . وهتفت :

- مولاي . . لقد مات ابن حمدان وفر جنوده . .

وهتف في حيرة :

- ماذا . . هل انهزم الخليفة . . وانتصر الخليفة .

- عليك بالفرار سريعاً . . إنهم يطلبون رأسك . .

كانت السفن توجه مقدمتها نحوه . . وجنود الترك يطوفون الحواري . . ويغداد مثل امرأة توشك أن تلد سفاحاً . . وهتف في يأس :

- ابن حمدان لم يمُت . . لقد انتصر على القرامطة . . وحارب من أجل

الطولونيين . . لا يمكن أن يموت دون ثمن مناسب . .

ولم تترك له وقتاً . . جمعت ثيابه وأمواله فصرخ يريد الكتب . . ولبس عباءته وارضى

كل منها على وجهه قناعا كثيفا .. وخرجا حيث ربطت الجياد .. وكانت الشوارع مليئة بالناس والسيوف والجثث والرايات .. وابتعدا سريعا دون أن يتعرف عليهما أحد .
وسألته :

- والآن .. أين يمكن أن نذهب .. ؟ ..

ها هي النهاية مثل كف مفتوح .. مرسوم عليه الماضي والحاضر والمستقبل . مثل خط مستقيم .. ترى لماذا راهنت عليه «خزامي» بعد أن خسر كل شيء .. أمى تعشقه : أم تعشق الموت في الهزيمة .. امنحيني يدك يا خزامي وهبى كالريح واعصفي بقلبي . كان العرش قديماً مليئاً بالعتة .. وكان القلب هراً مليئاً بالجروح ..

توجها إلى دار ابن الجصاص .. صديقه القديم . دق الباب في يأس .. وأنفتح على الفور ليرى ابن الجصاص خلفه مبهوتا .. أصفر الوجه وهو يقول .

- كنت أعلم أنك ستأتى إلى ..

تلفت في فزع ثم سمع لهما بالدخول دون ترحيب .. وبعد أن أغلق الباب التفت إليه وقال في حدة :

- انك لقاتلى .. ولكن لا أملك طردك ..

وابتسم الخادم إبتسامة صفراء وهو يهبط لهما الغرفة .. وحين أصبحا وحدهما أخيراً . استطاعت خزامي أن تجيب على السؤال الذى تأخرت إجابته طويلاً :

- وأنا أيضاً .. لقد أحبيتك دائماً .

وأدرك أنه لم يفقد عرشه سدى . حتى ابن حمدان نفسه لم يكن ليتقاضى مثل هذا الثمن .. واستطاع أن يحلم بصوت مسموع ..

- سوف نرحل بعيداً .. نطارد الشمس حتى نصطادها .. ونعرف من أين تهب الرياح الأربعة .. كان من الخطأ أننى فكرت فى هذا العرش الملىء بالعتة ..

وبكن خزامي دون صوت .. وقالت :

- أنت بائس .. تعس يا حبيبي ..

ولم يقل ابن الجصاص شيئاً لأحد .. لم يخنه ولم يجره .. كانت السيوف العمياء تمصّد كل من تمسه شبهة .. لذلك ركب جواده وهرب بعيداً .. لم يحتمل الخادم الأمر فاغلق عليهما الباب .. وذهب إلى الترك ..

ولم يسمعا ضجة الفرسان إلا وهم يقتحمون باب الغرفة .. وهم يدمدمون

كالحيوانات الغاصبة .. وانكسر الباب .. وبدأ خمسة من الفرسان شاهري السيوف ..
وصرخ واحد ..

- أين عدو الله .. ؟ ..

وألقت خزامى بنفسها عليه .. وتقدم أحدهم وجذبها من شعرها وألقاها بعيداً
وحمله الآخرون وهم ينهالون عليه بالضرب .. وهتف ابن المعتز في ذهول .

- قضى الأمر .. فلا حول ولا قوة إلا بالله ..
لكن القائد لطمه على وجهه وهو يقول .

- معك امرأة ثم تذكر اسم الله ! سوف يقام عليك حد الزنا يا عدو الله
كانت هذه هي التهمة اذن .. إقتادوه .. وأشاعوها بين العامة .. وعرضوا خزامى
عارية الصدر بعد أن مزقوا ثيابها .. وأركبوه حملاً مقطوع الذيل وجلس الخليفة الغلام ..
يسأله :

- أهذه نهايتك يا عدو الله .. ؟ ..

واحنى رأسه قائلاً : قضاء الله على عبده ..
جاء القاضي مسرعاً . نفس القاضي الذى أعلن خلافته .. وأصدر فتوى
عاجلة .. ان الزانى يرجم حتى الموت .. وطاف المنادى فى الشارع . وعاد الحمار
المقطوع الذيل مرة أخرى .. وكل أنصار الأمس حملوا الحجارة . وعلت اصواتهم فى زئير
جائع .. وهتف أحدهم

- يا عدو الله ..

وإرتطم الحجر الأول بوجهه .. وتداخل الناس والجنود والسيوف .. أحس بشعور
يهين .. بالغ الحدة .. وهبط على عينيه سائل لرج فتحول كل شيء إلى اللون الأحمر ..
جاء الحجر الثانى . خيل إليه أنه يلوح الطبرى يجمع أوراقه الملوثة بالمداد ويصرف .
نهالت الأحجار .. الحمار المقطوع الذيل توقف ونفضه من على ظهره .. ألقاه على
لأرض مبتعداً عنه .. وتحولت المدينة إلى كائن خرافى مسعور .. أخذت الأحجار تهال
لميه .. والدم يبتثق من كل مكان من جسده .. ومد يده عالياً . وتقلصت أصابعه ..
أنه يُشهد الجميع أن بيعته قد نقضت ..

تم الكتاب
بحمد الله

فهرس

- ١ - أبو الفرج الأصبهاني ٥
عن الكتاب وعن الكاتب
- ٢ - امرؤ القيس ١٣
أحزان الملك الضليل
- ٣ - شهود حرب السويس ٢١
- ٤ - الحارث بن ظالم المري ٤٥
طائر الصدى يدرك نأره
- ٥ - تأبط شرا ٦٣
الذين يموتون وهم وقوف
- ٦ - عروة بن الورد ٦٩
من يملك الكون الرحب
- ٧ - المنخل . المتجردة . النابغة ٧٧
الصداقة . الحب . الموت
- ٨ - عمارة بن الوليد ٨٥
بيد عمرو لا بيدى
- ٩ - الحسناء ٩٩
من أين جاءت بكل هذه الدموع ؟
- ١٠ - أمية بن أبى الصلت ١٠٧
المتوهم والمتنظر الأعظم
- ١١ - الخطيئة ١١٥
إنسان بلا ظل

- ١٢ - الرحيل إلى أرض تميم ١٢٣
- ١٣ - نائلة : ١٣١
إنهم يقتلون الإمام
- ١٤ - عمر بن أبي ربيعة ١٤٢
محاولة لتشخيص حاله
- ١٥ - قيس بن الملوح ١٤٩
والموت في الحب
- ١٦ - ديك الجن ١٦٥
الشراك منصوية للشعراء
- ١٧ - كثير عزة ١٦٥
نصيب الشعراء من العالم
- ١٨ - وضاح اليمن ١٧٣
الموتى يكتمون السر
- ١٩ - قيس بن ذريح ١٧٩
الطلاق أو الموت
- ٢٠ - الفرزدق ١٨٧
السائر على حافة السيف
- ٢١ - عبد الله بن الزبير ١٩٥
مقتل المستجير بالبيت
- ٢٢ - أشعب ٢٠١
العيش على فئات الآخرين
- ٢٣ - بشار بن برد ٢٠٩
لا عزاء للأعمى .. لا عزاء للجميع

- ٢٤ - عليّة بنت المهدي ٢١٧ .
 الحب بعيداً عن ضوء الشمس
- ٢٥ - عبيدة الطنبورية ٢٢٣ .
 الغناء من أجل الفقراء
- ٢٦ - فريدة ٢٢٩ .
 الموت فوق سرير الخلافة
- ٢٧ - ثم غنت عريب ٢٣٥ .
 « ألصق خلخالى بقرطى »
- ٢٨ - فضل العبدية ٢٤٣ .
 الحب صفة خاسرة
- ٢٩ - إسحاق الموصلى ٢٥١ .
 من يبيعنى روحاً ليست بذات جروح ؟
- ٣٠ - عبد الله بن المعتز ٢٥٩ .
 خليفة ليوم واحد

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ١٩٩٠/٨٣٠٠

I. S. B. N. 977 - 01 - 2586 - 5

○ ○ لماذا كتاب الأغاني

● وقعت في عشق هذا الكتاب منذ الصبا ، كل شيء فيه كان آسراً ، ليالى السمر ، اعانى الجوارى ، مصارع العشاق ، نبل الفرسان ، هوس الشعراء ، كان مؤلفه أبو الفرج الأصفهاني كان يحاول ان يمكس في يده آخر أهداب المجد الضائع وهو يكتب مرثية طويلة لشمس الحضارة العربية الغائبة . لم يكتب عن الملوك والأمراء والقادة ، ولا عن الفتوحات العظيمة ولكنه كتب « التاريخ الصغير » تاريخ البشر العاديين في ضعفهم وقوتهم ونزواتهم الصغيرة . وظل الكتاب بلا زمن حتى وجدتني - بعد عام ١٩٦٧ - ابحث فيه عن أزمة جيلنا وزماننا ، اطرح عليه اسئلتى الملحة هل كان مقدرنا على الشخصية العربية ان تعيش الهزيمة الدائمة ؟ هل كانت الأمجاد السابقة مجرد وهم من الأوهام ، وقدم لي الكتاب القليل من الاجابات والكثير من الأسئلة لقد وجدت فيه الجذور الأولى للشخصية العربية بكل ما فيها من سمو وضعف وجنون . شخصيات لازالت نابضة بالحياة ، حافلة بالالم تحمل نفس الهموم المعاصرة وان اختلفت الاقنعة كل ما فعلته خلال هذه السطور اننى قدمت قرائتى المتواضعة لهذا الكتاب الثمين واعترف ان لحظات الحب التى عشتها وانا اكتبه قد لونت كل حروف كلماتى وحولت كل سطر من سطره إلى ذكرى لا تنسى مهما كان فيها من الم